- العقل والوحي.. دراسة في حقل المعرفة
- قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل
- القيم والتحولات الاجتماعية في القرآن الكريم
- اللاعنف في المنهج الحركي لأهل البيت عليهم السلام
- الأكراد الفيلية.. القضية المغيبة

ملف: الإمام الشيرازي..
ملامح المدرسة وآفاق التجديد

المشاركون

:: الشيخ محمد الطيوات :: الشيخ زكريا داوود :: الشيخ ناجي زواد
:: الشيخ فيصل العوامي :: السيد محمود الموسوي :: عباس الجمري

العدد ٣٠ـ السنة الرابعة عشر ـ شتاء ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م

سعر العدد

▪ لبنان ٣٠٠٠ ل. ل	▪ البحرين ١,٥ دينار	▪ ألمانيا ١٠ مارك
▪ سوريا ٦٥ ل. س	▪ قطر ١٥ ريال	▪ سويسرا ١٠ فرنك
▪ مصر ٥ جنيه	▪ عمان ١,٥ريال	▪ هولندا ١٠ فلورن
▪ الأردن ١,٥دينار	▪ السودان ٢٥٠٠ جنيه	▪ إيطاليا ٥٠٠٠٠ ليرة
▪ السعودية ١٥ ريال	▪ المغرب ٢٥ درهم	▪ أمريكا ٥ دولار
▪ الكويت ٢دينار	▪ تونس ١,٥دينار	▪ كندا ٤ دولار
▪ الإمارات العربية ٢٠ درهم	▪ الجزائر ٢٢ دينار	▪ أوستراليا ٦ دولار
▪ اليمن ٣٠٠ ريال	▪ إيران ١٠٠٠٠ ريال	▪ الدول الأوربية والأمريكية
▪ العراق ١٥٠٠ دينار	▪ بريطانيا ٢,٥ جنيه	الأخرى ٥ دولار.
▪ ليبيا ١,٥دينار	▪ فرنسا ٣٠ فرنك	

الاشتراك السنوي

▪ **لبنان وسوريا ٢٠ دولاراً.**	▪ **أوربا وأمريكا وسائر الدول ٤٠ دولاراً.**
▪ **باقي الأقطار العربية ٣٠ دولاراً.**	▪ **المؤسسات الرسمية والخاصة ٦٠ دولاراً.**

التوزيع خارج لبنان: الفلاح للنشر والتوزيع
لبنان ـ بيروت ص.ب ١١٣/٦١٥٩
فاكس: ٩٦١-١-٨٥٦٦٧

تحول الاشتراكات على بنك عودة ـ لبنان، رقم الحساب ١-٤١٦/٢٥٤٨٦٨

هيئة استشارية
الأستاذ صادق العبادي
الأستاذ صاحب الصادق
الشيخ محمد عليوات
الأستاذ حسن العطار

رئيس التحرير جعفر حسين

مدير التحرير متوكل محمد علي

هيئة التحرير
الشيخ زكريا داوود
حسن علي

المقالات والدراسات التي تنشرها البصائر
لا تعبّر بالضرورة عن آراء المركز أو المجلة

لبنان - بيروت - الحمراء ص.ب. ١١٣/٦١٥٩
P.O.Box 113/6159 Hamra -Beirut-Lebanon
E-mail: ALBASAER@GAWAB.COM

يصدرها مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في حوزة الإمام القائم (عج)

العدد ٣٠
السنة الرابعة عشر
١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م

محتويات العدد

من المحرر ٦

كلمة البصائر

- العقل العربي والثقافة الزائفة ٧

من بصائر الوحي

- العقل والوحي... دراسة في حقل المعرفة - الشيخ معتصم سيد أحمد ١٠

دراسات قرآنية

- قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل - الشيخ علي الصيود ٤٢
- أوليات في فقه السنن في القرآن الكريم - الشيخ محمد محفوظ ٥٢
- القيم والتحولات الاجتماعية في القرآن الكريم - الشيخ زكريا داوود ٦٢
- الإصلاح الديني وتأثيره في التحولات الاجتماعية - الشيخ حبيب الخباز ٧٢
- انتكاسة السامري وثقافة المرحلة - الشيخ عبدالغني عباس ٨٦

قضايا إسلامية فكرية

- اللاعنف في المنهج الحركي لأهل البيت - إبراهيم محمد جواد ٨٩

الشيرازي.. ملامح المدرسة وآفاق التجديد

- الحريات.. قراءة في فكر الإمام الشيرازي - الشيخ محمد العليوات ١٠٣
- الشيرازي والتعاطي مع النظم السياسية.. قراءة في المقدمات - الشيخ زكريا داوود ١١١
- ملامح المرجعية القيادية عند الإمام الشيرازي - السيد محمود الموسوي ١٢٢
- قراءة التطلعات والرؤى في فكر الإمام الشيرازي - الشيخ ناجي زواد ١٣٦
- الشيرازي بوصفه حداثياً - عباس الجمري ١٥٢
- المدرسة الشيرازية بين الذهاب والإياب - الشيخ فيصل العوامي ١٥٩

رأي

- نقاط الضعف والقوة في مؤسساتنا الاجتماعية والثقافية - آية الله السيد عباس المدرسي .. ١٦٢

إسلام ومسلمون

- الأكراد الفيلية القضية المغيبة - جلال سليماني ١٦٧

نافذة الأدب

- في بلادي - آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي ١٧٢

من الذاكرة الإسلامية

- معطيات السلام - آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي ١٧٥

قراءة في كتاب

- طريق النجاة - بدر الشبيب ١٧٨

إصدارات حديثة ١٨٤

متابعات وتقارير ١٩٠

كلمة في الختام ٢٠٠

من المحرر

ترتبط المفاهيم التي يحملها الإنسان عن الحياة بواقعه الذي يصنعه، وغالباً ما تمثل هذه المفاهيم المدخل لقراءة الحدث والتفاعل معه، فإذا كانت تلك المفاهيم تتسم بمعايير أحادية فلا شك أن مواقفه وتعامله مع الحدث وأشخاصه سوف يتبلور وفق تلك الرؤية الأحادية، أما إذا كانت المعايير متنوعة منفتحة على القراءات فمما لاشك فيه أن مواقفه ورؤاه للحدث سوف تكون أكثر قدرة على التفهم، هنا ومن خلال قيم ومعايير لا تلغي الآخر يمكن صنع مستقبل أمة ناهضة، لأن شرط النهوض الحقيقي وعي الآخر وتفهم مواقفه بصورة صادقة ودون تزييف للحقائق والوقائع.

وفي هذا العدد تنطلق مجلة البصائر في ملف خاص عن التحولات الاجتماعية من منظور قرآني، حيث يقوم الباحثون بكشف تلك القيم والسنن التي تشكل معايير واقعية لقراءة صادقة للمشكلات، من خلال الانفتاح على حقيقة التحولات وفهم صيرورتها من خلال النص المعصوم، الذي يحدد معايير القراءة المتنوعة للظاهرة الإنسانية المتطورة والمتحركة دائماً.

ومن ذات الزاوية أي تكوين مفاهيم قادرة على تحقيق وعي صادق، تنطلق البصائر لقراءة أحد قادة النهضة والثورة والعلم والسلم والحضارة، في ملف يبحث في مسيرة مجاهد هو آية الله العظمى الإمام الشيرازي رحمه الله، الذي أسس مدرسة فكرية وعلمية جديرة بالقراءة العميقة، فأسهم في التأسيس للحريات وحقوق الإنسان والسلم واللاعنف وغيرها من المفاهيم التي حفلت بها مدرسته، وهناك موضوعات أخرى تصب في ذات الرسالة وهي توصيل الفكر الحر الذي يبني الأمة انطلاقا من وعي المفاهيم والواقع والقيم.

العقل العربي والثقافة الزائفة

■■ رئيس التحرير

أظهرت الكثير من الأحداث التي جرت أخيراً ضرورة إجراء مراجعات كبرى للعقل العربي، ليس لأن ذلك شرط في تحقق عوامل النهضة فقط، بل لأن العقل العربي أثبت عدم قدرته على فهم الواقع ومجرياته، وفشله الذريع في إعطاء قراءة محايدة للأحداث المصيرية، وسكون الهم الطائفي والقومي في تفسيره للأحداث الكبرى، وإذا كان كذلك فلا يمكن إنجاز مشروع نهضوي يهتم بالأمة ككل، مع احتضان الاختلافات العرقية والقومية والمذهبية والإقليمية.

إن العقل العربي تلبَّس منذ أمد بعيد بثقافة الاستبداد والنظرة الأحادية، التي تلغي فهم الآخر، ووجوده وآلامه وأحزانه، وأصبحت الأمة مجتمعات متفرقة متشتتة، وتحوَّل قانون التعارف إلى ضده (= التناكر والتدابر)، ولم تعد الأمة تشعر بالوحدة، وأصبح لكل جماعة همومها وتطلعاتها بعيداً عن السياق العام للأهداف والتطلعات والآلام، فإذا اشتكى شعب أو مجتمع أو جماعة من الأمة من المحنة والكبت والارهاب واستبداد الحاكم لم تشعر المجتمعات الأخرى بذلك، بل إذا غمر شعب الفرح ترى الطرف الآخر خارج سياق المشاركة الوجدانية لهذا الشعب أو ذاك، كما لا حظنا ذلك في الحدث الأخير (القبض على صدام حسين)، حيث غمرت الشعب العراقي الفرحة لهول ما عاناه من آلام وقتل وتشريد وكبت وإجرام من طاغية العصر، لكن شعوباً عربية أخرى خرجت عن سياق مشاركة الشعب العراقي الفرحة، وتحولت للنقيض، وهذا ما يدعونا لقراءة جديدة للعقل العربي، ويطرح تساؤلات كبرى بحجم الحدث، فهل يقدس العقل العربي الاستبداد ؟ وهل من الصحيح أن الفكر الإسلامي يكرس النظرة الأحادية ونبذ الآخر؟ وهل المستبد وليد ثقافة أم وليد سلوك أمة ترضى بالذل وتعشق المستبد، كما لاحظنا حالات البكاء والإغماء التي رافقت تشييع حكام رحلوا إلى دار البقاء؟! هل من المعقول أن ينوح السجين على جلاديه؟!!

الأصول الثقافية التي ترسم لنا التطلعات وتحدد لنا الأهداف، هي التي تجعلنا نتخذ هذا الموقف دون ذاك، ونتعاطف مع هذا الشخص دون غيره، ومن أهم تلك الأسس الثقافية ما يرتبط بتحديد

الحاكم الأقدر والأكثر كفاءة على تأدية دوره وتفهم مجريات الأحداث المصيرية ومن ثم الانطلاق نحو التطور والتقدم دائماً، وقد بحثها علم الكلام الإسلامي تحت عنوان « الإمامة السياسية »، وكان اتجاهان رئيسيان سيطرا على العقل الكلامي، أحدهما تزعمته مدرسة أهل البيت عليهم السلام، والآخر تزعمته السلطة، مدرسة الخلفاء، التي كانت نظريات عديدة تحكم رؤيتها تجاه الحاكم، لكن نظرية الواقع يشرْعِن السلطة هي الحاكمة على العقلية العربية، فما دام الحاكم مسيطراً على مقاليد الحكم والقوة فهو وإن كان « فاسقاً أو فاجراً » لا يجوز الخروج على ولايته، وقد مهدت هذه النظرية وأرست الأسس العامة للاستبداد وضرورة التعايش معه، وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، وبهذا أصبح الاستبداد والكبت والقهر هو ما تنتجه السلطة وما برعت فيه خلال تاريخنا القديم والمعاصر.

وهنا يتحول المستبد إلى منقذ، وبطل، وقائد تاريخي، وتاريخياً يتحول إلى أمير المؤمنين، وظل الله في أرضه، ولا يهم أنه يقترف كل المنكرات ويتجاهر بكل المعاصي، كما فعل يزيد بن معاوية الذي قتل صحابة الرسول صلى الله عليه وآله في وقعة الحرة في المدينة واستباح المدينة لجيشه ثلاثة أيام انتهكت الأعراض وقتل خيرة المجتمع المدني، والذي قام بهدم الكعبة، وقتل سبط الرسول وريحانته وأهل بيته عليهم السلام، هنا يتحول يزيد من خلال تنظير هذه المدرسة السلطانية إلى أمير المؤمنين، وبالطبع إذا كان يزيد أميراً للمؤمنين، فلا محذور من تولي السلطة من لا يملك أدنى مقومات الحكم والوعي السياسي والكفاءة على تخطي الأزمات.

وقد أسهمت النظريات السلطانية في تطبيع علاقة العقل العربي مع الحاكم المستبد فاعتبره ضرورة توليها الظروف الحساسة التي تمر بها أمتنا، بل خرج علينا حتى المصلحون كجمال الدين الأفغاني ليروج لنظرية « العادل المستبد »، وهذا الأمر يظهر شدة التأثر بالتراث المنتج داخل المؤسسة الفقهية السلطانية، التي برعت كثيراً في تضليل العقل العربي وروجت لثقافة شعبية تقدس المستبد وتبكي على أطلاله، وكانت في النهاية تستهدف التبرير الأيديولوجي للمؤسسة السلطانية، ولم يكن أثر التراث منحصراً في الماضي، أو في دولة الخلافة، كلا بل امتدت هذه الثقافة والأيديولوجيا إلى عصرنا الراهن حيث استدعى الحاكم العربي كل تلك المقولات التاريخية التي أنتجتها المؤسسة الرسمية الفقهية لدولة الخلافة، وجعل الخروج على مدلولاتها هرطقة وزندقة وتطرف.

إن الاستبداد والكبت والقهر هو الذي ينتج التطرف والارهاب، لأن المجتمع عندما يفقد قنوات التعبير الحر، وعندما ينتج السلطان ثقافة نبذ الآخر على أساس عقائدي أو قومي أو عرقي، هنا وبصورة طبيعية يتولد العنف وتتولد الاتجاهات المنحرفة أو التي تمارس الإرهاب سواء باسم الدين أو تحت أية واجهة أخرى، ولا يمكن للأيديولوجيا التي تبرر للسلطة المستبدة أن تحل تلك الأزمات، الإرهاب، التطرف، العنف، كما أنها لم تستطع حل ذلك تاريخياً، بل كان الاستبداد سبب سقوط الأنظمة والحكومات ليس في التاريخ العربي والإسلامي فحسب بل في تاريخ الإنسانية جمعاء.

لابد من قراءة واقعية وموضوعية لظاهرة التكيف العربي مع السلطة المستبدة، ومن المهم أن نحدد أسباب وعوامل خدمة العقل العربي متمثلاً في النخبة المثقفة لظاهرة الاستبداد عبر تاريخنا، فقد

مثل المثقفون إلا ما ندر الأداة التي يبرر بها السلطان فعاله، وكانت كتب الآداب السلطانية التي أنتجتها ثقافة السلطة متمثلة في الوعاظ والفقهاء الذين كانوا يرتزقون من بركات المستبد تسعى لنشر ثقافة الطاعة العمياء بين عامة الناس، وبالطبع لا زالت تلك الثقافة ساكنة في العقل العربي، وهي التي تحدد لنا تطلعاتنا وسلوكياتنا، وما البكاء على الحاكم العربي عند رحيله عن الدنيا والذي شهدناه في أكثر من بلد إلا مؤشراً على تغلغل تلك الثقافة الزائفة في عقلنا العربي، وما دامت تلك الثقافة هي التي تحدد تطلعاتنا فلن تكون هناك إصلاحات حقيقية في النظام العربي، وسوف تكون كل المبادرات التي تخرج من عباءة المثقفين والداعية للإصلاح مجرد ذر الرماد في العيون.

الإصلاح الحقيقي لكل مناحي حياتنا، يبدأ من التأسيس لثقافة منطلقة من القرآن تجعل الهدف الأساس إقامة القسط بين الناس، والعدالة في الحكم، وقد يلاقي هذا الأمر بعض الصعوبات حتى من قبل الناس الذين ألفوا العبودية وتكيفوا مع الاستبداد ويرون أن الخروج على المألوف في الحكم هو خروج عن الدين وقيم التراث كما نلاحظ ذلك حتى من قبل بعض النخب المثقفة التي ترى في الديمقراطية والحرية مخالفة للأسس الدينية التي ألفوها في كيفية أنظمة الحكم، وهي إشكالية قديمة، تعرض لها رواد الإصلاح والتغيير في تاريخنا الإسلامي، كما حدث لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث تشبعت نفوس الناس في عهده بثقافة الاستبداد وكان من الصعب عليها أن تألف نظاماً جديداً يقوم على العدل، ولذا لاقى الإمام علي (عليه السلام) صعوبات عديدة في ذلك حيث يقول (عليه السلام): أيّتها النفوس المختلفة، والقلوب المتشتّتة، الشاهدة أبدانُهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم(أعطفكم) على الحقّ وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد! هيهات أن أطلع بكم سَرارَ العدل، أو اُقيم اعوجاجَ الحقّ.

اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسةً في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنَردَ المعالم من دينك، ونُظهر الإصلاح في بلادك؛ فيأمن المظلومون من عبادك، وتُقام المعطّلة من حدودك.

بخلاف مدرسة الخلفاء، كانت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) تؤمن أن العدل يمثل أصلاً ليس عقيدياً فحسب، بل في كل الممارسات الأخرى، ففي العبادة يشترط فقهاء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) العدل في إمام الجماعة، فلا تصح الصلاة خلف الفاجر أو الفاسق، بينما المدرسة السلطانية لا تشترط العدالة فتصح العبادة خلف الإمام الفاجر « صلوا خلف البر والفاجر » ، وهكذا تتأسس الكثير من المناشط وفق قاعدة القبول بالظلم، أما مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، فتجعل أهم شرط الحكومة (الإمامة العامة) والإمامة في الصلاة هي العدالة، وتفقد النظم السياسية الشرعية عندما تفقد العدالة، وتُفقد مشروعية الائتمام في العبادة عند فقد العدالة كذلك، من هنا يتأسس المجتمع الإسلامي في النظرة القرآنية وفي مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) من خلال إقامة العدل والقسط، ولا يمكن أن ينجح المشروع النهضوي للأمة إلا من خلال نشر ثقافة حقيقية تجعل الاستبداد والظلم قيماً سلبية يجب القضاء عليها ونبذها من حياتنا، وليكن رائدنا كتاب الله العزيز حيث يقول: ﴿ يَا أَيُّهَآ الَّذينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامينَ للّه شُهَدَاء بالْقسْط وَلاَ يَجْرمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدلُواْ اعْدلُواْ هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّه خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ.. ﴾ □

العقل والوحي... دراسة في حقل المعرفة

■■ الشيخ معتصم سيد أحمد*

الواقع بين التحقق والخيال

العلم والعقل، هما الرابط الذي يخلق تلك العلاقة بين الإنسان، كموجود مستقل، وبين الواقع الخارجي، وما يحيط به من وجوديات مادية، أو معنوية، وقد تفرد الإنسان بهذه العلاقة المعرفية، التي تكسبه حالة التعقل، والإدراك، والفهم، ومن هنا كانت نظرية المعرفة، من أهم ما اهتم به البشر على طول تاريخه الفكري، من إيجاد آليات، وتأسيس مناهج لتقييم المعرفة، بعد أن اصطدم الفكر بموجات تشكيكية زعزعت الثقة في ما أنتجه العقل من معرفة.

ومن هنا كان الهاجس الذي أرق فلاسفة البشر، هو السعي لتحقيق طرق لإثبات أن هنالك واقعاً حقيقياً وراء الذهن، ومن ثم بلورة أسس منهجية تمنع الذهن من الوقوع في الخطأ والاشتباه في الواقع؛ ولبلوغ هذه الغاية ابتدع العلماء نظريات متعددة، تجتهد كلها في بلورة تلك الصورة المنهجية لتصيغ عملية التفكير البشري، وتقيم إنتاجه.

وبشكل أو بآخر، ابتلي الفكر البشري بنزعات مثالية، حاولت أن تشكك في الوجود الخارجي بنسب متفاوتة، وبطرق متباينة.

فمن المثالية، التي أنكرت من الأساس تحقق أي موجود في الخارج، وحاولت أن تبرهن على ذلك، بإنكار أي قيمة للمعرفة تثبت وجود الواقع، إلى مذاهب شككت في قيمة المعرفة التي تثبت الواقع، فهي لم تنفِ تحقق وجود خارج الشعور، ولكنها تشكك في طريق إثباته، إلى النسبية الذاتية في المعرفة، التي تعتقد أن ما يدركه الشعور من الواقع ليس هو تعبير للواقع بما هو في الخارج، وكل ما يدرك هو بالنسبة لنا لا يتعدى رمزاً يشير إلى كلي الحقيقة، هذا بالإضافة إلى النسبية التطورية التي أنكرت ثبوت المعرفة، التي ترى أنها تنمو وتتطور شيئاً فشيئاً.

* عالم دين وباحث من السودان.

كل هذه التصورات خلقت أزمة حادة في الفكر، مما جعل التحدي كبيراً، في رد هذه الإشكالات، بتأسيس مناهج تحفظ قيمة المعرفة.

يقول السبحاني « إن من المسائل المهمة في هذا العلم تقييم ما يريه الذهن بصوره وإدراكاته، فبعد الإذعان بأن هناك عالماً واقعياً وراء الذهن، والإنسان جزء منه، يقع الكلام في مدى صحة ما يعكسه الذهن عن ذلك العالم، وأن الإدراكات الذهنية هل هي مطابقة للواقع مطابقة تامة، أو أن ما يدركه الذهن شبح وطيف من الحقيقة، وليس هو نسخة مطابقة للأصل، بل هناك فروق ماهوية بين العلوم الذهنية والكونيات الخارجية. تلك المعارف والعلوم ومجمل الأفكار البشرية، لا يقام لها وزن ولا اعتبار ما لم تعلم قيمة نفس المعرفة بأبعادها المختلفة، وبالدرجة الأولى اتخاذ موقف حاسم فيما يرجع إلى وجود عالم واقعي وراء الذهن أولاً، ثم على فرض وجوده، بيان مدى قدرة الذهن وأدواته التي تجهز بها، على كشف ما وراءها، هل تكشفه كشفاً تاماً، أو أنها لا تكشف إلا عن صورة ناقصة لـه؟ »[1].

ومن هنا يمكننا القول، إن نظرية المعرفة عند البشر تسعى لتشكيل معيارية تُقيّم بها الإنتاج المعرفي، وهي بالتالي خلقت كيفية محددة لضبط تلك العملية الفكرية، وقبل الخوض في تبيان هيكلية تلك النظم القانونية، لا بد من الإشارة، إلى أن نقاشنا محصور مع المدرسة الواقعية، وتبيان مدى نجاحها أو إخفاقها في البرهنة على إثبات الواقع، وذلك لأن المدرسة الواقعية هي التي اعترفت بوجود واقع خارج الذهن يمكن التعرف عليه، فكان لا بد أن نثير البحث معهم حول ماهية العلم والعقل، اللذين هما الأداة الحصرية في إنتاج الفكر عند البشر.

وقد انحصر الخلاف في تحديد العلم وتشخيصه، ومعرفة كيفية إدراكه للواقع الخارجي. ومن هنا سوف نعقد هذا الفصل لتبيان الفواصل الجوهرية بين منحى البشر ومنحى معارف الأنبياء في أول سلم من مباني المعرفة.

تعريف العلم في الاصطلاح المنطقي والفلسفي

تعددت التعريفات عند الحكماء، والمناطقة، ولكنها تكاد تتفق على كون العلم ينقسم إلى حصولي، وحضوري؛ والحصولي إلى تصور، وتصديق، وللوقوف على هذه التعريفات ومناقشتها نستعرض أولاً جملة منها:

١ - صدر الدين الشيرازي: « وأما الفلاسفة فقالوا: العلم هو صورة حاصلة في النفس مطابقة للمعلوم، والمراد بالصورة عندهم هي ماهية الشيء موجودة بوجود آخر غير الخارج. كما يحصل في المرآة صورة الإنسان بوجود ظلي غير وجوده الأصلي... قد قرروا أن جميع الصور الذهنية كيفيات نفسانية ».

٢ - السيد شريف الجرجاني: « العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل... العلم الانطباعي هو حصول العلم بالشيء

بعد حصول صورته في الذهن، ولذلك يسمى علماً حصولياً، العلم الحضوري هو حصول العلم بالشيء بدون حصول صورته في الذهن، كعلم زيد لنفسه ».

٣ - نصير الدين الطوسي: « منها « الكيفيات النفسانية » العلم وهو إما تصور أو تصديق جازم ثابت.. ولا بد فيه من الانطباع في المحل المجرد القابل.. ويختلف باختلاف المعقول. ولا يعقل إلا مضافاً.. وهو عرض لوجود حده فيه ».

٤ - المحقق الكاشاني: « العلم هو حضور صورة الشيء للعالم وحضورها لديه مجرداً عما يلابسه، والجهل ما يقابله، وهما يرجعان إلى الوجود والعدم، وذلك لأن من علم شيئاً، فإن كانت صورة المعلوم عين ذاته وذاته عين وجوده الذي لا ينفك عنه فيعلمها دائما لوجوده، فوجوده العالم ووجوده المعلوم ووجوده العلم، وذلك كعلم الله سبحانه وعلمنا بذواتنا ».

٥ - ويقول الشيخ المظفر « العلم هو الصورة الحاصلة من الشيء في الذهن ».

فلم يتعد العلم في هذه التعريفات،كونه صوراً ذهنية انتزعت من الخارج، بشكل مجرد عن حيثيات المادة.

اعتراضات على التعريف:

لقد أشكل بعض الفلاسفة، والمناطقة، على هذا التعريف من باب، أنه ليس جامعاً مانعاً، لا من باب الاعتراض على كون العلم صورة حاصلة من الشيء في الذهن، وقد أشاروا إلى عدم جامعية هذا التعريف، لبعض العلوم التي لا تحد بصورة.

قال صدر المتألهين في هذا الصدد « قالت الفلاسفة: العلم هو انطباع مثل الأشياء في النفس المجردة عن المادة وغواشيها..فلهذا حدوا العلم بأنه الصورة الحاصلة من الشيء في النفس وهذا الحد غير منتهٍ إلى حد الصحة لعدم اطراده في كل علم كعلم النفس بذاتها وعلمها بنفس تلك الصورة الحاصلة عندها، ولاستلامه كون علم الباري بالأشياء بحصول أمثالها، لا بحضور أعيانها ».

وقد جمع السبحاني، هذه الاعتراضات على التعريف في كتابه نظرية المعرفة، ونشير إلى هذه الاعتراضات بشكل مختصر:

١ ـ **عدم شمول التعريف للعلم الحضوري:** كون هذا التعريف، لا يشمل إلا نوعاً واحداً من العلم، هو العلم الحصولي، الذي يحصل عند الإنسان من خلال تلك الصورة التي تنطبع من الشيء في الذهن، وهي تدور في ثلاثة محاور: الإنسان، الموجود الخارجي، الصورة الحاصلة في الذهن؛ في حين أن هناك قسماً آخر للعلم، هو الحضوري، الذي لا يحتاج إلى توسط شيء لإدراكه، وإنما هو حاضر بنفسه لدى النفس، كعلم النفس بذاتها، وهو خارج عن التعريف؛ هذا بالإضافة إلى أن العلم بنفس هذه الصورة، ليس موقوفاً على توسط شيء آخر، باعتبار أنها معلومة للنفس بدون توسط واسطة، وهذا أيضا خارج عن حد التعريف.

٢ ـ **عدم شمول التعريف للمعقولات الثانوية المنطقية:** إن أول مرحلة من

مراحل العلم الحصولي، هي انطباع صور الخارج في الذهن عبر أدوات الحس، فتسمى معقولات أولية، ثم تبدأ مرحلة أخرى وهي معالجة هذه الصور وانتزاع مفاهيم كلية منها، كمفهوم الجنس، والنوع، فهذه معقولات ثانوية خارجة عن التعريف.

٣ ـ **عدم شمول التعريف للمعقولات الثانوية الفلسفية:** إن عروض شيء على شيء، إما أن يكون العارض، والمعروض، ونفس العرض، أمراً خارجياً، كعروض السواد على الفحم؛ وإما أن يكون أمراً عقلياً، كالكلية العارضة على مفهوم الإنسان؛ وإما أن يكون عروضه في العقل دون الخارج، كعروض الأبوة في الذهن دون الخارج، فلا يمكن الإشارة إلى الأبوة في الخارج، ويمكن الإشارة فقط في الخارج إلى الأب والابن، وهذا هو المعقول الثانوي الفلسفي، فهو كما هو واضح خارج عن حد التعريف.

٤ ـ **عدم شمول التعريف للممتنعات:** لا يشمل هذا التعريف كثيراً من المفاهيم التي يدركها الذهن، وهي مستحيلة التحقق في الخارج، كالدور، والتسلسل، واجتماع المتناقضين وارتفاعهم، وعدم اجتماع الضدين.

٥ ـ **عدم شمول التعريف الأرقام الحسابية:** ومن الواضح أن الأرقام الحسابية، لا وجود لها في الخارج، وإنما هي منتزعة من الوجود الذي هو الواحد المنطبق على الموجود الواحد، والاثنان هي ضم موجود واحد إلى موجود واحد آخر، فعلم الإنسان بالأرقام ليس متعلقاً بالصور الحاصلة من انعكاس الشيء في الذهن.

٦ ـ **لزوم الوحدة بين الصورة ومدركها:** إن مجرد انعكاس الصورة في الذهن لا يكون علماً؛ ولا يتحقق العلم بتلك الصورة الحاصلة إلا إذا اتحدت مع النفس المدركة، وهذا ما غفل عنه التعريف حيث لم يشر إلى حالة الوحدة بين الصورة والنفس المدركة لتلك الصورة.

٧ ـ **إن هذا التعريف غير مانع:** مجرد تعريف العلم بالصورة الحاصلة في الذهن، يشمل أيضا مجموعة من الصور التي تحدث في ذهن الإنسان، وهي خارجة عن كونها علماً بالاتفاق، كالوهم، والخيال والشك، والظن، والجهل المركب، وإن كان في مرحلة العلم التصوري.

هذه جملة من الإشكاليات، التي أوردوها على التعريف، والملاحظ لهذه الإيرادات يجدها لا تنقض التعريف من باب كون العلم صوراً ذهنية، وإنما ناظرة إلى توسيع دائرة التعريف من جانب، وتضييقه من جانب آخر، حتى يكون جامعاً مانعاً، مع الاعتراف الضمني، أن العلم صور ومفاهيم ذهنية، فالعلم الحضوري، لا يخرج عن كونه صورة ولكن بدون توسط شيء آخر، وإنما هو تصور النفس للنفس؛ وكذلك المعقولات الثانوية المنطقية، والفلسفية، والمستحيلات، والأرقام الحسابية، كلها لا تخرج عن كونها صوراً ذهنية، وإن لم تتوقف على انعكاسها من الخارج.

وقد قسم العلم الحصولي، إلى تصور، وهو الخالي من الحكم، وتصديق، وهو الذي يلازمه الحكم أو هو نفس الحكم.

يقول السبحاني في تقسيم العلم الحصولي « وتقسيم العلم إلى تصور وتصديق من

الواضحات، فإنهما قسمان متمايزان بالذات، فإنك إذا تصورت نسبة أمر إلى أمر آخر، فقد علمت ذينك الأمرين والنسبة بينهما قطعاً، فلك في هذه الحالة نوع من العلم، ولو حكمت بأحد طرفي النسبة حصل هناك نوع آخر من العلم ممتاز عن الأول بحقيقته ـ وجداناً ـ وبحسب آثاره ولوازمه، فالأول لا يقبل الصدق والثاني يقبله ».

ويقول محمد تقي المصباح « إن تقسيم العلم إلى هذين القسمين هو لون من ألوان التقسيم العقلي الدائر بين السلب و الإيجاب، ولهذا لا يمكن أن يفرض قسم ثالث للعلم في عرض هذين القسمين ».

وهذا التقسيم الحصري للعلم الحصولي، بني على أساس كون العلم صوراً ذهنية، تحدث من المعلوم في الذهن.

ومن هنا بدأنا نتعرف على ملامح التفكير البشري، الذي حصر معارفه الحصولية في مرحلتي التصور، والتصديق، وهذا يمثل أول خيط يمكن الوصول عن طريقه، إلى حقيقة العلم والعقل في التنظير الفلسفي، ومن ثم معرفة مدى اتفاقه، أو افتراقه مع معارف القرآن، ولكن الأمر المسلم به هنا أنه على ضوء تعريف العلم بتلك الصور الذهنية التي تمثل أساس العلم النظري، تم بناء البشر معارفهم، وقامت على أساس التصور أهرامات من الفكر.

إشكالات منهجية على صورية المعرفة

وقبل التعرف على العلم الحقيقي وفق معارف الأنبياء لكي نتمكن من إجراء المقارنة، نورد بعض الإشكالات، التي يمكن توجيهها على تحديد العلم بالصور الذهنية، ولتبيانها نحتاج إلى مقدمة مختصرة نوضح فيها مورد الخلاف، فنقول:

هناك محوران أساسيان هما:

أ- الإنسان. ب- الموجود الخارجي.

ونحن هنا نبحث عن محور ثالث، وهو معرفة الإنسان بهذا الموجود، وقد اتفق الجميع على تسمية هذا المحور بالعلم، ولكن اختلفوا في كيفية تحقق هذا العلم.

فأمامنا هنا احتمالان:

الأول: أن يكون ذات الإنسان هو العلم، فبذاته يعلم الموجود الخارجي، وبالتالي لا يكون جاهلاً أبداً، ولا يكون مسبوقاً بجهل، بل لا ينسى ولا يغفل، كما قال بعض علماء الفلسفة إن حقيقة الإنسان هي الروح والروح ذاتية العلم « هذا العلم والوعي خاصة ذاتية لذلك الروح، وقد تبين في محله أن الروح مجرد وليس مادياً وكل جوهر مجرد فهو عالم بذاته »[٢].

وهذا الكلام لا يمكن قبولـه، ففاقد الشيء لا يعطيه « ويستحيل أن تكون النفس الإنسانية علة لحدوث العلم لأنها كانت فاقدة لـه والفاقد لا يعطي، وكانت جاهلة به وكيف يصير الجهل علة للعلم ».

بل إن ذاتية الإنسان هي الجهل، وحقيقته ظلمانية، وليست نورانية، فيكون العلم بذلك مبايناً للإنسان بينونة حقيقية، فلا يمكن قبول هذا الفرض حتى في إطار العلم الحضوري، فهو لا يتعدى كونه ادعاء قائماً على عدم التفريق بين الخاصية الموجودة بالطبع وبالذات وبين القابلية المجعولة، فإن كانت روح الإنسان عالمة بذاتها، فَلِمَ تجهل الروح نفسها، في حال الغفلة، والسكر، والإغماء، والنوم، والطفولة، والشيخوخة الفاقدة للوعي، فالذاتي لا ينفصل أبداً، كما لا يحد، فكيف يحدث كل ذلك مع خاصية العلم الذاتية لروح الإنسان، وكيف يجتمع العلم والجهل في شيء واحد؟.

هذا بالإضافة إلى أن منشأ هذا الادعاء، قائم على كون الصور المادية، التي هي حقائق الأشياء الخارجية، لا يمكن التعرف عليها إلا بتجريدها من رواسب المادة، وبعد تجريدها تكون عقلاً و علماً بنفسها بعد اتحادها مع النفس، وهو القول بوحدة العقل والمعقول، فإذا تحقق هذا التجرد، للذي كان مسبوقاً بمادة، وهي صور الأشياء الخارجية، حتى صارت علماً بذاتها، فالذي كان مجرداً بالأصل وقبل التعقل، هو النفس، أحرى أن يكون علماً وعقلاً.

ولا يصلح ذلك أن يكون دليلاً، لأنه قائم على ثبوت الفرض، وهو تجرد النفس، والقول بالتجرد قائم بالأساس على كون العلم صوراً ومفاهيم ذهنية، ونحن لا نسلم بضرورة حصول العلم على تجرد صور المواد الخارجية، ليسهل اتحادها مع النفس المجردة، وإنما يكفي لتحقق العلم الكشف التام للواقع بما هو في صورته المادية من غير تصور أو تجريد، ولا محظور في ذلك وسوف نثبت عما قريب بعد التصور عن حقيقة العلم والوجدان.

الثاني: أن تكون الموجودات الخارجية علماً بنفسها، وهذا أيضاً خلاف الواقع، فإن ثبت ذلك فلا يكون هناك شيء خافياً عنا، لأنه هو الذي يعرف نفسه لنا، فتبين أن حقيقة الموجود ظلمانية أيضاً.

فكيف نخرج إذاً من هذه الظلمة الحالكة إلى رحاب العلم والنور؟!.

من هنا بدأ التنظير البشري لوضع حل لهذه المعضلة، فاتفقت كلمة فلاسفة المسلمين في الأغلب على أن الارتباط بالخارج وتحقق إدراكنا له، لا يتم إلا عن طريق صور تنعكس من الموجود الخارجي على الذهن، واعتبر هذا الأمر من المسلمات التي بنوا عليها بقية فلسفتهم؛ و لنا الحق في إثارة بعض الأسئلة على هذا المفهوم.

١ - كيف تحصل هذه الصورة من الأساس، في مرحلة العلم التصوري، قبل مرحلة التصديق والحكم؟

لا أرى أمام الفلاسفة إلا افتراض هذه الصور، لأن كل ما يمكن أن يكون تأسيساً علمياً لإثباتها، يكون متأخراً على فرض وجود الصورة، فإن لم تكن الصورة مفترضة لا يمكن إقامة دليل على إثبات تحققها، إما أن تكون، قد انفصلت من الواقع، ثم انطبعت على أذهاننا؛ أو أننا التقطنا صور ومفاهيم أشياء أخرى، وكلا الاحتمالين مرفوض، لأن الإنسان والواقع ظلماني الذات، فلم يبق لنا سوى القول، إن الواقع الخارجي كان معلوماً قبل تحقق هذه الصورة، وهو كذلك فلا تبقى

حاجة لتلك الصورة، التي يقف إدراك الخارج على تصورها، لأنه تحصيل للحاصل.

والأكثر بعداً في هذا الإطار، هو افتراض أن علمنا بالخارج متحقق بالعلم الحضوري أولاً قبل الحصولي، فبعد الحضور وانتزاع الصورة ينقلب العلم إلى حصولي، ومن ثم يتحول الحصولي إلى حضوري مرة أخرى.

ولم يبق أمامهم إلا أن يشط بهم الخيال بعيداً، فيفرضوا أن هنالك عقلاً وراء العقل البشري، مكلفاً بإفاضة هذه الصور عليه و« أن مفيض الصور العلمية الجزئية جوهر مفارق مثالي فيه جميع الصور الجزئية على نحو العلم الإجمالي، تتحد به النفس على قدر ما لها من الاستعداد، فيفيض عليها الصور المناسبة ».

٢ - إذا سلمنا بحصول هذه الصورة، وتحقق العلم التصوري، كيف تحدث المطابقة بينها وبين الواقع الخارجي لنحكم بصحتها، فيتحقق بذلك العلم التصديقي؟ فإن كان الواقع الخارجي مجهولاً قبل مرحلة التصديق أدى ذلك إلى الدور، فحتى أعلم الواقع الخارجي، لا بد أن يتم التصديق، وحتى يتم التصديق، لابد أن يكون الواقع معلوماً لتتم المطابقة

ألا يشترط في تطابق الأمرين أن يكونا معلومين؟فإن كانا معلومين فهو تحصيل للحاصل، وإن لم يكونا معلومين فهو دور، وإن كانت الصورة معلومة والواقع غير معلوم فلا تتم المطابقة والحكم أبداً، بل حتى الصورة لا نحكم بكونها متحققة العلم، إلا إذا تم الحكم والتصديق بها والتصديق ممتنع فخرجت عن كونها معلومة.

٣ - إذا تجاوزنا وسلمنا بحصول تلك الصورة الذهنية، فهل هذه الصورة علم أم معلومة؟

لا يمكن أن تكون علماً لأنها مدركة بشيء آخر، فتحقق كونها معلومة « وعنوان المعلومية والمعقولية عنوان إضافي ولا يمكن فرضه من دون فرض موجود يتمتع بعنوان العالمية والعاقلية ».

والقول إن لهذه الصورة حيثية واحدة وهي حيثية تعقلها، وفعلية النفس في هذه الصورة هو عين العاقلية للنفس، لأن النفس كالهيولي الفاقد للصورة، فتكون المعقولية صفة ذاتية للصورة، فلا يجوز التفريق بين العلم والمعلومة وإنما هي حيثية واحدة.

إن هذا القول هو نفي لحقيقة العلم القائم بذاته، سواء تعلقت به الصور أم لا، ونسبة الصورة إلى العلم نسبة المعلوم بذات المحتاج إلى العلم، فتحتم كونها معلومة، ونحن بحثنا معهم عن العلم الذي به نعلم تلك الصورة، فهذا خلط واضح بين العلم والمعلومة، فكل هذه التصورات، والتصديقات، والمفاهيم الكلية، و البديهيات، معلومات تفتقر إلى شيء آخر لإدراكها، وهو شيء مباين لها وللنفس.

٤ - هل هذه الصورة علة للعلم أم معلولة لـه؟.

نحن لا نشك في وجود صور في أذهاننا، فللذهن مقدرة على التصور، ولكننا نشك في كون الصورة هي السبب المحدث للعلم، لأن الصورة هي أولاً: معلومة، وثانياً: متأخرة رتبة عن العلم الذي هو كشف تام عن الواقع، فبعد أن أصبح الواقع مكشوفاً ومعلوماً للنفس، جاز للنفس

انتزاع صورته والاحتفاظ بها و« ذلك لأن المفهوم يأتي بعد العلم وليس المفهوم هو الذي يعطينا العلم، لأن المفهوم منتزع عن صنع النفس البشرية والعلم يكشف الحقائق الخارجية »، فبعد أن يكشف الإنسان الواقع الخارجي ويعلمه يستطيع أن يتصوره، فتكون الصورة منتزعة من الواقع بعد علمنا به، وليست مدركة للواقع، فيستحيل بذلك حدوث الصورة قبل العلم، إلا إذا كان في إطار الخيال، فتلك صور لا تعبر عن حقيقة خارجية، وهو خارج عن بحث العلم.

ويمكن أن يجد الإنسان في نفسه هذه الحقيقة، وهي أنه ليس قادراً على تصور أي شيء، إلا بعد علمه به، بأي شكل كان، ولذا لم يتصور الإنسان عالم الآخرة، والجنة، والنار، وعالم البرزخ، وغيرها، قبل علمنا بها عن طريق الأنبياء، فبعد العلم يمكننا تصور ذلك أما قبله فمحال، فحتى تلك الصورة التي ننتزعها من علمنا لا يمكن أن تكون معبرة عن الخارج بتمامه، فتحقق بذلك أن الصور الذهنية متأخرة عن العلم ولا يمكن أن يكون المتأخر علة للمتقدم عليه رتبة.

العلم الحضوري والكيفية النفسانية

أما في إطار العلم الحضوري فقد افترضوا فيه أن النفس هي التي تعلم نفسها فهي حاضرة لدى نفسها، وهنا يكون المُدرَك والمُدرِك شيئاً واحداً، أو حضور الشيء إلى النفس، من دون توسط شيء، كإدراك النفس للصور الثانوية.

« أما العلم الحضوري فهو عبارة عن كون المعلوم حاضرًا لدى النفس من دون توسط شيء، وهو على هذا يعتمد على ركنين فقط ـ الإنسان المدرِك (بالكسر) ـ المدرَك للنفس بلا واسطة، والعلم الحضوري على قسمين: أولهما ما يكون المدرِك فيه مغايراً للمدرَك، كما في العلم بالصور الذهنية الحاصلة في النفس من اتصالها بالخارج عن طريق الحواس الظاهرية.. والقسم الآخر للعلم الحضوري أعلى وأنبل من الأول، وهو ما يكون فيه المدرِك والمدَرك متحدين خارجاً، ومختلفين اعتباراً ولحاظاً، وهذا كعلم الإنسان بذاته ».

وقد بدأت تتكشف لنا ملامح نظرية العلم عندهم، فهي ترتكز على أن النفس علم بذاتها، مما يجعلها تعلم نفسها، فهي بالتالي علم ومعلومة في نفس الوقت، ولا فرق إلا بالاعتبار، فبلحاظ أنها هي العالمة تكون علماً، وبلحاظ أنها مدركة فتكون معلومة، وهكذا يبدأ علماء البشر تعريفهم للعلم والإدراك، بأن النفس عالمة بذاتها، وأن العلم هو كيفٌ نفسانيٌّ، متعلق بالنفس، فتعلم نفسها وما هو في حدودها، بمعنى ما يتحد معها، ولذلك فرضوا ضرورة اتحاد الصورة بالنفس المدركة.

يقول السبحاني « وإنما يتحقق العلم باتحاد الصورة الحاصلة في النفس مع مدركها - بالكسر- ... ولولا تلك الوحدة، للزم أن لا يتحقق هنالك علم، ولا يتصف الإنسان بالعالمية والخارج بالمعلومية... ولا بد في تحقق العلم من اتحاد بين المدرِك ـ بالكسر ـ والمعلوم بالذات، ويُعد وجود الصورة العقلية عند ذاك من مراتب وجود النفس المدركة.فمآل اتحاد العاقل والمعقول إلى اتحاد وجود الصورة الذهنية مع النفس في مرتبة من مراتب وجودها »[٢].

وأمام هذه النظرية يمكننا القول إذا كانت النفس عالمة بذاتها، وهي تكشف نفسها بنفسها، فبالتالي تكون كاشفة لغيرها من غير شرط في الوحدة، فالذاتي لا يُقيد كما هو واضح، فإذا كانت ذاتيتها الكشف فَلِمَ هذا القيد؟!، أما إذا كانت لا تعلم بالأصالة إلا نفسها، فباتحاد الصورة معها تصبح الصورة جزءاً منها فتكون بالتالي معلومة، فلا يكون هناك علمٌ بالحقيقة إلا النفس المدرِكة، ولا معلوم بالحقيقة إلا النفس المدرَكة، وما دونها فهو معلوم بالإضافة والحيلولة.

ومن هنا نتعرف على دواعي البشر لافتراضهم التصور في العلم، لأن الصورة هي التي يمكنها اكتساب حالة الوحدة مع الكيفية النفسانية.

ولكي يتضح ذلك بشكل أفضل، ينبغي علينا تتبع سير النظرية حيث بدأ الفلاسفة بتأصيل العلم من معرفة النفس لنفسها، وبما أن النفس معلومة بالوجدان، افترضوا كونها علماً بنفسها، ولكي يدللوا على هذا الفرض آمنوا بتجرد الروح، واعتبروا أن كل ما هو مجرد فهو علم بذاته وأن « هذا العلم والوعي خاصة ذاتية لذلك الروح، وقد ثبت في محله أن الروح مجرد وليس مادياً وكل جوهر مجرد فهو عالم بذاته » ثم وقعوا في إشكال، وهو كيف يتحقق العلم بالموجود الخارجي؟ فافترضوا لتحقيق ذلك إحضار الموجود الخارجي لدى النفس واتحاده معها، فوقعوا في إشكال آخر وهو كيفية إحضار الموجود المادي لدى النفس المجردة، وكيفية تحقق الوحدة بينهما، ولتجاوز هذا الإشكال قالوا بضرورة اتحاد صور الأشياء لا ذواتها العينية، ومن هنا قالوا أن « المؤمن بالحقائق لا يدعي أن الإنسان يصل إلى الخارج الموضوعي بوصف كونه موجوداً خارجياً حاضراً بنفسه عند المدرِك بلا واسطة الصورة الذهنية، بل كل من سلك منهج اليقين لا يريد إلا الوصول إلى الواقع عن طريق صوره الحاضرة لدى مداركنا، الكاشفة عن الأعيان الخارجية ».

فالعلم عند الفلاسفة محصور بالصور الذهنية، لا الأعيان الخارجية التي نسعى لكشفها بما هي في عين واقعها الخارجي، وأعلن علماء البشر عن إفلاسهم بتقديم فلسفة تبرهن على إمكانية إدراك الواقع الخارجي بما هو واقع عيني مادي.

يقول ابن سينا: « وأما القوة النظرية، فهي قوة من شأنها أن تنطبع بالصور الكلية المجردة عن المادة، فإن كانت مجردة بذاتها، فذلك، وإن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء » ، وهذا خلاف ما نعلمه بالضرورة، بأن الواقع الخارجي معلوم مكشوف لنا في حدوده العينية، فعلمي بالكتاب والقلم مثلاً ليس علماً بصورة الكتاب والقلم، وإنما علم بنفس الكتاب والقلم، في الواقع العيني، ومن هنا يقول سيد العرفاء الإمام الصادق عليه السلام: « يا هشام، الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب أسم للملبوس، والنار اسم للمحروق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله عز وجل غيره ».

فالخبز الذي نعلمه ليس صورته الذهنية، وإنما نفس الخبز الذي نأكله، وكذلك اللبس والماء، نعم يمكننا تصور كل ذلك، ولكن هذه الصورة منتزعة من واقع علمنا بعين الخارج، فعندما نتحدث عن كتاب فإنما نقصد نفس الكتاب في تحققه الخارجي لا صورته الذهنية، ومن هنا كانت الأسماء

موضوعة للإشارة إلى الحقائق الخارجية لا صورها الذهنية، فإن « المتكلم حال الإخبار عن الأشياء يشير إليها بلفظها الذي وضع لها من غير نظر منه إلى صورتها الذهنية، فيكون المعنى والمراد نفس الحقيقة الخارجية عن الذهن، كلفظ الشمس مثلاً يُراد بلفظها نفس ذلك الجرم النوري، ولا يكون المعنى بالفطرة عند الناس أولاً هو الصورة الذهنية ثم بتوسطها إلى الموجود الخارجي ».

دوران العلم من الصورة إلى الصورة

أما القول: إن الصور كاشفة عن الواقع، بحيث لا يمكن التفريق بينها وبين الخارج، حتى يتوجه ذلك الاعتراض، فهو قول مردود لأن الصورة هي معلومة بالنفس المدركة، فكيف تكون المعلومة كاشفة لغيرها؟ فإما أن تكون الأعيان الخارجية معلومة، فلا حاجة إلى هذه الصورة الكاشفة عنها، وإما أن لا تكون معلومة فليس لنا إلا طريق واحد لمعرفتها، وهو الاتحاد مع النفس المدركة كما فرضوا، وهذا ما لا يتحقق، وإن أي فرض آخر لمعرفة الواقع الخارجي من غير الاتحاد، هو خروج عن فرض كون النفس المجردة هي الكيفية الواحدة للإدراك فيكون الواقع العيني بعيداً عن إدراكنا.

والإجابة على ما ذكرنا بالقول « ...إن المستدل نظر إلى العلم بما هو هو، بالنظر الموضوعي والاستقلالي لا بالنظر الآلي والطريقي، فألغى جهة كشفه وطريقيته، فرتب عليه ما رتب، ولكنه غفل عن أن العلم والكشف عن معلوم سواه، متلازمان لا يفترقان، وأن العلم بالشيء عين الكشف عنه، فلا يصح لنا الاعتراف بالعلم من دون المعلوم، ولا بالصورة الإدراكية من دون مكشوفها » هذا الجواب غير مقبول، لأنه مبني على افتراض أن الصورة المدرَكة للنفس كاشفة عن الواقع، فهي من جهة معلومة، ومن جهة كاشفة عن الواقع، وهذا نفس ما أشكلنا عليه فكيف يستدل بموضع الإشكال؟ فمن أي باب يتم إعطاء هذه الصورة حالة الكاشفية عن الواقع؟! وهذه الصورة نفسها لم يتحقق العلم بها إلا في إطار اتحادها مع النفس، وهي الطريقة الوحيدة ليصبح الشيء معلوماً، و« إذا كانت حقيقة العلم هي حضور المعلوم لدى العالم، فهو ينقسم إلى قسمين، قسمة حاصرة، لأن حضور المعلوم للعالم إما بماهيته، وإما بنفس وجوده، فالأول هو العلم الحصولي والثاني هو العلم الحضوري » كما يقول الفلاسفة.

فهذه القسمة الحاصرة حكمت على قائلها أن لا يفترض كيفية أخرى للعلم خارجة عن حدود اتحاد الماهية بالنفس المدركة، فكيف تكون إذاً الصورة علماً كاشفاً للواقع، وأما القول: إن العلم بالشيء عين الكشف عنه فهو قول صحيح، ولكن لا ينطبق على ما ذكر، لأن العلم هنا هو النفس المدركة، والمعلومة هي الصورة المتحدة مع النفس، فالعلم بالصورة، هو عين الكشف عن الصورة، لا الواقع الخارجي، ومحاولة إقناعنا بأن الصورة كاشفة عن الواقع، محاولة أقل ما يقال عنها أنها فرضية ارتجالية، لا تعبر إلا عن حقيقة العجز البشري في فلسفة حقيقة العلم، أما القول: إن الصور معلومة بالذات وأن الخارج معلوم بالعرض فهو

عجز واضح بعدم إثبات إدراك الخارج بما هو في حقيقته الخارجية.

وأما القول بأن « حظ الإنسان عندئذٍ من إدراك الواقع، هو إدراك صورة علمية منه، لا الواقع نفسه، إذ من الضروري أن الواقع لـه آثار حقيقية كالحرارة والبرودة، والإنسان عندما يشاهد النار والثلج، لا ينال منها إلا الصورة العلمية لا الآثار الواقعية الموجودة فيها » ، فهذا خروج عن الموضوع القائم عليه الاستدلال والبرهنة، وهو؛ هل يمكن للإنسان أن يدرك الخارج بما هو في حقيقته العينية؟ والتعليل بعدم تحقق ذلك بسبب الآثار الواقعية للخارج، فلا يدرك من ذلك إلا الصور العلمية، تعليل غير مقبول.

أما القول: « إنما ذلك لأجل أن ما يناله الإنسان في حقل ذهنه ومدارك معرفته هو الصورة العلمية لا غير. وأما الخارج، فإنه إنما يناله عن طريق هذه الصورة بما لها من الطريقية والكاشفية عن الخارج » .

فإن هذه الطريقية والكاشفية للصورة، إنما هي مجرد ادعاء محض لم يبرهن عليها قائلها، وإنما أرسلها إرسال المسلمات، فالذي يمكن قبوله من الفلاسفة جدلاً هو كون معارف الإنسان هي الصور العلمية لا غير، لأنه ليس للإنسان مدرك معرفي سوى النفس التي أدركت الصورة المتحدة معها، وهذه الصورة لا تعبر إلا عن ماهية الأشياء، لا خصائصها الواقعية العينية، فكيف تكون كاشفة عن شيء غير متعلق بها، فلو سلمنا معهم على كاشفية الصورة، فهي لا تتعدى كونها كاشفة فقط لحدود نفس الماهية، فهي بالتالي كاشفة لنفس الصورة العلمية للأشياء أي بمعنى أنها كاشفة عن نفسها، لا نفس الحقيقة الخارجية العينية، يقول السبحاني « فالصور الذهنية عين الحقيقة الخارجية، في الماهيات والأشكال والحدود، وغيرها في سنخ الوجود » ، وهو اعتراف موافق لما أوردنا، بأن المدرَك من الخارج مجرد ماهيته وشكله وحدوده، لا عين الواقع، فهناك اتحاد بين الصورة والواقع اتحاداً ماهوياً لا وجودياً وإن « تلبس بالوجود في النشأتين (الذهن والخارج) أمر واحد من حيث الماهية، غير أنه تحقق في النشأة الخارجية بوجود عيني، وفي النشأة العقلية بوجود ذهني، ولأجل ذلك لا يترتب على كل من الوجودين ما يترتب على نظيره وعديله »[٤].

فالصورة لا تكشف إلا عن ماهية الواقع، لا الواقع الخارجي نفسه، لأن ما تلبث في الذهن والخارج هو أمر واحد من جهة الماهية فقط، فاتضح أن مقصودهم من كاشفية الصورة، هي كشف لماهية الواقع، ولكن غاب عنهم أن تلك الماهية هي نفسها الصورة المفترضة، فتكون الصورة معبرة وكاشفة فقط عن نفسها، و إلا لزم عليهم افتراض ماهيتين للواقع الواحد، وهذا محال، وبهذا ندرك أننا لم نخرج عن إطار العلم التصوري من الصورة والماهية إلى نفس الصورة والماهية، ولا يوجد إثبات شيء آخر بينهما، ولم يبق أمامهم إلا الإيمان بعدم وجود حقيقة خارج هذه الصورة الذهنية.

و« أما اتحاد ماهيتين تامتين فهو يستلزم انقلاب الماهية وذلك تناقض، لأن فرض

الماهية التامة يعني فرض قالب مفهومي معين لا ينطبق على أي قالب مفهومي آخر، واتحاد ماهيتين تامتين يستلزم انطباق قالبين متباينين على بعضهما البعض.وبعنوان تشبيه المعقول بالمحسوس » النتيجة إن الماهية هي ذاتها الصورة التي انعكست من الشيء على الذهن سلفاً، فعلى أي شي تكون كاشفة؟ على ماهية أخرى، مباينة، أم على ذاتها؟ فالأولى محال، كما حكموا هم بذلك فيما تقدم، والثانية تحصيل للحاصل.

وبذلك تحقق أن الصورة التي انعكست من الخارج على الذهن لا تنطبق إلا مع نفسها لا الواقع العيني، فلا تعبر الصورة إلا عن الصورة، ومن هنا لا يصح لهم استخدام تعبير كاشفية الصورة عن الواقع، لأنها قفزة على العقل، ومحاولة غير مؤسسة.

والدليل على البينونة بين الوجودين الذهني والخارجي يمكن أخذه من نفس كلامه السابق « لأجل ذلك لا يترتب على كل من الوجودين ما يترتب على نظيره وعديله » فإن عدم الاطراد بين الوجودين دليل على المفارقة بينهما، ووجه المفارقة هو الموجود بتحققه العيني، ونحن لا نسعى إلا لإدراك هذا الموجود المتحقق في الخارج، أما ماهيته فإن كانت هي تلك الصورة، فإننا ننتزعها من واقع علمنا بالموجود، إذ العلم عندنا متعلق بنفس الموجود لا ماهيته وصورته، وهو ما ندركه بالضرورة الفطرية والوجدان، على عكس الفلاسفة الذين يرون أن العلم، هو مجرد العلم بماهياتها، أما إدراك وجودها العيني فضرب من المحال وبعيد عن الموضوعية العلمية.

كما يقول السبحاني « والموضوعية في المعرفة قائمة على أساس أن الصور الذهنية لا تختلف عن الموجودات الخارجية في الماهية، وإنما تختلف في الوجود فحسب » وما أعظمها من مفارقة إثبات للشيء ونفيه، فمن نفس الباب الذي يستشهد به على علمه بالموجود الخارجي، ينفي العلم بالموجود الخارجي، بل يحكم باستحالته، فالصورة التي هي تعبير عن الموجود، لا تعبر عنه في جميع مراتبه وإنما فقط في الماهية والصورة، أي أن الصورة تعبر عن نفسها، أما مرتبة التحقق والتعين، فهي خارجة عن إطار العلم، فهل يمكن أن نسمي ذلك موضوعية علمية؟ أم هو إعلان للعجز عن إدراك الخارج، الذي نسعى لكشفه ومعرفته؟.

ولتوضيح ذلك إليك هذا المثال الذي يضربونه مثلا: النار الخارجية تتصور معرفتها بنحوين:

أ - التعرف عليها بالمفهوم والصورة، فنتصور مفهوم النار أو صورتها في الذهن، وهذا ما يقدر عليه الذهن، لأن المعلوم أعني المفهوم والصورة، لا يترتب عليه شيء.

ب- التعرف عليها بحقيقتها العينية وحيثياتها الخارجية، التي لا تنفك عن الأثر وهو الإحراق - وهذا ما لا يقدر عليه الذهن، و إلا لزم أن يحترق الذهن في ظرف ذلك الإدراك، وليس كذلك، فالذهن في درجة والمعلوم في درجة أخرى، لا يجتمعان » .

فهذه نتيجة طبيعية لمن يفسر العلم بالصور الذهنية، التي تتحد مع النفس المدركة، فالنار بحيثيتها الإحراقية لا يمكن اتحادها مع الكيفية النفسانية، فالشيء لا يكون معلوماً إلا

إذا انتقل بنفسه أو صورته إلى الذهن ومن هنا كان التحرز من احتراق الذهن، فبالتالي الذي نعلمه هو صورة النار، وهي نار من غير إحراق، ولا وجود لمثل هذه النار في الخارج.

ولكن هذا خلاف الواقع الذي نعلمه وندركه، فالعلم ليس كيفية نفسانية وإنما هو أمر خارج عن مراتب النفس، وهو عطاء إلهي، ونور يقذفه الله في قلب من يشاء، وبه نكشف الواقع بما هو واقع، فيكون ظاهراً لنا بما هو هو، وهذا ما يجده كل إنسان في نفسه، وسوف نستعرض هذا الأمر بشيء من التفصيل تحت عنوان العلم في بصائر الوحي.

الفلسفة الإسلامية من الواقعية إلى المثالية

ويمكننا أيضاً فهم دواعي قولهم إن العلم مجرد عن المادة « بدراسة أقسام العلم والالتفات إلى اتحاد العلم الحضوري بذات العالم المجردة، وكون العلم ـ بمعنى الاعتقاد وبمعنى الصور والمفاهيم الذهنية ـ كيفاً نفسانياً، وأن للنسبة والحكم دور الرابط بينهما، فإن تجرد جميع أقسام العلم يغدو واضحاً ».

وهذا الادعاء قائم على كون العلم كيفية نفسانية، وهو مما لا نقبل به، وإن ما يذكر من دليل، متأخر رتبة عن إثبات الكيفية النفسانية.

والملتفت إلى الأمر يجد أن سعي فلاسفة البشر إلى البرهنة على كيفية إدراك الواقع الخارجي، كان متأخراً عن معرفتهم بعين الواقع الخارجي، فالحقيقة المسلم بها فطرياً ووجدانياً أن الواقع الخارجي بكل حيثياته معلوم بالضرورة بما هو واقع، ثم بدأ سعي الفلاسفة بعد ذلك في تبيين كيفية تحقق هذا العلم، والعجيب في الأمر أنهم خرجوا بعد طول بحث وعناء بقولهم: إن الواقع المادي الخارجي لا يعلم، لأن العلم مجرد، ولا يمكن اتحاد المادة مع المجرد، وبالتالي لا يتم إدراكها بما هي متحققة في الخارج « فالذي يقع في إطار الذهن، هو المفاهيم والصور، التي يعبّر عنها برسم الوجود وشرحه، وبيان مرتبته وحده، لا الشيء الذي يشكل دار الوجود والتحقق، أعني نفس العينية الخارجية، فإنه مستحيل أن يرد الذهن من غير طريق المفاهيم والصور والإشارات »[٥].

ألا يعتبر هذا نوعاً من الهذيان الفكري، فحكموا على أنفسهم بأنه لا حظ لهم في إدراك الخارج إلا من باب إدراك صوره وماهيته، أما الموجود العيني المتحقق في الخارج فمن المحالات البديهية إدراكه فهو في غاية الجهالة.

يقول السيد رضا الصدر « وقد يطلق الوجود، ويراد منه حقيقة الوجود، ذلك الأمر المتحقق في الخارج، وتلك حقيقة مجهولة الكنه غاية الجهالة، وغير واضحة ولا يمكن التعرف عليها، وإن أمكن الإشارة إليها بإشارة عقلية، وهي أن يعبر عنها بالمفهوم، وذلك معرفة تلك الحقيقة بوجه ».

ونقول: إن مقصوده من الوجود يحتمل وجهين بناءً على التفريق بين الوجود والموجود،

فإن كان مقصوده هو حقيقة الوجود، و بسيط الوجود، وواجب الوجود، فإن الوجود عنده بهذا المعنى هو حقيقة واحدة متعينة في كل مراتب الموجودات، لأنها حقيقة بسيطة واجبة الوجود وحينها لا يمكن إدراكها والإحاطة بها، ولذا كانت مجهولة في غاية الجهالة، وهذا هروب من المطر إلى الميزاب، لأن عدم القدرة على التعرف على الموجود المتعين في الخارج لا تعطي مستنداً في إثبات حقيقة خلف هذه الحقيقة العينية وهي الوجود الواجبي، لأنه تنكر واضح لحقيقة الموجودات المتعينة في الخارج، وتجاوز للثنائية بين الخالق والمخلوق، ولتفصيل هذا الأمر لنا معهم كلام آخر حول أصالة الوجود، والمفهوم المشترك، يأتي في محله.

وإن كان مقصوده الحقيقة المتحققة في الخارج من الموجودات المخلوقة، يكون هذا اعترافاً صريحاً بعجزهم عن فلسفة إدراك الواقع الخارجي العيني. فإذا كان هذا الواقع الخارجي، كحقيقة موجودة، مجهولة الكنه، غاية الجهالة، وغير واضحة، ولا يمكن التعرف عليها،أفلا يحق لنا اعتبار ذلك نوعاً من المثالية التي تشكك في تحقق الخارج،ومن هنا لا أرى فرقاً جوهرياً بين ما أنتجته الفلسفة السفسطائية، وما أنتجه فلاسفة العصر الإسلامي، ألا يقول السفسطائيون بأن العالم المادي خيال ذهني، ولا حقيقة غير العلم، وإنه « لا شيء موجود في ذاته ولذاته، وكل ما هو موجود فإنما وجوده بالنسبة إلى الإنسان، وهذا معنى قول بروثاغوراس:الإنسان مقياس كل شيء »[٦]، وبذلك أنكر السفسطائيون العالم، ولا وجود عندهم غير العلم؛ فما هو الفرق إذاً، بينهم وبين من يقول، إن الموجود صور ومفاهيم ذهنية، قائمة بالنفس المدركة، أما تحققها في الخارج ففي غاية الجهالة؟.

ومما يدلل على ميل هؤلاء الفلاسفة إلى النزعة المثالية، أن الرؤية البصرية التي لا يرتاب أحد في كونها كشفاً للمرئي، نجدهم يشككون فيها، إذ« إن أول دليل يقام على تجرد الإدراك هو المعروف بـ« دليل استحالة انطباع الكبير على الصغير » وملخصه:أن الرؤية الحسية هي أخفض أنواع الإدراك، حيث يتوهم البعض كونها مادية، ويفسرها الماديون بالفعل والانفعالات الفيزيائية الكيميائية والفسيولوجية، ولكنه بالتعمق في هذا اللون من الإدراك، يتضح أنه لا يمكن قبول الفعل والانفعالات المادية بعنوان كونها شروطاً معدة للإدراك فحسب، لأننا نرى صوراً كبيرة تساوي مساحتها عشرات الأمتار المربعة وهي أكبر من جميع جسمنا عدة مرات فضلاً عن جهاز البصر أو المخ! لو كانت هذه الصور الإدراكية مادية ومرتسمة في جهاز البصر أو أي عضو آخر من البدن لما كانت أكبر من محلها إطلاقاً، لأن الارتسام والانطباع المادي لا يمكن من دون انطباع على محل، وبما أننا نجد هذه الصورة الإدراكية في أنفسنا إذن لا بد أن نسلم بكونها متعلقة بمرتبة من النفس « هي المرتبة المثالية للنفس ».

وهذا تفسير عقيم للرؤية البصرية، فَلِمَ هذا الإصرار على الانطباع في الذهن، حتى تضطر إلى التهرب من تعليل رؤية المساحات الواسعة والأجسام الكبيرة بالقول بمرتبة النفس المثالية.

وما هي هذه المرتبة المثالية؟!. ومن أين حصلت هذه المعرفة؟. وبأي بينة تثبت هذه الدعوى؟.

وما هو قولهم في من يقول: إن البصر، ليس انطباع المرئي على الرائي، فلا نحتاج إلى هذه المقايسة بين الكبير والصغير، وإنما البصر هو كشف لنفس الواقع بما هو واقع، فقد أكرم الله الإنسان بنور العلم الذي يجعل الواقع مكشوفاً لنا، ولا داعي لفرض أن الإدراك كيفية نفسانية لا تتعلق إلا بمقولات الكيف؟.

ثم ألا يحق لنا أن نسألهم كيف جعلتم العلم كيفية نفسانية ومرتبة من مراتب النفس؟، إن حصول العلم للنفس بتجرد كيفي هو أول الكلام، فأين البرهان..ولا برهان، وغاية ما يمكن ادعاؤه، أن ذلك العلم من باب العلم الحضوري، لأن حضور النفس للنفس، يستدعي أن يكون للنفس حالة إدراكية.

ولذا فإننا نقول بشكل جازم، وعلى نحو اليقين الذي لا يرقى إليه ريب، أن تحقق إدراكنا لأنفسنا، هو بسبب ذلك العلم الذي يقذفه الله في قلوبنا، وهو خارج عن كونه مرتبة من مراتب النفس الجاهلة بالذات، فبه ندرك أنفسنا، وندرك غيرها، فيكون إدراك أنفسنا وإدراك غيرها من المدركات في عرض واحد، وليس تابعاً لإدراك النفس، وبالتالي لا نحتاج إلى كل هذه التبريرات التي بنيت على كون العلم كيفية نفسانية.

وَلِمَ هذا الإصرار على أن المعلوم من الخارج هو ماهية الأشياء، لا الموجود المتحقق في الخارج؟، وما هو المنشأ الداعي إلى ذلك، إنه ـ كما أرى ـ القول بأصالة الوجود، وأن مفهوم الوجود مفهوم بسيط وهو كل الأشياء، ولذا قال ملاّ صدرا « إن بسيط الحقيقة كل الأشياء الوجودية..والواجب تعالى بسيط الحقيقة، واحد من جميع الوجوه، فهو كل الوجود كما أن كله الوجود ».

ومن هنا كانت استحالة إدراك الموجود المجرد عن ماهيته، لأنه حينئذٍ يكون بسيط الحقيقة، فيتم التعرف عليه عن طريق الماهية التي يتعين ويتحدد بها الوجود، ولذا كان إصرار الفلاسفة على حصر العلم بماهيات الأشياء لا حقائقها العينية، « وأما الموضوع الذي لا يمكن الاكتناه به ومعرفته حقيقةً، فهو الوجود معتريا عن كل حد ولون، وذلك لأن الإنسان يتعرف على الأشياء بذهنه، وأداة الذهن أداة داخلية، لا يقع في إطارها إلا ما كان من سنخها وفي مرتبتها، وأما الوجود فهو نفس العينية الخارجية، وهو مباين لسنخ أداة إدراك الإنسان وخارج عن مرتبتها، فلا يقع في أفقها حتى تتعلق به المعرفة...ولأجل ذلك قالوا عن الوجود: « كنهه في غاية الخفاء ».

ونقول هنا إذا كان الموجود المجرد من الماهية لا يمكن إدراكه، فكيف أثبتم تحققه؟ ألم يكن بالبداهة؟ فنفس هذه البداهة حاكمة على تحقق حقيقة واحدة، هو الموجود المحدد في الخارج، فلا يمكن تجريده عن تلك الحدود، وإن كان العلم عندكم ثابتاً للماهية، دون العلم بالعينية الخارجية، لزم من ذلك أن يكون الوجود الذهني هو الوجود الحقيقي لا غير.

ثم لماذا الرجوع على ذي بدء، ونقضتم غزلكم، عندما اصطدمت وحدة الوجود بالكثرة

التي حققتها الماهيات المتباينة، فحينها حكمتم على الماهيات بأنها أمور عدمية اعتبارية لا تحقق لها، وإنما المتحقق هو حقيقة واحدة وهي الوجود، كما صرح بذلك رضا الصدر قائلاً « ولا نعني من التعبير بالكثرة التشكيكية الواقعة في الوجود إلا تلك الكثرة التي لا تنثلم بها وحدة الوجود الحقيقية، لأن جميع المراتب وجود ولا غير، وحقيقة واحدة دون سواها ».

فإن القول إن جميع المراتب وجود واحد يستدعي القول بعدمية الماهيات، ومن هنا يقول ملاّ صدرا « فانكشف حقيقة ما اتفق عليه أهل الكشف والشهود من أن الماهيات الإمكانية، أمور عدمية لا بمعنى أن مفهوم السلب المفاد من كلمة لا وأمثالها داخل فيها، ولا بمعنى أنها من الاعتبارات الذهنية والمعقولات الثانية، بل بمعنى أنها غير موجودة لا في حد أنفسها بحسب ذواتها، ولا بحسب الواقع، لأن ما لا يكون وجوداً ولا موجوداً في حد نفسه، لا يمكن أن يصير موجوداً بتأثير الغير وإفاضته، بل الموجود هو الوجود وأطواره وشؤونه وأنحاؤه » وهذا تصريح واضح بعدمية الماهيات ليس بتحققها الخارجي فحسب وإنما بالاعتبارات الذهنية والمعقولات الثانية، فأصبح بذلك لا حقيقة عندهم البتة، وذلك لأن:

١ - الوجود عندهم حقيقة مجهولة غاية الجهالة لا يمكن إدراكها.

٢ - كل ما يمكن معرفته وإدراكه هي الماهيات، فهي ثابتة ومتحققة في الوجود الذهني وهو النتاج المعرفي عند الإنسان.

٣ - حكموا على هذه الماهيات بأنها أمور عدمية اعتبارية.

فيستنتج من ذلك أن حقيقة الوجود عند الفلاسفة حقيقة عدمية في البناء المعرفي، فهي خارجة عن إطار قدرة الإنسان على المعرفة، كما أن البناء المعرفي عند الإنسان أمر عدمي اعتباري أيضاً، لأنه قائم على الماهيات العدمية الاعتبارية.

فأي حقيقة بعد ذلك يسعون لإثباتها؟[٧].

مفارقات بين العلم الحقيقي والاصطلاحي

وإليك بعض المفارقات العامة بين العلم الحقيقي والعلم الاصطلاحي[٨]:

١ - العلم في الكتاب والسنة، نور مجرد خارج عن حقيقة الإنسان، وحيث إن الروح ـ كما ثبت في محله ـ جسم لطيف مظلم الذات، يملك العلم والعقل والشعور بالله، الذي يملكها ـ وهو سبحانه أملك بها ـ فيفيضها على الروح فيعلم ويعقل ويشعر، ويقبضها عنه فيجهل، فالروح مباين مع العلم والعقل والشعور ومعلوم به. أما في الاصطلاح، فالعلم كيفية نفسانية وحالة من حالات الروح المجرد أو متحد معه على اختلاف القولين.

٢ - الصورة الحاصلة في النفس معلومة بالعلم الحقيقي، وكذلك الروح وذو الصورة أيضاً معلومان به، بخلاف العلم الحقيقي فإنه يستحيل أن يكون معلوماً لتأبيه وتقدسه عن المعلومية لأنه نوري الذات ظاهر بذاته لذاته.

٣ - العلم الاصطلاحي قد يكون جهلاً مركباً، فليس لـه كشف الواقع وإصابته حقيقةً بخلاف العلم الحقيقي، فإنه لمكان ظهوره الذاتي يكون كشفاً بذاته عن متعلقه فلا يتخلف عن متعلقه بوجه أصلاً.

فإن قلت: يشترط في صحة العلم الحصولي مطابقته للواقع.

قلت: إن هذا الشرط إنما يجدي بحسب مقام الثبوت والواقع، وأما بحسب مقام الإثبات وتشخيص الجهل المركب، فلا يقدر عليه أحد، خاصة في الغيوب، وقد كشف القرآن الكريم عنها وهي من مفاخر علوم القرآن ومن جملة نواحي إعجازه.

فإن قلت: أليس يجب الجري على طبق العلم الحصولي؟ أليس حجة قاطعة لصاحبه؟ أليس يمتنع النهي عن العمل به؟.

قلت: البحث في المقام من حيث البحث الكلامي والنظر الفلسفي والتجزئة والتحليل في حقيقة العلم الحصولي الاصطلاحي، وبيان الفرق بينه وبين العلم الحقيقي، وبيان أنه هل لـه الحجية الذاتية التي تدور مدار الكشف الذاتي أم لا. أما وجوب الجري على طبقه، فلا كلام فيه لأنه موضوع تام عند عقلاء الأمم في رفع حوائجهم ومقاصدهم، لوجوب الجري على طبقه، أصاب أو أخطأ. ضرورة أن هذا غير الحجية الذاتية التي تدور مدار الكشف الذاتي.

٤ - علم الروح بالخارج المشهود من طرق الحواس علم حقيقي غير متوقف على تصوره، وهذا واضح بناء على ما قرّرناه من أن الشاعر والمدرك هو الروح بالشعور والإدراك الخارج عن ذاته. فكما أن النفس تدرك نفسها ومضمراتها وتصوراتها بهذا الشعور، كذلك تجد الخارج وتعلمه بهذا الشعور، حيث إن الروح جسم لطيف مستغرق في مرتبته في الجوهر اللطيف، فيأخذ بشعوره ودركه وقدرته عن الموادّ اللطيفة التي في مرتبة نفسه ويصوّرها طبق ما يشاهده من الخارج ويحفظها بالتوجه إليها. وأحياناً ينشئ شيئاً من قبل ذاته من دون اعتبار الخارج، والمثال الواضح لذلك، عند تجرد الروح عن البدن ـ كما في النوم الثقيل الذي هو أخو الموت ـ يجيء ويذهب ويقول ويسمع ويرى نفسه، وأحياناً يكون واجداً للعقل والشعور فيرى نفسه وأشياء أخرى مكمّمة مصوّرة. فما يرى في اليقظة في داخل نفسه صورة ذهنية، ليست إلا حقيقة خارجية في مرتبة الروح مصورة ومكمّمة، فيرى هذه الأعيان في عالم المنام كذلك أيضاً.

بعبارة أخرى: لا فرق بين ما يشاهده الروح ويراه من الحقائق والأعيان في المنام وبين ما يعلمه ويشاهده في ارتساماته ومتصوّراته وانتزاعاته في حال اليقظة من حيث المرتبة الوجودية وصقع الواقع. والروح نفسه من أعيان تلك المرتبة وعن قريب ينكشف الغطاء ويرفع الحجاب ويستقل الروح في مرتبته ويستغني عن البدن في أعماله ومشاهداته ومسموعاته، ويسمع ما هناك من الأصوات المناسبة لهذه المرتبة، كما يرى ويسمع في حال حياته في المنام، أما في الاصطلاح، علم النفس بالخارج إمّا بانطباع الصورة في الروح المجردة أو باتّحادها معه على اختلاف القولين.

٥ - العلم الاصطلاحي حيث إنه عبارة عن الصورة المنتزعة عن الخارج، فلا محالة

يختلف العلم باختلاف المعلوم والخارج.أمّا العلم الحقيقي فهو النور المجرد المفاض على الروح. فالمعلومات على اختلافها مكشوفة بالعلم على السواء في عرض واحد، فلا يوجب اختلاف المعلومات اختلافاً في العلم.

٦ - العلم الاصطلاحي هو الصورة الحاصلة في الذهن، والصورة ليست إلا أمراً انتزاعياً من الخارج، فلا يمكن إلا مضافا إلى ذي الصورة. أما العلم الحقيقي فهو حقيقة نورية ظاهرة بذاتها ومظهرة لغيرها، وأمر عيني وجوهر نوري ليس أمراً انتزاعياً ولا عرضاً قائماً بالغير ولا حالاً في شيء، فلا يحتاج في تحققه وموجوديته وبقائه إلا إلى جعل جاعله وإفاضة مفيضه وإدامة قيّومه ومالكه.فهو أصيل بنفسه مستقل بذاته من غير احتياج إلى الإفاضة إلى شيء آخر.

٧ - يمتنع العلم بالإعدام، بناء على كون العلم صورة حاصلة في النفس، لأن الإعدام لا صورة لها. وأما بكلامه. كون العلم أمراً مجرداً نوريّاً، لا يكون فرق بين كون المعلوم به أمراً وجودياً أو عدميّاً لأن الشعور والعلم الحقيقي لا يحتاج في ظهوره ومظهريّته إلى شيء، فينال ويدرك الإنسان به الوجود والعدم.انتهى كلامه.

العقل في التصور البشري

وبهذا عرفنا أن العلم في التصور الفلسفي، هو صور ذهنية تتحد مع النفس المدركة، وبقي هنا الإشارة إلى مقصودهم من العقل، وهو عندهم فعلية النفس باستخراج النظريات من الضروريات

« وأمّا أحكام العقول، فعند فحول البشر عبارة عن الأمور الثابتة بالبراهين، فإنّ الأساس عندهم على تعريف العقل وتوصيفه لتقسيمهم إيّاه بالعقل النظري والعملي، والنظري عندهم عبارة عن فعليّة النفس باستخراج النظريّات من الضروريّات، فما كان نتيجة البرهان فهو من أحكام العقل يجب الجري على طبقه ».

فالنظريات الكسبية هي فرع البديهيات وبالتالي يتوقف العلم النظري على وجودها، ودور العقل هنا هو القيام بهذا الرابط، وتفريع نظريات متعددة اعتماداً على هذه الضروريات، فكل علم نظري لا محالة يرجع إلى هذه الضروريات، وإن كان بعشرين واسطة وإلا خرج عن كونه يقيناً، فالنتائج تسمى معقولات عندهم.

ولنا أن نتساءل إذا كانت البديهيات مقدمة على النظريات الكسبية، فكيف حصل العلم بالبديهيات؟ فإما أن تكون تلك البديهيات مخلوقة مع الإنسان؟أو تكون أمراً مكتسبا؟، والاحتمال الأول مرفوض بالضرورة، لكون الإنسان شاهداً على نفسه في صغره وطفولته، بأنه لا يدرك تلك البديهيات، فلا يعلم أن اجتماع النقيضين محال، وكل متغير حادث،... وأما الاحتمال الثاني فإنه يستدعي المحال، لكون تحصيلها موقوفاً على كسبها من بديهيات أخرى وهي بالتالي موقوف كسبها على غيرها، وهذا تسلسل، إذاً إن هذه البديهيات هي في

عرض غيرها من المدركات، معلومة بنور العلم الكاشف لها ولغيرها من المدركات.

والاشتباه الذي حصل لدى الفلاسفة يكمن في اعتبار هذه البديهيات عقلاً، فخلطوا بين العقل والمعقول، كما خلطوا بين العلم والمعلوم، واشتغلوا بالمعلوم والمعقول وتاهوا عن النور الذي به علموا وعقلوا الأشياء، فهذه البديهيات هي نفسها مدركة بنور العقل، فكما يدرك نور العقل هذه البديهيات يدرك غيرها، فالمدركات كلها في عرض واحد.

و « إن هذه السابقيات ليست ذاتها العقل، بل إنها حقائق يكشفها نور العقل للنفس، كما يكشف ضوء الشمس ألوان الحقول.. وكان خطأ الإنسان الأكبر غفلته عن مصدر النور، وتوجهه إلى الأحكام زاعماً أنها هي حقيقة النور، فراح يبحث عن مصدر يقيم به تلك الأحكام، ولو كان الإنسان قد تذكر بأن الذي يساعده على البحث ليس إلا هذا النور، وأنه لو افتقده أصبح كالمجنون والنائم حين لا يفهمان أمراً ولا يعلمان شيئاً... أقول لو فعل الإنسان ذلك لتخلص من سلسلة لا تنتهي من المشاكل العلمية التي أحاطت بنظرية المعرفة... والعقل نور مقدس عن الإحاطة به من لدن الذات، ومن هنا كانت عملية ـ كانت ـ النقدية التي استهدفت نقد العقل، كانت عملية موغلة في الجهل، إذ إن الغفلة عن نور العقل، ذلك النور الذي لم يستطع كانت ذاته القيام بعملية النقد بدون وجوده لديه، إن الغفلة عنه فقط كانت السبب في التوجه إلى السابقات الذهنية ».

ولكي يتعرف الإنسان على نور العقل، ويجد حقيقته في نفسه، يجب عليه التوجه إلى النور ذاته، ولا يشتغل بالمعقولات دونه، فهي لا تعدو أن تكون تنبيهاً إلى واقع العقل، ومن هنا لا يمكننا معرفة العقل إلا بالعقل نفسه لا بشيء آخر، فكل شيء ظاهر به وآية من آيات وجوده.

« فالإنسان إذا علم شيئاً بعد الجهل به يجد نوراً ظاهراً بذاته مُظهراً لذلك الشيء بعد ما كان فاقداً لـه، وهذا النور غير الأنوار الظاهرية نور يستضيء به الروح وهو دافع للجهل، يكون الإنسان في حال التوجه إلى المعلومات غافلاً عنه، ولكن إذا توجه إلى ذلك النور بنفس النور وغمض عن التوجه إلى المعلوم يجد نور العلم حقاً والوجدان بأنه صرف الظهور المُظهرية ».

والخطأ الجوهري الذي وقع فيه علماء الفلسفة، عندما تصوروا أن هذه البديهيات هي عقل، فجعلوها قواعد للتفكير وأساساً لاستخراج النظريات، غافلين أن هذه البديهيات لولا نور العقل لم تكن بديهيات، ولو افترضنا صوابهم في هذا الأمر، فهل تخرج البديهيات عن كونها معقولات بنور العقل فلولاه لم تكن هذه البديهيات معلومة، فهي واضحة بتوضيح العقل لها، وتعريف العقل بالمعقول مجانب للحقيقة والصواب، نعم هي من أوليات الكشف العقلي، ولكن هذا لا يعني توقف العقل عندها فنجعلها هي العقل، فالعقل لا يتوقف إدراكه على القياس البرهاني، أو غيره من النظم الاستدلالية.

« وهكذا وقع الفلاسفة في ضلال عظيم حيث زعموا أن العقل هو تلك الأحكام المسبقة الضرورية والبديهية كقانون العلية وقانون امتناع النقيضين، وما أشبه، وهذه البديهيات ليست سوى حقائق يكشفها العقل كما يكشف غيرها من الحقائق الكثيرة، بل لو لم يكن العقل مع الإنسان في كل

خطوة من خطواته، وكل مرحلة من مراحل حياته لكانت الدنيا عليه مظلمة ولما عرف شيئاً... وكثرة أخطائهم وتناقضاتهم واختلافاتهم أفقدتنا الثقة بمناهجهم، ولما فتشنا عن جذر الأخطاء رأيناه متمثلاً في نظرياتهم في العقل والعلم، وفي خلطهم العقل والمعقول والعلم والمعلوم ».

ولذا فإن قولهم إن العقل بذلك يكون يقيني الحكم إذا تألف من البديهيات وأصولها الستة، وغير ذلك يكون حكماً عقلياً استنتاجياً ولكنه ليس يقينياً(٩)، فهذا القول ليس صائباً لأن العقل هو وحده ما يميز بين اليقيني ومادون ذلك، فكيف ينسب غير اليقيني إلى حكم العقل؟

وفي نفس الوقت قالوا ـ كما هو معروف ـ أن القطع حجيته ذاتية، فنقول لهم، إذا حدث قطع، من دون القياس البرهاني، الذي يتألف من البديهيات، ألا يكون في نفس مرتبة القطع الذي حدث من القياس البرهاني المشتمل على البديهيات، وكلاهما يجب العمل على طبقه فما هو المائز إذاً؟!.

هذا بالإضافة إلى أن الحكم اليقيني لا يتجاوز كونه قطعاً، والقطع ليس علماً كاشفاً للواقع، وإنما هو دفع للاحتمالات، وهو حالة نفسية تقتضي الجزم بالحكم، ولكنه خارج عن إصابة الواقع وعدمها، فهي ليست واقعة في اختيار القاطع، فالقطع دائر بين إصابة الواقع اتفاقاً، وبين الجهل المركب، بخلاف العقل والعلم الذي ذاتيته الكشف والشهود، بخلاف القطع المنطقي، فإنه « ليس لـه كشف عن ذاته، فضلاً عن المعلوم به، لاستحالة نيل القاطع الإصابة وعدمها، وخروج الإصابة من اختياره أحياناً، مع أنه قد يكون في المسألة الواحدة أقوال مختلفة، ومن الممكن أيضاً أن يكون الواقع غير هذه الأقوال جميعاً، وأقصى ما يمكن أن يقال في حجية القطع المنطقي، هو وجوب الجري على طبقه أصاب أو أخطأ، لا كاشفيته للواقع ».

وأما قول المعترض أننا لا نجد معرفة يقينية، إلا و تتألف من هذه البديهيات وأصولها الستة فلا يمكن استحضار مثال يمثل معرفة يقينية خارجاً عنها، فإنه اعتراض فيه نوع من المغالطة، لأن النزاع هنا في جعل هذه البديهيات مدركات للعقل، وليست هي العقل، فهي واقعة في عرض واحد مع بقية المدركات، ولكن شدة ظهور هذه البديهيات خلقت شبهة في حصر العقل وتعريفه بها، ثم إن هذا التباين الفكري بين الفلاسفة لدليل على وقوع الخلاف في الأحكام اليقينية التي تتألف من هذه البديهيات، مما يورث الشك في هذه الأحكام التي تسمى يقينية، أما إذا كان العقل نوراً معصوماً فلا يحدث أي تردد في كشف الواقع وإصابته.

ولذا فإن الإنسان حين يكون « غافلاً تماماً عن نور عقله متوجهاً إلى معلوماته، باحثاً فيها عن الحقيقة دون الرجوع إلى عقله والاستضاءة به، يكون مثله كمن يغفل عن الشمس وينشغل بالموجودات المضاءة بها، هنا يحتاج الإنسان إلى من ينبهه إلى ضلالته عن النور الذي يملكه هو، لاكتشاف الحقيقة ».

ونحن هنا لا ندعو لمصادرة تلك البديهيات وإنكار أنها حاكمة على كثير من القضايا النظرية، ولكن نوضح أنها رغم ذلك لا تتعدى كونها وسائل مساعدة للتفكير، فالقيم على

كل هذه القضايا هو العقل الذي هو مباين عنها.

العقل في هدي الأئمة عليهم السلام

ولكي تقف على عمق الفرق بين العقل في معارف الأنبياء، والعقل في معارف البشر، أدعوك لتدبر حديث الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم، وحينها تقف على أن العقل الذي أمر به القرآن، ونادى به الرسل، وشهد به الوجدان، غير العقل عند الفلاسفة الذي محتواه وجوهره هو استخراج النظريات من الضروريات.

« وهذه النصوص لا تنفع كل الناس وإنما تنفع الذين يلقون السمع للشاهدة فيسعون جاهدين لمعرفة العقل، ولا يحجبون أنفسهم بتصورات مسبقة عنه فيضلون عنه السبيل ».

عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[١٠].

يا هشام: إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النّبيّين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلة، فقال: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١١].

يا هشام قد جعل الله عزّ وجلّ ذلك دليلاً على معرفته ونبههم بأنّ لهم مدبّراً فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١٢]، وقال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[١٤].

يا هشام ثمّ خوّف الّذين لا يعقلون عقابه فقال: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾[١٥]. إلى أن قال: يا هشام ثمّ بيّن أنّ العقل مع العلم فقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[١٦].

يا هشام: ثمّ ذمّ الّذين لا يعقلون فقال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[١٧]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[١٨]. وقال تعالى:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[١٩].

يا هشام ثمّ ذمّ الله الكثرة فقال: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ

اللهِ ﴾[٢٠]. وقال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لاَيَعْقِلُونَ ﴾[٢١]. ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٢٢].

يا هشام ثمّ مدح القلّة فقال:﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[٢٣]. ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[٢٤].. إلى أن قال:﴿ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ثمّ ذكر أولي الالباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية(٢٥) فقال:﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[٢٦].

يا هشام: إنّ اللّه تعالى يقول:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[٢٧] يعني عقل وقال:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾[٢٨] قال: الفهم والعقل..

يا هشام إن لقمان قال لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس، يا بني إن الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى اللّه، وحشوها الإيمان وشراعها التوكل، و قَيِّمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر.

يا هشام! لكل شيء دليل ودليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نُهيت عنه.

يا هشام! لو كان في يدك جوزة وقال الناس: لؤلؤة، ما كان ينفعك، وأنت تعلم أنها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس، إنها جوزة، ما كان يضرك وأنت تعلم أنها لؤلؤة.

للّه على النّاس حجّتان

إلى أن قال: يا هشام ما بعث اللّه أنبياءه ورسله إلى عباده إلاّ ليعقلوا عن اللّه، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر اللّه أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة..

إلى أن قال: يا هشام إن للّه على الناس حجّتين حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول.

يا هشام: إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره، ولا يغلب الحرام صبره.

يا هشام: مَن سلّط ثلاثاً على ثلاث فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام: الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن اللّه تبارك وتعالى واعتزل أهل الدنيا، والراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه كان اللّه أنيسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة، ومعزه في غير عشيرة.

يا هشام: نصب الخلق لطاعة اللّه ولا نجاة إلاّ بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلّم، والتعلّم بالعقل يعتقد، ولا علم إلاّ من عالم ربّاني، ومعرفة العلم بالعقل.

يا هشام: قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل

مردود.

يا هشام: إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارته.

يا هشام: إن كان يكفيك ما يكفيك فأدنى ما في الدنيا يكفيك، وإن كان لا يكفيك ما يكفيك فليس شيء في الدنيا يكفيك.

يا هشام: إن العقلاء تركوا فضول الدنيا، فكيف بالذنوب؟وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

إلى أن قال.. يا هشام: من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله عزّ وجلّ في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام: إن الله حكى عن قومٍ صالحين أنهم قالوا:﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أنتَ الْوَهَّابُ ﴾[٢٩].

حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها. إنّه لم يخف الله من لم يعقل عن الله، ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه، ولا يكون أحد كذلك إلاّ من كان قولـه لفعله مصدّقاً وسرّه لعلانيته موافقاً، لأنّ الله تعالى لم يدلّ على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه.

يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما عبد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرئٍ حتى يكون فيه خصال شتى: الكفر والشرك منه مأمونان، والرشد والخير منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قولـه مكفوف، نصيبه من الدنيا القوت، ولا يشبع من العلم دهره، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره، والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر.

إلى أن قال: يا هشام لا تمنحوا الجهّال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

يا هشام: كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا.

يا هشام: لا دين لمن لا مروّة لـه ولا مروّة لمن لا عقل لـه.

إلى أن قال عليه السلام: أوَ لا حُرٌّ يدع هذه اللماظة « ما يبقى في الفم من بقيّة الطعام، يعني الدنيا » لأهلها، فليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة فلا تبيعوها بغيرها، من رضي من الله بالدّنيا فقد رضي بالخسيس..

إلى أن قال: يا هشام إن ضوء الجسد في عينه، وإن كان البصر مضيئاً استضاء الجسد كلّه، وإنّ ضوء الروح العقل، فإذا كان العبد عاقلاً كان عالماً بربّه، وإذا كان عالماً بربّه

أبصر دينه، وإن كان جاهلاً بربّه لم يقم لـه دين، وكما لا يقوم الجسد إلا بالنفس الحيّة، فكذلك لا يقوم الدّين إلا بالنيّة الصادقة. ولا تثبت النيّة الصادقة إلا بالعقل..

إلى أن قال: يا هشام ما قُسِّمَ بين العباد أفضل من العقل، نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وما بعث الله نبيّاً إلاّ عاقلاً حتّى يكون عقله أفضل من جميع جهد المجتهدين، وما أدّى العبد فريضة من فرائض الله حتّى عقل عنه..

إلى أن قال: يا هشام إيّاك ومخالطة الناس والإنس بهم إلا أن تجد منهم عاقلاً مأموناً، فأنس به واهرب به من سائرهم كهربك من السباع الضارية.

جنود العقل وجنود الجهل

يا هشام: اعرف العقل وجنده والجهل وجنده تكن من المهتدين، قال: هشام فقلت: لا نعرف إلاّ ما عرّفتنا. فقال: يا هشام: إنّ الله خلق العقل وهو أوّل خلق خلقه الله من الروحانيّين عن يمين العرش من نوره. فقال له: أدبر فأدبر. ثمّ قال لـه: أقبل فأقبل فقال الله عزّ وجلّ: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي، ثمّ خلق الجهل من البحر الأجاج الظلماني. فقال لـه: أدبر فأدبر، ثمّ قال لـه: أقبل فلم يقبل. فقال: استكبرت؟ فلعنه، ثمّ جعل للعقل والجهل خمسة وسبعين جنداً، فلمّا رأى الجهل ما كرّم الله به العقل وما أعطاه أضمر لـه العداوة. وقال الجهل: يا ربّ هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته، وأنا ضدّه ولا قوّة لي به، أعطني من الجند مثل ما أعطيته، فقال تبارك وتعالى: نعم فإن عصيتني بعد ذلك أخرجتك وجندك من جواري ومن رحمتي. فقال: قد رضيت، فأعطاه الله خمسة وسبعين جنداً، فكان ممّا أعطي العقل والجهل من الخمسة وسبعين جنداً: الخير وهو وزير العقل، والشرّ وهو وزير الجهل، والإيمان والكفر، والتصديق والتكذيب، والإخلاص والنفاق، والرّجاء والقنوط، والعدل والجور، والرضى والسخط، والشكر والكفران، واليأس والطمع، والتوكّل والحرص، والرأفة والغلظة، والعلم والجهل، والعفة والتهتّك، والزهد والرغبة، والرتق والخرق، والرهبة والجرأة، والتواضع والكبر، .. إلى أن قال.. يا هشام: لا تجتمع هذه الخصال إلاّ لنبيّ أو وصيّ نبيّ أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وأمّا سائر ذلك من المؤمنين فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود من أجناد العقل حتّى يستكمل العقل ويتخلّص من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء. وفقنا الله وإيّاكم لطاعته »[٣٠].

العلم في بصائر الوحي

لمعرفة حقيقة العلم الفطري، الذي هو مباين عن العلم بالمعنى الاصطلاحي، لابد في البدء من معرفة الطريق الموصل إليه، فهل هو البرهنة والاستدلال أم هو الحضور والوجدان؟.

أول مفارقة بين الأمرين، هي أن البرهنة بالنظر الموضوعي محاولة التعرف على شيء

في مرحلة الإثبات، وهو أمر دائر بين نفيه وإثباته في مرحلة التحقق والثبوت، فالبرهان لا يخرج عن كونه آلة طريقية، تتجلى حجيتها في نفس طريقتها بعيداً عن متعلق البرهان، وبهذا المعنى لا يمكن الاعتماد عليه كطريق لمعرفة حقيقة العلم، وذلك لأن البرهان هو فرع معرفة العلم، و إلا خرج البرهان من كونه طريقاً علمياً، ولا يثبت في مقام البرهنة والاستدلال، إلا ما هو علم، أما الجهل فلا يكون طريقاً لمعرفة العلم، وبالتالي لا بد أن يكون العلم متحققاً وثابتاً، ومتقدماً رتبة على البرهان، و إلا دار الأمر.

هذا بالإضافة إلى أن أي محاولة للبرهنة والاستدلال على العلم، تخرجه عن كونه علماً، فيصبح حينها معلومة وهذا خلف، أو ينتهي الأمر إلى التسلسل لحاجة كل علم إلى علم آخر، فتبين أن قانون البرهنة بعيد عن معرفة العلم، وهذا أول خطأ وقع فيه علماء الفلسفة عندما حاولوا البرهنة على العلم.

« كما أنّ العقل هو الحجّة بالذات، والمعرّف بنفسه لنفسه ولغيره، وهو الدّالّ بالدليل عليه، الحجّة والمعرّف بالذات على ما يحكم به ويظهره، وكذلك العلم الحقيقيّ هو المعرّف، والحجّة بذاته لذاته، وبرهان بنفسه إلى نفسه، وهو البرهان بالذات لمعلوماته، فالبراهين الإلهية كلّها ذاتيّة لا تُعرف إلاّ بنفسها، وذلك في مقابل البراهين البشريّة، فإنّ البرهان عندهم هو المركّب من المقدّمات اليقينيّة، وظاهر أنّ اليقين ليس بعلم بالذات فإنّ الصورة النفسيّة ـ ولو فرض مطابقتها للواقع ـ ليست حيث ذاتها الكشف، بل إنّها طريق للمماثلة، فليست هي برهاناً وحجّة بالذات، ولا يجوز الاتّكال عليها عقلاً لعدم ممتازيّة المطابق منه للواقع عن المخالف له ».

أما الطريقة الثانية وهي الحضور والوجدان، ومعرفة الشيء بنفسه، ففيها تنعدم المسافة الموصلة لمعرفة الشيء، لأنه ثابت ومتحقق بنفسه، وليس هناك أقرب من حضور الشيء للشيء، فالعلم كاشف لنفسه وكاشف لغيره.

فينحصر الطريق إلى ذلك في التذكر والتنبه لواقع العلم الذي تمتلكه بتمليك الله الذي هو مالكه، ولا يعد التذكر حالة من البرهنة والاستدلال، فهو لا يعدو أن يكون تنبهاً لمعرفة الشعور بالمشعور، والعلم بالمعلوم، وهذه المعرفة لا تتعدى إثبات وجود الشيء، وإخراجه من حيز العدم، لا معرفة كنهه وحقيقته، وأي محاولة لمعرفة ذلك فهو استغراق في الجهل، لأن العلم يتقدس عن المعلومية، أما وصفنا العلم بالنور، كما عبرت به الآيات والروايات، فهو حالة تشبيهية لتقريب المعنى إلى الأذهان، فبما أن النور نكشف به الظلام ونبصر به الطريق، فالعلم ينكشف به الضلال، ويكون بصائر لمعرفة سنن الحياة، فأقصى ما يمكن لوصف العلم أنه حقيقة موجودة، بسيطة نورانية تكشف نفسها بنفسها وتكشف غيرها، وما على الإنسان إلا إيجاد هذه الحقيقة في نفسه.

ومن آيات هذا العلم، كونه لا يعلم إلا بنفسه لا بشيء آخر، و إلا انتهى الأمر إلى التسلسل كما هو واضح، وأول ما يعرفه الإنسان الواجد للعلم، أنه حقيقة خارجة عن حقيقة الإنسان، بل هي فضل وعطاء إلهي، تفضل به على العباد ليستضيئوا به؛ ودليل خروجه عن ذات الإنسان وإرادته،

آية القبض والبسط، فيبسطه الله على روح الإنسان فيعلم، ويرى، ويشعر، ويقبضه فيجهل، وينسى، كالنوم، والسكر، قال تعالى:﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٣١].

وأمّا « العلم الّذي عليه أساس القرآن، هو العلم الحقيقي الّذي لا يُعرف أيضاً ولا يُوصف، ويمتنع أن يُعرف إلا بنفسه، لأنّ كلّ شيء يعرف بالعلم، فالعلم لا يُعرف إلاّ بنفسه، والعقل الّذي هو حجّة معصوم بالذات من الله تعالى، حجّة على العلم الحقيقي، لأنّه حجّة بذاته على ذاته، ومعرّف نفسه لنفسه، وحيث نفسه الكشف، فيظهر نفسه وغيره فهو الحجّة بالذات، والدليل بالذات على العلم، لأن ذاته العلم وقوامه وحقيقته العقل، فحسن الأفعال وقبحها ليس حيث ذاتها المظهريّة والكاشفيّة، فالكاشف عن ذلك هو العلم الحقيقيّ، وهو الكاشف لنفسه حيث إنه لا يعرف بغيره ولا يفهم ولا يدرك ولا يتصوّر، يتحيّر الإنسان مع وجدانه إياه به، وعرفانه إيّاه به، وهو كماله ».

ميزات عامة للعلم

١ - العلم بالمعنى الحقيقي لا يدرك إلا بالعلم نفسه، فهو كاشف لنفسه بنفسه، بخلاف العلم بالمعنى الاصطلاحي، الذي هو مفهوم تصوري، وكل أمر تصوري هو معلومة وليس علماً « فالحضور والحصول والتصوّر والتصديق ممّا ينكشف فليس هو العلم بل العلم غيره، وهذا العلم من وجده يعرّفه بأنّه لا يُعرف ولا يُوصف بالبيان، وأنّ تعريفه وتوصيفه إلحاد وضلال، فمن عرفه بغيره ما عرفه، بل لا يُعرّف إلاّ بنفسه، فإنّه حيث ذاته العلوّ والقدس عن المفهوميّة والمدركيّة والمعلوميّة والمعقوليّة ».

٢ - العلم بالمعنى الحقيقي خارج عن ذواتنا، وعن ذوات الأشياء، وإنما هو نور مخلوق وعطاء إلهي، بخلاف العلم الاصطلاحي، الذي هو مرتبة من مراتب النفس.

٣ - العلم الحقيقي هو كشف تام للخارج، ولا يتوقف حصوله على توسط المفاهيم والصور الذهنية، التي لا تعبر إلا عن صور الخارج لا تحققه العيني، ومن هنا يمكننا الإيمان بالموجودات والعلم بها بعيداً عن المثالية التشكيكية.

٤ - الصور والمفاهيم الكلية والعناوين الاعتبارية، هي حقائق منتزعة من واقع علمنا بالأشياء الخارجية، فهي متأخرة رتبة عن علمنا بالموجود.

٥ - العلم الحقيقي لا يختلف باختلاف المعلوم، إنما هو نور واحد يكشف كل المعلومات في عرض واحد، بخلاف العلم الاصطلاحي الذي يتعدد بتعدد المعلوم، فهو تابع لصورة الشيء في الذهن فيتعدد بتعدد الأشياء، ولا تمايز بين العلم والمعلومة.

٦ - حجية العلم الاصطلاحي ليست ذاتية لأن هذه الأحكام اليقينية ليست كشفاً تاماً للواقع، لوجود احتمال المخالفة، وإن اشترط فيها المطابقة في مرحلة الثبوت والتحقق، إلا أنه لا يمكن اشتراط ذلك في مرحلة الإثبات، فهي بالتالي ليست حجة ذاتية بخلاف العلم الذي

في حالة تحققه لا يحتمل الخلاف.

٧ - العلم الحقيقي مخالف للقطع بالمعنى المنطقي الدائر بين إصابة الواقع اتفاقاً، وبين الجهل المركب، بخلاف العلم والعقل حيث ذاتهم طرد الريب وبعث السكينة، والقطع حيث ذاته الجهل بالخلاف قد يكون اتباعاً للهوى وطبعاً على القلب، وإن كان القطع حجة فهي ليست ذاتية، وإنما عقلائية إذا حدث عن طريق عقلائي.

٨ - البديهيات العقلية « الأوليات، المشاهدات، التجريبيات، المتواترات، الحدسيات، الفطريات » ليست هي العقل، وإنما أمور مظلمة بذاتها معقولة بالعقل مكشوفة بنور العلم.

٩ - بما أن العلم الحقيقي كشف تام للواقع، فتكون الألفاظ والمسميات هي إشارة إلى حقيقة خارجية، وليست الصور والمفاهيم الذهنية، بخلاف العلم الاصطلاحي الذي يعتبر الواقع العيني مجهولاً غاية الجهالة، ولا يمكن إدراكه إلا بتصوره فتكون الألفاظ إشارة إلى المفاهيم الذهنية « لأن الوضع بزعمهم لا بد لـه من تصور الألفاظ.. وهذا المتصور هو المعنى حقيقة، فلو كان المتصور حيث وجود الشيء يكون المعنى وجهاً من وجوهه لامتناع تصور حقيقة الوجود، ولو كان المتصور من سنخ الماهيات يكون المفهوم عين الماهية الخارجية لعدم النظر إلى وجوده العقلي في وضع اللفظ..وبهذه الجهة الألفاظ موضوعة عندهم في المعاني والمفاهيم المتصورة ومستعملة فيها حتى في الأعلام الشخصية » ومن هنا لو كانت الأسماء والألفاظ مثل « القدرة، العلم، الحياء، السمع، البصر، الوجود »، موضوعة للمفاهيم الكلية الذهنية وليست الحقائق الخارجية لكان اشتراكها معنوياً بيننا وبين الله، وليس هنالك اختلاف إلا في المصاديق، في حين أنه لا جامع بيننا وبين الخالق حتى يكون المعنى واحداً، وسوف نفصل هذا الأمر في مبحث الوجود.

١٠ - فإذا عرفت أن العلم حيث ذاته المظهرية، والكاشفية، وأنه لا يعرف ولا يوصف إلا بنفسه، فبه يوصف الموصوف، يكون عجزنا عن معرفته إلا بنفسه، آية ودليلاً على عجزنا عن معرفة الله إلا بالله، فإذا كان العلم وهو مخلوق من مخلوقات الله، عجز البشر عن معرفته إلا به، فما بال الخالق « فلا إلـه إلاّ هو أضاء بنوره كلّ ظلام وأظلم بظلمته كلّ نور »[٣٢]، وكما في الدّعاء: « إلهي أنت الّذي لم تجعل للعقل طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك » فكل متصوّر ومتعقَّل فهو غير الله تعالى، كما جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام « كل ما تصورتموه في أدق معانيه فهو مخلوق مثلكم مردود عليكم ».

١١ - معارف القرآن لا تدرك إلا بنور العلم، وبما أن العلم عطاء إلهي فهو موقوف على التقوى، والتزكية، والإخلاص، والتضرع، وإظهار العجز لله.. قال تعالى:﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٣٣]. وقال تعالى:﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[٣٤]. القرآن نور وهدى للمتقين، وعلم للذين زكوا أنفسهم، فالتزكية شرط في العلم الحقيقي، ومن هنا لم تكن مشكلة المعرفة مشكلة عقلية، حتى ننظم للعقل قوالب منطقية يسير العقل وفق خطاها، وإنما مشكلة نفسية، وليس هنالك سبب للخطأ سوى الهوى وحب النفس والكبر وغيرها من عقد

الضلال، فكلما زكّى الإنسان نفسه و تنور بنور الوحي كلما زاده الله بسطة في العلم، ونوراً من الهدى، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[٣٥]، وكذلك حذر القرآن من الهوى وأتباع النفس، قال تعالى:﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[٣٦]، وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾[٣٧]، بخلاف العلم بالمعنى الاصطلاحي الذي هو موقوف على مجرد التصور وانتزاع المفاهيم الكلية، وسوف نناقش هذا الأمر لاحقاً.

١٢ - العلم والوحي نوران معصومان من مشكاة واحدة، لا يفترض بينهما مجرد التعارض، والعلاقة بينهما التذكير والإثارة من الوحي، والتصديق والفقه، وإيجاد مصاديق من العقل، كما مر في رواية الإمام الكاظم عليه السلام « يا هشام: إن لله على الناس حجتين:حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول ».

خطوات على هدى الوحي

أحببت إيراد مجموعة من كلمات سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد المدرسي (دام ظله)، في العلم والعقل، التي تبين نظرته ومنهجيته المعرفية في هذا الإطار، وهي كلمات قصدت التأصيل لبناء معرفي جديد وفقاً لمعيارية العقل المستبصر ببصائر الوحي، ليكون مرتكزاً للتوفيق بين منهجية الوحي والعقل فيكون بذلك معياره الذي يلج به في عالم المعرفة يقول سماحته (دام ظله) في ذلك: « بعد أن يجد الإنسان موضع قدم ثابت يستقيم عليه وهو تذكرة العقل، يشرع في بناء صرح معرفته على أسس رصينة متماسكة متوازنة ».

وقد تحدث سماحة السيد كثيراً عن ملامح مرتكزاته الفكرية، في كثير من كتبه مثل: (الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي، المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده (تسعة أجزاء)، مبادئ الحكمة، وعشرات الكتب المتفرقة في شتى مجالات الفكر والثقافة.

يقول سماحة السيد: « إن الكشف الذاتي الذي يملكه العقل، نابع من أن كل شيء ظاهر بسببه، فكل ما هو منكشف للبشر وظاهر لـه آية من آيات وجوده، ومن هنا كان على الإنسان الغافل عن عقله أن يستثير أكبر كمية ممكنة من معارفه، ليجد أنه لم يكن يحيط بها لو لا وجود طاقة لديه، تكشف الحقائق وهي (العقل)، ولهذا فإن التوجه إلى آثار العقل وآياته هو الدليل القريب إلى حقيقته، وإذا وجده الإنسان وعرف حقيقته وميزه عن الجهل، وفرق بين أحكامه الصائبة وخيالات النفس، وأخيراً إذا استيقظ العقل داخل الذات بالتذكر به والتوجه إليه، استطاع الإنسان أن يسكن إلى نفسه ويثق بفكره، ويهتدي إلى سبيل كل علم وكل خير.

ويتلخص هذا المنهج الإسلامي الفريد... في ثلاثة نقاط:

١ - التذكرة بأن معرفة العقل بداية كل معرفة ومنطلق كل بحث.

٢ - التذكرة بأن معرفة العقل لن تكون إلا بالعقل ذاته، أو آياته، بآثاره وذلك لمقارنة

حالتي وجوده وعدمه ببعضهما.

٣ - التذكرة بأن وجدان العقل، هو الطريق إلى وجدان الحقيقة وتمييزها عن الباطل، ومن هنا نجد النصوص الإسلامية تتضافر بالتذكرة إلى العقل في محاولة لإيقاظه داخل النفس ووجدان الحقائق به ».

ويقول: « إذا كان لكل باحث منهج للبحث ثم أسلوب للعرض نابعان من نظرته الخاصة إلى العقل والمعرفة فإن منهج القرآن وأسلوبه نابعان أيضاً من نظرته إلى العقل والمعرفة الآتية، فلا منهج أفضل من التوجه الذاتي، ولا أسلوب أفضل من التوجيه الذاتي فالتذكر والتذكير هما السبيلان المفضلان في حقل العقل والمعرفة » [٣٨].

ويقول: « يختلف العقل والعلم عن القطع، حيث إن الثاني ليس سوى دفع الاحتمالات حتى لا يبقى إلا واحد منها، بينما العلم كشف الحقيقة للنفس حتى تطمئن إليها!.وحجية العلم ذاتية، بينما حجية القطع ليست ذاتية، فإذا كان عن طريق عقلائي لم يردع الشرع عنه أخذنا به، و إلا فلا..

والعقل قد يغط في سبات، وعلاجه إيقاظه بإثارته، وقد ينكسف شعاعه بسحب الهوى، فلا بدّ من ردع النفس عن اتباع الهوى وشحذ عزيمتها لمواجهة الأهواء..وقد تختلط وساوس الشيطان، وهواجس النفس وتسوّلاتها، بالعقل وأحكامه، فلا بدّ من تجلية العقل بالتذكرة بها، وبيان شواهده، وجنوده، وصفات الذين يتحلون به، وكذلك بيان الجهل، وشواهده، وجنوده، وصفات المبتلين به... وصفوة القول تتلخص في أمور:

١ - إن القطع الذي اعتبره البعض حجة ذاتية ليس كذلك، إنما هو قد يكون طريقاً عقلائياً، وإنه ردعت عن بعض مفرداته الشريعة الغراء، كقطع القطاع، والقطع الذي مصدره القياسات الباطلة أو الجفر والرمل وسائر المصادر غير المعترف بها عند العقلاء، وهذا رأي كبار فقهائنا (قدس سرهم).

٢ - وإن العقل يستقل بمعرفة الحسن والقبح، ولكنه بحاجة إلى الوحي، لتزكية النفس، وتنمية الإرادة فيها، وتجلية العقل وإثارة دفائنه.

٣ - إن الوحي بين لنا كل مانحتاجه من الأحكام في صيغة أصول، وهي الأحكام العقلية التي يجمع العقلاء على قواعدها العامة.

٤ - وظيفة العقل التعرف على الوحي، وفهمه، ومعرفة حملته، ومعرفة كيفية تطبيقه على الحقائق الفرعية، بكلمة: العقل والوحي شعاعان لمصباح واحد وبدون تكاملهما، لا يتكامل البشر، لذلك لا يجوز القياس في الدين، ولا الاستغناء عن النصوص ».

ويقول:« تورط الفلاسفة حين زعموا أن العقل هو البديهيات أو ما يسمى اليوم بالأحكام المسبقة، أو هي الصور المنعكسة من الأشياء في صقع الذهن البشرى، ولم يسألوا أنفسهم كيف يتم علمنا بهذه البديهيات أو بتلك الصور.

ولأن الصور قد تكون حقائق، وقد تكون إفرازات لحالات نفسية أو عصبية أو ما

أشبه، والتي نسميها (الأوهام)، فقد وقعوا في إشكالية كبيرة لم تنفعهم محاولاتهم العديدة للخروج منها، تلك الإشكالية هي: ما الفرق بين الصور المنبعثة من الحقائق الخارجية وتلك الصور المختلقة من الحالات النفسية ودون أن يكون لها أي رصيد من الخارج؟.

وأعظم ما في بحوثنا هذه اكتشاف وسيلة للتفريق بين الحقائق التي تنعكس علينا وبين الأوهام التي تتزاحم عادة على أفئدتنا، وإذا كنا قد وعينا البصائر التي سبقت فإننا نبلغ هذا الهدف بسهولة ونحل تلك الإشكالية، كيف ذلك؟، بالطرق التي ذكرنا بها الإسلام سوف نكتشف العقل... ونزداد وعياً به..وبإمداداته... وصفاته وصفات من تحلى به، وهنالك يكون من السهل معرفة أضداده من الجهل والهوى ».

« ويبدو أن هذا الكشف الوجداني، والشهود الفطري، والتجربة الذاتية في التعرف على العقل، ومدى تطابق الشريعة معه، أبلغ حجة مما ساقه البعض دليلاً على ذلك ... لماذا؟:

أولاً: لأن ذلك الدليل يعود بالتالي إلى الوجدان، فلماذا لا نقصر الدرب ونستدل بالوجدان منذ البداية.

ثانياً: لأن حجتنا القائمة على أساس فضّ العقل ذاته بذاته، تهدينا إلى سُبل كشف الحقائق التفصيلية أيضاً، لأنها - أساساً - تعتمد على معرفة هذه الحقائق والاستدلال بتلك المعرفة على وجود نور العقل ».

ويقول: « منهج الإسلام الذي ينهى عن القياس بشدة بالغة، ويحدد السبيل الوحيد لمعرفة الدين وهو الوحي وأهل بيته، والفقهاء ملتزمون بهذا المنهج، ومنهج الفلسفة واعتماده على المناهج المنطقية التي تزعم أنها تعتمد على العقل كوسيلة لفهم الحقائق، وهذه المناهج يرفضها الفقهاء عادة في الفقه، ولكنهم في علم الكلام وربما في الأصول يأخذون ببعضها لمجرد ردّ الشبهات الآتية من أصحابها على مناهج الدين رداً قائما على أسسهم، وبتعبير آخر استخدام سلاحهم ضدهم.

ويبدو لي أن الحلقة المفقودة في هذا الوسط تتمثل في معرفة العقل، فاشتباه البعض في معناه جعله يخلط بين ما يسميه الحكماء والمتكلمون بالعقل والمناهج العقلية.وبين ما جاء في القرآن الكريم - فوقع في تناقض عظيم - فإذا كان العقل هو ما يقصده الفلاسفة فلماذا لا يجوز القياس في الدين؟ أو ليس العقل رسولاً باطناً، وشرعاً إلهياً في داخل الإنسان؟ أليس الشرع أساساً قائماً على أساس العقل؟فلماذا النهي عن الالتزام به؟كلا..العقل في الكتاب والسنة ليس هو الذي يزعمه الفلاسفة، وإذا ثبت الفرق فإن الإسلام نهى عن مناهج الفلاسفة التي يسمونها بالعقل، وهي ضلالة، بينما أمر بالعقل الحق الذي هو نور الله وشرعه ورسوله الداخلي ».

« ومن بين الحقائق التي سوف تتكشف أمامنا بالنظر في العقل من خلال آياته هو حقيقة الموهبة في العقل التي نعرف بها أن ضوء العقل لم يكن لدينا ثم فجأة وبدون أي نوع من الاكتساب الذاتي حصلنا عليها، ونفقده حيناً ولا نزال نصبو إليه. فترانا نريد أن نتذكر شيئاً فننساه ونريد أن نعرف شيئاً وقد يكون شيئاً بسيطاً فنجهله، هناك نعلم أن

تدبير العقل بيد غيرنا وهو الله سبحانه.

لو كانت موهبة العقل من ذات أنفسنا إذاً ما فقدناها لحظة، فهل يفقد الشيء ذاته؟ولم يكن محدوداً أبداً إذ المحدود نوع من الفقد الذاتي، ولما عصت علينا حينما أردناها، أفتعصي الذات على الذات؟.

إن ذات الأدلة التي اهتدينا بها إلى ذاتية العدم فينا، وبالتالي عرفنا أن الوجود لا يعدو أن يكون نوراً عارضاً على الأشياء، ولا يعدو أن يكون هبةً من خالقه، أقول إن ذات الأدلة تأتي هنا لتهدينا مرة أخرى إلى أن العقل أيضاً موهبة بما فينا من قدر خاص منه، وأنه لا يخضع تماماً لإرادتنا رغم أنه يخضع نوعاً ما لها.

وحين جهل البشر حقيقة الموهبة في العقل راح يتطرف يمنة وشمالاً، ففريق حسب العقل من ذات الإنسان: فلم يتصور نفساً جاهلة وأخرى عاقلة، بل العقل والعلم من ذات النفس « التي سماها: روحاً علوية مقدسة عن كل نقص »، وقال هذا الفريق أن النفس البشرية تتطور بصورة آلية حتى تكتمل ولا تجهل شيئاً، ومنهم من قال إن النفس كانت تعرف كل الحقائق فنسيتها ثم تتذكر أيضاً.

وفريق زعم أن العقل مجرد عارض على الإنسان الذي يملك فقط أداة استقباله، فالعلم مجرد تجارب، والتجارب أحاسيس، وهي أمور مادية صرفة فلم يتصور الفريق الثاني نفساً تملك رصيداً داخلياً يفترق عن الحيوان، ويبني به حضارة سامية.

وهؤلاء الحسيون أنكروا وجود مقاييس ثابتة يملكها البشر بعيداً عن التجربة، ليقيسوا بها تجاربهم فيميز الصحيح منها عن الخطأ »[٣٩].

ثم يقول سماحته: وبين هذين الموقفين المتطرفين كان موقف القرآن الكريم الذي قال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾[٤٠]. وقال: ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾[٤١]، وقال: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٤٢]. أن الهداية التي هي وصول أكبر الحقائق الكونية وأوضحها لا تتحقق بغير الله، عز وجل فإن غيرها أحرى أن لا تكون سوى نعمة من الله العزيز □

الهوامش:

(١) السبحاني، الشيخ جعفر، نظرية المعرفة، ص١٣.

(٢) المصباح، الشيخ محمد تقي، المنهج الجديد لتعليم الفلسفة ص١٦١.

(٣) السبحاني، الشيخ جعفر، نظرية المعرفة، ص٣٠.

(٤) مصدر السابق، ص٣٠١.

(٥) مصدر سابق، ص٢٤٧.

(٦) مرحبا، د. محمد عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص٢.

(٧) وسوف نرجئ النقاش عن الوجود إلى بحث خاص به.

(٨) الميانجي، العلامة آية الله الشيخ محمد باقر، توحيد الإمامية، ص١٨

(٩) « إن القياس إذا كان برهانياً، فيما أنه يتألف من اليقينيات وأصولها الستة المتقدمة، في الهامش، فهو يفيد اليقين، وأما الأقسام الأخر للقياس وهي: الجدل والسفسطة والخطابة والشعر فكلها وإن كانت من عمليات العقل في مجال الاستنتاج لكنها لا تفيد اليقين » نظرية المعرفة هامش ص١٤١.

(١٠) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٧٩، ح١، ب٢٥.

(١١) سورة البقرة، آية/١٦٤.

(١٢) سورة النحل، آية/١٢.

(١٣) سورة الروم، آية/٢٤.

(١٤) سورة الأنعام، آية/٣٢.

(١٥) سورة الصافّات، آية/ ١٣٦.

(١٦) سورة العنكبوت، آية/ ٤٣.

(١٧) سورة البقرة، آية/١٧٠.

(١٨) سورة الأنفال، آية/٢٢.

(١٩) سورة النمل، آية/٦٠.

(٢٠) سورة الأنعام، آية/١١٦.

(٢١) سورة المائدة، آية/١٠٣.

(٢٢) سورة آل عمران، آية/ ١١٠.

(٢٣) سورة سبأ، آية/١٣.

(٢٤) سورة ص، آية/٢٤.

(٢٥) الخلق (خ ل).

(٢٦) سورة البقرة، آية/٢٦٩.

(٢٧) سورة ق، آية/٣٧.

(٢٨) سورة لقمان، آية/ ١٢.

(٢٩) سورة آل عمران، آية/٨.

(٣٠) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج١، ص١٣، ح١٢.

(٣١) سورة الأنعام، آية/١٢٢.

(٣٢) نهج البلاغة: خطبة ١٨٢ ـ القسم ١٣.

(٣٣) سورة البقرة، آية/١-٢.

(٣٤) سورة آل عمران، آية/١٦٤.

(٣٥) سورة محمد، آية/ ٤٧.

(٣٦) سورة البقرة، آية/٨٧.

(٣٧) سورة النجم، آية/٢٣.

(٣٨) بحوث حول القرآن الحكيم ص٩٩.

(٣٩) بحوث في القرآن الحكيم ص١١٣.

(٤٠) سورة الضحى، آية/٧.

(٤١) سورة الأنعام، آية/٧٧.

(٤٢) سورة القصص، آية/٦٥.

قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل*

■■ الشيخ علي الصيود*

توسع القرآن الحكيم في حديثه عن بني إسرائيل، واستعرض إنجازاتهم وإخفاقاتهم، ورصد لنا المسيرة الحضارية وما اعتراها من علل وأمراض أسهمت في أفول نجمهم.

فقد نص القرآن الحكيم على تفضيل بني إسرائيل على العالمين ـ في زمانهم ـ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1].

فما الذي حدا ببني إسرائيل وساقهم إلى الخسف فجعل منهم القردة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ منكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِين(٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِين ﴾[2].

وما الذي جرّهم إلى تعدي حدود الله تعالى: ﴿ وَأَخْذِهمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3].

فكانت المحصلة النهائية الطرد واللعن: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾[4]. فبعد تربعهم على كرسي التفضيل والتكريم وبعد أن أطعمتهم يد السماء من خيراتها وبركاتها: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[5].

فحرّي بنا أن نتتبع ونرصد الإخفاقات والتحولات التي رافقت مسيرة هذه الأمة، ولماذا فقدت هذه الأمة أهليتها في القيادة الدينية؟

بعد أن كانت الأمة المُستخلفه والحافظة لدين الله ورسالته: ﴿ قَالُواْ أُوذِينَا من قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنظُرَ

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

** عالم دين وباحث - السعودية.

كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[٦]. ولعل في ذيل الآية ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ إيماء لما ستصاب به هذه الأمة من انتكاسات تحرفها عن مسيرتها الربانية.

وليكن رائدنا في دراسة أحوالهم وقصصهم هو الاعتبار: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾[٧]، هذا المصطلح الذي أسسه القرآن الحكيم، وخلاصته أن لا نكتفي في دراسة الأمم والشعوب والأحداث التي عصفت بها والتحولات التي ألمت بها، بسطحها وظاهرها، بل نعبر من ظواهر الأحداث إلى جوهر الحقائق وبتعبير آخر أن نلتقي مع القوانين والسنن التي حكمت مسيرة الأمم والشعوب.

ولعل التناسب في الأدوار والمهام بين الأمة الإسلامية وأمة بني إسرائيل هو الذي جعلها تنال حظاً كبيراً وقسطاً وافراً في القرآن الحكيم.

حين تدرس الأمة الإسلامية إخفاقات بني إسرائيل وعللهم وتسعى جاهدة أن تتجنب سقطاتهم.

هذا بالإضافة إلى أن دور الشهادة والتصدي لشأن الرسالة نقل من بني إسرائيل إلى هذه الأمة كما سوف نتبين في مطاوي البحث.

وقبل الحديث عن التحولات الكبرى في مسيرة بني إسرائيل نذكر مجموعة من الحقائق:

١ ـ التأثير المتبادل: التحول والتغيير في أي مجال من مجالات الحياة يلقي بظلاله على الأبعاد الأخرى.

فالتحول في الأفكار والتصورات يستتبع تحولات وتغييرات كبيرة على صعيد الاجتماع والاقتصاد، ولا ينحصر تأثيرها في حدود المبادئ والقيم: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[٨]. فالآية المباركة تربط التحولات الاقتصادية والمعيشية وترهنها بمدى حدوث التغيير في الأفكار والمبادئ والتصورات: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾، كما أن التحولات الاقتصادية تؤثر بشكل أو بآخر على مسيرة القيم والمبادئ والتصورات، ولعل ما ساقه القرآن الحكيم من قصة ذلك الرجل الذي أعطى المواثيق المغلظة أن يبقى وفياً لمبادئه وقيمه مهما حدث له من تحولات اقتصادية ومعيشية على وضعه، ولكنه بمجرد أن تذوق طعم النعيم وعاش عيشة الأغنياء نكص على كل المبادئ والقيم والتصورات التي يحملها: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا من فَضْله لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّآ آتَاهُم مِّن فَضْله بَخِلُواْ به وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[٩].

فهذا مثال واضح لتأثير الأوضاع الاقتصادية والمعيشية وإحداثها تحولات كبرى على صعيد الأفكار والمعتقدات.

وهذه البصيرة (التأثير المتبادل) نستفيد منها عند دراسة التحولات عند بني إسرائيل، وجذر كافة التحولات الأساسية التي اجتازها بنو إسرائيل.

٢ـ نعى القرآن الحكيم على الكثير من الأمم سكونهم ورفضهم لكل محاولات التجديد والإصلاح وتمسكهم بإرث الأجداد والآباء: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[١٠]. وهو في ذات الوقت نعى التحولات والتغييرات التي لم تسطبغ بلون الفطرة ولم تهتدي ببينات الرسالة، كما حدث للكثير من الأمم والشعوب وعلى رأسهم أمة بني إسرائيل.

من هنا يؤسس القرآن للاجتماع المعياري والقيمي، فليست القضية في التحول والتغيير والسكون والركود بل القضية هي في قيم التحول ومبادئه، وقيم السكون ومبادئه، فالنظرة المعيارية هي الحاكمة، فلا ينظر القرآن إلى كل التحولات الحضارية بعين الإكبار والإجلال، كما لا يزدري ويحتقر كل حالات البقاء والمحافظة على المكتسبات والموروثات، فالمهم هي صبغة هذه التحولات ووجهتها، ولذا أشاد القرآن الحكيم بالتحول الكبير الذي أوقف مسيرة الدمار عن قوم يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾[١١]. وأدان بشدة التحولات السلبية التي انتابت بنَي إسرائيل في مسيرتهم الحضارية.

التحولات الكبرى عند بني إسرائيل

بين ألواح موسى عليه السلام وعجل السامري:

خاض بنو إسرائيل اختباراً صعباً بعد غياب نبي الله موسى عليه السلام، لتلقي التعاليم الإلهية، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ألواح موسى عليه السلام وما فيها من الهدى والبينات، إلاّ أنهم وبسبب ما انتابهم من الوهن والضعف استجابوا لأباطيل السامري، فانتقلوا بين عشية وضحاها من عبادة الله إلى عبادة العجل.

هذا مع علمهم بوجود الممثل الشرعي لموسى عليه السلام وهو هارون عليه السلام، إلا أن قوى الانحراف والشرك تعاضدت لإقصائه عن القيادة والزعامة وقد كان الثمن الذي دفعه بنو إسرائيل لتجاوز هذه الانعطافة في مسيرتهم الحضارية كبيراً جداً. فقد أمروا أن يقتلوا أنفسهم حتى يتطهر هذا الجيل من الشرك والطغيان، ولا تحمل الأجيال الناشئة معها رواسب الجاهلية والشرك، وحتى لا يستعاض بألواح موسى عليه السلام عجل السامري: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لقَوْمه يَا قَوْم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ باتِّخَاذكُمُ الْعجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئكُمْ فَاقْتُلُوَاْ أَنفُسَكُمْ ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[١٢].

وهكذا يستغل الانتهازيون فُرص غياب القيادات أو تغييبها فيلقون بحبالهم ليصطادوا

بها أصحاب القلوب المريضة والنفوس الضعيفة.

بين هدى الكتاب وأوهام السحر:

المنعطف الثاني في سيرة بني إسرائيل هو إيثارهم تعاليم السحر والشعوذة على كتاب الله. فأي أمة هي بحاجة إلى رؤية وبصيرة تحدد لها طبيعة العلاقة التي تشيدها مع كل مفردات هذا الوجود.

وقد عاش بنو إسرائيل دهراً من الزمان منتفعين بكتاب الله تعالى، فهو الذي يرسم لهم التصورات الكبرى لهذا الوجود ويحدد لهم طبيعة العلاقة مع كافة المخلوقات والموجودات.

وهو الذي يرسم لهم طريق الرفاه، وهو الذي يسن لهم الشرائع والقوانين التي تكفل لهم العيش الرغيد.

ولكنهم سرعان ما لهثوا خلف فلسفة ورؤية لا تمت للواقع بصلة، فتمسكوا بأوهام السحر والشعوذة عوضا عن البينات والهدى: ﴿ وَلَمَّآ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عند اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[١٣]. الآية المباركة تقرر لنا حقيقة لا يمكن الحياد عنها، وهي أن الأمم لا يمكنها أن تعيش بدون فلسفة ورؤية ترسم لها خريطة الحياة وتحدد علاقاتها وعندما تنبذ الأمة بصائر الدين لا بد أن تلهث خلف سراب الثقافات الأخرى، وإن كانت سحراً وشعوذة.. « بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف في بني إسرائيل، وبعدها كانت العنصرية ومن ثم تأتي مرحلة الخرافة المتمثلة في السحر والشعوذة، حيث أن الأمة العنصرية تنغلق على ذاتها: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[١٤]. وتبتعد عن توجيهات الله وعن سنن التاريخ وتجارب الناس وتستكبر على الحق وليس أمامها بعدئذ إلا الهبوط إلى حضيض السحر والشعوذة، فيتناول القرآن الحكيم هذه المرحلة بإيجاز فيبدأ بالحديث عن ترك بني إسرائيل للكتاب ليبن الله أنه السبب في تشبثهم بالسحر، لأن من لا يمتلك تفسيراً صحيحاً للحياة ورؤية علمية إلى أهدافها، يضطر إلى البحث عن تفسيرات غيبية ورؤى باطلة، وحيث يتحدث عن السحر يبين القرآن قصة مختلقه من بني إسرائيل تزعم أن السحر من الله، وينتهي الحديث ببيان أن التمسك بالكتاب أفضل لهم من التشبث بالسحر ».

« وبسبب هذا النبذ وجد فراغ ثقافي في حياتهم فالتفتوا إلى السحر والشعوذة والأفكار الغيبية الباطلة، فلم يجدوها إلا عند الشياطين: ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ

سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾[١٥]، ذلك أن سليمان (عليه السلام) كان نبياً من بني إسرائيل وملكا، وكانت الشياطين تخدمه، وقد خلفت وراءها مجموعة من الأفكار الباطلة، وهؤلاء تركوا الكتاب وأخذوا بأفكار الشياطين، وهذه نهاية العنصرية أنّها لا تفرق بين الأفكار الصحيحة التي يأتي بها نبي مرسل من الله، والمشكلة أنهم قالوا ما دامت هذه الأفكار من بنات فكر الشياطين الذين كانوا حول سليمان، وما دام سليمان نبي الله، فإذا هذه الأفكار هي من الله »[١٦].

عصيان الأوامر والتيه:

التحول الآخر الذي أثر في مسيرة بني إسرائيل هو امتناعهم من اقتحام الأرض المقدسة، ورفضهم للانقياد للأوامر الربانية، وقد كلفهم ذلك هلاك جيل بأكمله في التيه، حتى يتسنى للجيل اللاحق أن يدخل الأرض المقدسة وقد تطهر من كل عوامل الجبن والخوف، لأنّه لا مكان في رسالة السماء للأمة التي تهاب الموت وتخشى الجهاد.

قال تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[١٧].

التحول الأخطر:

رغم كل تلك الإخفاقات والتحولات في مسيرة بني إسرائيل، إلاّ أن الأمل كان يحدوها لتنهض من كبوتها، وتعاود من جديد دور الريادة الذي أنيط بها.

إلاّ أن التحول الأخطر في المسيرة الحضارية لبني إسرائيل، والذي أفقدها دور الريادة وزوى عنها مسؤولية الشهادة، تتمثل في جفاف الروح وتيبسها وعدم القدرة للإفادة من معارف الدين وتعاليمه.

وقد عبرت مجموعة من الآيات عن هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١٨].

وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١٩].

إن دخولَ بني إسرائيل في نفق التكذيب بالرسالات والقيم كان ذلك إيذاناً بأفول نجم

الرسالة عن سمائهم، فقد شكلت هذه المرحلة عدم القدرة للإفادة من مكتسبات الرسالة وهداها، وبدخولهم هذه المرحلة بدأت نوعية جديدة في التعاطي مع رسالاتهم وقياداتهم.

فتحولت حياتهم إلى مجموعة من القشور يحاولوا أن يتمسكوا بها بعد أن ضيعوا جوهر الدين ومبادئه، فشاعت عندهم رسالة الأماني والأحلام: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢٠].

واتكأوا على أمجاد التاريخ علّها تعوضهم عما اقترفوه من تضييع الرسالة فدخلوا في سجال طويل مع نظرائهم بإدعاء إن إبراهيم عليه السلام كان من رجالاتهم وقادتهم، وهذه عادة الأمم التي لا تنتفع بالرسالة ولا تطيع الرسل والأنبياء عليهم السلام، فتتنازع على الأسماء والألقاب ومدى قربها وبعدها عنهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢١].

وبلغ بهم الإسفاف أن أدعوا القرب من رب العالمين: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير ﴾[٢٢].

هذا هو حال الأمم والشعوب المتمردة على قيمها ومبادئها، فإنها تستعيض عن ذلك من خلال تسمكها بالقشور والرتوش بدل أن تتحمل مسؤوليتها فتنتفع من رسالتها.

وبكلمة؛ لا نجد سببا وراء تمسكهم بالأماني وعيشهم على أمجاد الأنبياء عليهم السلام وادعائهم القرب من رب العالمين، إلا التملص من المسؤولية، وأنهم معفون من الحساب والكتاب، وهم إن دخلوا النار فإنما هي أيام معدودة: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٢٣].

الدواعي والأسباب

لم يكن نشوء حالة الجفاف الروحي مصادفةً، بل لأسباب ودواعي أهمها:

١ـ الميوعة في الالتزام بالتعاليم والأحكام الشرعية:

فقد جاءت الآية المباركة: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ

مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، بعد ثلاث قصص:

ـ قصة الطور: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٢٤].

ـ قصة السبت: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[٢٥].

ـ قصة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ (٦٨) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[٢٦].

وهذه الأحداث والقصص الثلاث تعكس لنا صورة الميوعة في الالتزام التي ساقتهم إلى الالتفاف على الأحكام الشرعية.

إن هذه الحالة هي التي أورثتهم الجفاف الروحي وعدم القدرة للانتفاع من الرسالات السماوية.

٢ ـ نقص المواثيق الربَّانية:

لكل أمة ميثاقها وعهدها مع الله سبحانه وتعالى، فإذا حافظت ورعت الأمة ميثاقها وصانته من أيدي العابثين فهو الضمانة الأساسية لبقاء حالة التفاعل الوجداني والقلبي مع الرسالة والإفادة من نميرها العذب.

أمّا إذا نقضت عهدها مع الله، سلبها الله أعز ما تملك وهو روحها ووجدانها: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٢٧].

وقد تضمن الميثاق مجموعة كبيرة من التعاليم الاجتماعية التي تنظم حياة المجتمع بالإضافة إلى الأحكام العبادية التي ترسم الطريقة المثلى للعلاقة مع الله.

فقبل هذه الآية يذكرنا القرآن ببعض بنود الميثاق الذي انتهكوه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴾[٢٨].

وفي سورة البقرة عرضت بعض بنود هذا الميثاق: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[٢٩].

إلاّ أنهم تجاوزوا هذه الحدود ونقضوا بنود الميثاق مما أعقبهم حالة الجفاف الروحي: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٣٠].

التحولات النفسية أرضية التحولات الفكرية:

خلافا لما يتصوره البعض من إرجاع كافة التحولات والتغييرات الاجتماعية إلى الفكر والثقافة، فالقرآن الحكيم يضع أيدينا هنا على منبع آخر لحالات التحول والتغيير الاجتماعي ولا يقصرها على عامل الفكر والثقافة كمصدر وحيد.

فالتحولات الاجتماعية والفكرية التي انتابت بني إسرائيل وتنكبت بهم طريق الهدى كان منبعها جفاف الروح وموت القلب وفراغ الوجدان.

فالتحريف والتبديل والكتمان واللبس وغيرها من التحولات الثقافية والاجتماعية كان جذرها هو التحول النفسي.

فالقرآن الحكيم عندما يذكرنا بدخول بني إسرائيل في القسوة والجفاف يهدينا إلى أنّه السبب الذي ساقهم إلى التحريف والتأويل، و...: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣١)، ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٥) أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣٢].

وقد صرح القرآن الحكيم في سورة آل عمران أن حركة التأويل غالباً ما تنطلق من النفوس الضعيفة إشباعاً لرغباتهم وأهوائهم: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[٣٣].

من هنا ندرك أن التحولات الاجتماعية والثقافية التي عصفت بمجتمعاتنا ليست دائماً

منبعها القناعة الفكرية، بل هي في كثير من الأحيان مصدرها الخواء الروحي والضعف النفسي لدى الأجيال الناشئة، فعلى المهتمين بشؤون التربية والتوجيه أن يزيدوا من جرعات الروح والقلب لإحداث التوازن في نفوس أجيالنا.

سورة الجمعة ميلاد أمة، وموت أخرى

إذا صح لنا أن نصور ونشبّه، فإن سورة الجمعة قد أجرت مراسيم انتقال الشهادة والخلافة من أمة بني إسرائيل إلى الأمة الإسلامية.

وقد تم التركيز فيها على مجموعة من المحاور:

١ ـ التحولات الإيجابية الكبرى استجابت لها الأمة المسلمة وساهمت بنقلها وإخراجها من الظلمات إلى النور: ﴿ هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا من قَبْلُ لَفي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾[٣٤]. ولعل في تعبير ﴿ لَفي ضَلاَلٍ مُّبِينَ ﴾، ظلال للتحول الكبير الذي ساق هذه الأمة فأخرجها من سباتها وغفلتها لتتشرف بحمل رسالة السماء، وكان رائدها في هذا التحول هو (التزكية والتعليم والحكمة)، ولعلّ الابتداء بالتزكية إشارة إلى حجم التحولات النفسية ودورها الكبير في تأهيل الأمة لحمل رسالة السماء، وهو العنصر الذي افتقدته أمة بني إسرائيل، فعطل عندها الإفادة من رسالة السماء.

٢ ـ إنّ الرسالة فضل ورحمة، فلا مجال فيها للأنساب والألقاب والأمجاد، فالأمة التي توفر في نفسها مؤهلات الشهادة والريادة (التزكية + التعليم + الحكمة) هي وحدها المؤهلة لحمل رسالة السماء: ﴿ ذَلكَ فَضْلُ اللّه يُؤْتيه مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظيم ﴾[٣٥]. ولذا رفض القرآن كل المحاولات لتوزيع الرسالة وتقسيمها، وإنزالها على أساس الأنساب والأمجاد: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعيشَتَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ آتَاهُمُ اللّهُ من فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظيمًا ﴾[٣٧].

٣ـ كشفت السورة عن العامل الأساسي لنقل الرسالة من أمة بني إسرائيل: ﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّه وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمين ﴾[٣٨].

ويالله من تصوير رائع للحالة التي وصلت إليها أمة بني إسرائيل فأفقدتها دورها وريادتها أرأيت الحمار لو وضعت عليه أطناناً من الكتب أكان ينتفع بها، هكذا وصل الحال بهذه الأمة فلم تعد تنتفع بالرسالة الإلهية لجفاف روحها وتوقف قلبها فكان نصيبها أن

تُزْوى الرسالة عنها إلى من يتحمل مسوؤليتها وينتفع بهداها.

الأمة الإسلامية ومحاولة النكوص

حذر القرآن الحكيم الأمة الإسلامية أن تسلك مسلك أمة بني إسرائيل فتقع فريسة القسوة والجفاف الروحي فتنكص عن مبادئها وقيمها: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[٣٩] □

الهوامش:

(١) سورة البقرة، آية/٤٧.
(٢) سورة البقرة، آية/٦٥ـ٦٦.
(٣) سورة النساء، آية/١٦١.
(٤) سورة المائدة، آية/١٣.
(٥) سورة البقرة، آية/٥٧.
(٦) سورة الأعراف، آية/١٢٩.
(٧) سورة يوسف، آية/١١١.
(٨) سورة المائدة، آية/٦٦.
(٩) سورة التوبة، آية/٧٥-٧٧.
(١٠) سورة الزخرف، آية/٢٣.
(١١) سورة يونس، آية/٩٨.
(١٢) سورة البقرة، آية/٥٤.
(١٣) سورة البقرة، آية/١٠١ـ ١٠٢.
(١٤) سورة البقرة، آية/٨٨.
(١٥) سورة البقرة، آية/ ١٠٢.
(١٦) المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدى القرآن، .
(١٧) سورة المائدة، آية/٢١-٢٦.
(١٨) سورة البقرة، آية/٧٤.
(١٩) سورة الجمعة، آية/٥.
(٢٠) سورة البقرة، آية/١١١-١١٢.
(٢١) سورة آل عمران، آية/٦٥-٦٨.
(٢٢) سورة المائدة، آية/١٨.
(٢٣) سورة البقرة، آية/٨١.
(٢٤) سورة البقرة، آية/٦٣-٦٤.
(٢٥) سورة البقرة، آية/٦٥.
(٢٦) سورة البقرة، آية/٦٧-٧١.
(٢٧) سورة المائدة، آية/١٣.
(٢٨) سورة المائدة، آية/ ١٢.
(٢٩) سورة البقرة، آية/٨٤.
(٣٠) سورة البقرة، آية/٨٥.
(٣١) سورة المائدة، آية/١٣.
(٣٢) سورة البقرة، آية/٧٥-٧٦.
(٣٣) سورة آل عمران، آية/ ٧.
(٣٤) سورة الجمعة، آية/ ٢.
(٣٥) سورة الجمعة، آية/٤.
(٣٦) سورة الزخرف، آية/٣٢.
(٣٧) سورة النساء، آية/٥٤.
(٣٨) سورة الجمعة، آية/٥.
(٣٩) سورة الحديد، آية/١٦.

أوليات في فقه السنن في القرآن الحكيم*

■■ الشيخ محمد محفوظ**

المقدمة

ثمة حقيقة أساسية يبرزها النص القرآني، وهي أن الإنسان هو صانع حركة الحياة ضمن السنن الكونية والاجتماعية التي تمثل القوانين التي أودعها اللّه سبحانه في الكون وفي حركة الإنسان في المجتمع.لذلك يقول تبارك وتعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّه لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

فالإنسان يتحرك في الحياة من خلال أفكاره، وحركة الأفكار هي التي تمثل حركة الحياة، لأن حركة الحياة هي صورة ما نفكر به.لذلك كله فإن التغيير الذاتي على مستوى الطبائع والأفكار والقناعات، هو قاعدة التغيير الاجتماعي والسياسي.فقضايا الاجتماع الإنساني لا تتغير وتتحول إلا بشرط التحول الداخلي ـ الذاتي ـ النفسي.فالتعاليم القرآنية واضحة في أن لهذا الكون وحياة الإنسان سنناً وقوانين، هي التي تتحكم في مسيرة الكون، كما أنها هي القوانين المسيرة لحياة الإنسان الفرد والجماعة.

فالإنسان في المنظور القرآني، هو نفحة ربانية استحقت التكريم الذي بوأها أعلى مرتبة في الوجود.أعني الاستخلاف في الأرض بصريح الآية الكريمة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

ومن أجل ذلك استحق الإنسان التكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(٣).وحتى يحقق الإنسان وظيفته على أحسن وجه كان كل ما في الوجود مسخرا لفائدته وكان العالم مسرحا لكل

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

** مدير تحرير مجلة الكلمة.

فعالياته بصريح آيات قرآنية عديدة منها قول الباري عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٤].والكائن الإنساني في الرؤية القرآنية، له القدرة والاستطاعة على ممارسة الحرية والاختيار. بمعنى أن الفعل الإنساني ليس خاضعا لمقولات القسر والجبر كما أنه ليس بعيدا عن قوانين الله وأنظمته في الكون والمجتمع.أي أن الباري عز وجل هو خالق أفعال الإنسان، لأنه بجميع أفعاله مخلوق الله، ولكن مع ذلك له استطاعة يحدثها الله فيه مقارنة للفعل.

لذلك فإن الإنسان مكتسب لعمله، والله سبحانه خالق لكسبه.فالفعل الإنساني في مختلف دوائره ووجوده، هو خاضع لمنظومة من القيم والسنن والتي ينطلق الفعل الإنساني من خلال الالتزام بهذه المنظومة.فالإنسان ليس خالقا لأفعاله، كما أنه ليس مجبورا في أفعاله وإنما هو « لا جبر ولا تفويض وإنما هو أمر بين أمرين ».لذلك يقول تبارك وتعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٥].

وجاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَ « الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد ».فإرادة الله هي التي صنعت إرادة الإنسان.والإنسان هو الكائن الوحيد الذي اختار أن يكون قدره أكثر من إمكان واحد، وأوفر من احتمال واحد في الزمان والمكان.

في معنى السنن

وتعرف السنن بأنها مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة.وإن الدعوة القرآنية الدائمة إلى استنطاق التاريخ واستقراء الحوادث والأسباب وأخذ العبر والدروس منها، هي إشارة قرآنية واضحة إلى ضرورة استيعاب القوانين والسنن الربانية في مسيرة الأمم والمجتمعات. فالتأمل في أحوال الأمم، هو من أجل اكتشاف السنن الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٦].

وهناك إرادة ربانية متجهة إلى بيان السنن التي تحكمت في مسار الأمم عبر التاريخ إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٧].

والسنن في القرآن على نحوين: النحو الأول السنن الحتمية والجزمية، من قبيل سنة الفناء إذ قال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٨].والنحو الثاني السنن الاختيارية التي هي مرهونة بإرادة الإنسان الفرد والمجتمع من قبيل سنة التغيير والتداول والإيمان والتقوى إذ قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[٩]

كما أن سنة الاستخلاف والتمكين في الأرض منوطة بالأيمان والعمل الصالح.كما أن السقوط يبدأ حينما يتخلى المجتمع أو الأمة عن العبادة الحقة ويتجهوا إلى عبادة الأصنام والطواغيت والشهوات. وإذا استفحل الفساد واستشرى الظلم وفسق الناس عن أمر ربهم حق عليهم قول الباري ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[١٠].

فالسقوط والانكسار والهزائم هو نتاج ما تكسبه أيدي الناس إذ قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾[١١] فالظلم والطغيان وهو أحد مكاسب الإنسان السيئة، وهي سبب مباشر للهلاك والخسران والدمار. قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[١٢] وأعظم ظلم يمكن للإنسان أن يقترفه هو الشرك قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[١٣].لأنه تشويه لفطرة الإنسان وإغراقها في المعاصي والآثام وتكذيب لحقائق التوحيد.والذي يحول دون الهلاك بفعل الظلم هو الإصلاح وتوفر المصلحين في الفضاء الاجتماعي لذلك يقول تبارك وتعالى ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[١٤].

فالمجتمعات إذا نأت وابتعدت عن قيم الدين، فستفسد فساداً يقود إلى هلاكها.وهذا يعني أن المجتمعات دائما بحاجة إلى مصلحين يمارسون عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفادي الهلاك والانكسار.أما إذا غاب المصلحون عن المجتمع، فإن ذلك يوقف عملية العمران الحضاري، ويجعل المجتمع بأسره عرضة للفساد المفضي إلى الهلاك سواء كان ذلك فسادا في الطبيعة المادية أو العلاقات الإنسانية أو فيهما معا.

التحول الذاتي.. وإرادة الإنسان

إن حياة الجمود والركود والسقوط التي تعيشها المجتمعات والأمم في بعض مراحلها وحقبها، منوط بعزائم البشر وإرادة الإنسان ومشروط بالتزام هذه المجتمعات بشروط الخروج من المأزق وعوامل الانعتاق من أساس الجمود والخمود.

ففعل التغيير والتطوير دائما وفي أي تجاه وحقل كان، منوط بإرادة الإنسان، فهو الذي يقرر بقدراته وإرادته إمكانية التطوير والتغيير من عدمها.

ويشير إلى هذه الحقيقة القرآن الحكيم، إذ يقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[١٥].

فلا يمكن أن يتم التغيير الاجتماعي إلا بتغيير الذوات وتهيئتها لقبول متطلبات التطوير، وبدون تغيير النفس، تبقى شعارات التغيير ويافطات التطوير أشبه شيء بمشروعات أحلام اليقظة والآمال البعيدة.

كما أن إرادة البشر وعزائمهم، هي التي تحدد واقعية المسار التطويري والتحديثي، فلا

تطوير اجتماعي إلا بتغيير للذات. وكلما توسعت دائرة الملتزمين بمشروع التغيير الذاتي، أي تغيير ما بالنفس، كلما كان المجتمع اقرب إلى التطوير الشامل.

والدين الإسلامي لا يعالج مشاكل البشر بحلول سحرية أو طرائق إعجازية، وإنما منظور الإسلام في معالجة مشكلات البشر المختلفة، هو العناية بتهذيب النفس وتطهيرها من الرواسب والشوائب، حتى تكون مهيأة بشكل تام لعمليات التغيير والخروج من آثار المشكلات التي تؤرق الإنسان والمجتمع المسلم. لذلك نجد أن القرآن الحكيم يؤكد على إتباع العلم ومفارقة الجهل والظن وكل المفردات التي لا تؤدي إلى المعرفة والخبرة، قال تعالى ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[١٦].وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[١٧].

وذلك لأن إتباع الظن لا يؤدي إلا إلى مراكمة الأخطاء والمشاكل، وذلك بفعل البعد عن اكتشاف العوامل الحقيقية والفعلية للمشكلات الإنسانية. ولهذا قال علماء المنطق أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولا ريب أن الظنون والاحتمالات، لا تؤسس لدى الإنسان تصورا دقيقا عن طبيعة المشكلات وطرق معالجتها.

فالإنسان يصاب بالعطالة إذا كانت إرادته خائرة وعزيمته واهنة، لذلك فإن حجر الزاوية في عملية التغيير وتذليل المشكلات التي تعترض طريق الإنسان والمجتمع، هو أن تكون لدى الإنسان إرادة وعزيمة راسخة للخروج من شرنقة المشاكل وبؤر الأزمات والمآزق التي يعيشها. فتوفر الإرادة والعزيمة، من الشروط الأساسية التي يعتبرها الدين الإسلامي في معالجة مشكلات البشر.

« فالتوجيهات الإسلامية في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تطلب ـ في البدء ـ تعزيز الذات وتغييرها المتواصل إيمانيا، ثم تمضي باتجاه الأسرة الأقرب إلى الإنسان الفرد، في علاقاته الخارجية، ومن هناك تنداح الدائرة باتجاه الجار، والقربى، والحي والمدينة، فالمجتمع المسلم، فالأمة الإسلامية على امتدادها، فالشعوب والأمم المجاورة، فالإنسانية جمعاء.

إن بؤرة الحركة، هي الذات: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[١٨] وحدها الأخر، هو البشرية ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[١٩].

وما بين الذات والبشرية، تتحرك المعطيات الإسلامية، تشريعا وتوجيها، لكي ترسم لكل حالة طريقها، وتضع كل ممارسة في مكانها الموزون ولكي ما يلبث هذا الجهد الديناميكي، الذي لا يقف عند حد أن يساهم في صياغة الحياة الإسلامية المتوازنة المستقيمة، الآمنة، السعيدة، القديرة على العطاء وبقطبيها الفرد المسلم والمجتمع المسلم »[٢٠].

فالخطوة الأولى التي ينبغي أن نقوم بها إزاء كل ظاهرة ومشكلة هي البحث والفحص الجاد عن الأسباب الذاتية التي أدت إلى هذه الظاهرة أو المشكلة، فلا بد أن نوجه الاتهام أولا إلى أنفسنا، قبل أن نوجهه إلى غيرنا.

وهذه المنهجية تلخصها الآية القرآنية ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فإزاء كل هزيمة، إزاء كل مرض وظاهرة سيئة، كل مصيبة على رؤوسنا، ينبغي أن نلتفت قبل كل شيء إلى نصيبنا، إلى دورنا، إلى ما كسبته أيدينا.

إن واقع العرب والمسلمين الراهن هو أسوأ واقع، والانهيار في حياتهم يهدد وجودهم نفسه ولكن؟ أين يمكن أن يقف هذا الانهيار، ويبدأ التحول؟ جوابنا الحاسم؟ في أنفسنا، يجب أن يقف في أنفسنا الانهيار، ويبدأ في أنفسنا التحول فإذا تحولنا إلى مسلمين حقيقيين كما يريد الإسلام، تحول بنا مجتمعنا وتحول بنا المسلمون في كل مكان وتحول بنا العالم. فالنواة الأولى للتطور النوعي في المجال العربي والإسلامي اليوم، هي في تغيير الذات وإزالة رواسب التخلف والانحطاط منها، إن تغيير ما بالنفس، هو النواة الأولى لعمليات التطور النوعي وإحداث نقلة عميقة في نمط تعاملنا مع واقعنا ومحيطنا.

فالتحولات الاجتماعية والحضارية في أي مجتمع وأمة، لا تنجز إلا على قاعدة تغيير ذاتي عميق، يزيل ركام الانحطاط، ويهيئ النفوس والعقول لاحتضان وممارسة متطلبات التحولات الاجتماعية والحضارية المطلوبة.

وعلى قاعدة التغيير الذاتي المستديم، تأتي أهمية الإرادة الإنسانية التي هي وسيلة الانتقال من الوعد إلى الإنجاز ومن القول إلى الفعل.

والإرادة هنا تعني وبكل بساطة: أن تطور الشعوب والأمم لا يقوم به الغير، وإنما كسب الأمة ذاتها، هو الذي يحقق التطور، فعمل الأمة وسعيها المتواصل، وجهدها المستديم وتصميمها القوي، وإيمانها العميق بمسارها الحضاري وتضحياتها في هذا السبيل، كل هذا هو الذي يصنع التطور والتقدم.

فإرادة الإنسان هي الفيصل وهي محل المراهنة الحقيقية على مشروعات التقدم والتطور.

فلنغير ذواتنا، ونغذي هذا التغيير، بإرادة إنسانية تأخذ على عاتقها إنجاز التطلعات وتحقيق الطموحات.

وسنبقى بعيدا عن كل إنجاز اجتماعي وحضاري مادامت قيم التخلف وتصورات الانحطاط تتحكم في عقولنا ومسارنا العام.

فلكي نتقدم، نحن بحاجة إلى تغيير نفوسنا وتنقية عقولنا من ركام التخلف والانحطاط، وإرادة إنسانية تأخذ على عاتقها بالنفس الجديدة والعقل الجديد صنع وقائع الحياة المعاصرة.

ودائما التقدم الإنساني والتطور الحضاري، بحاجة إلى إرادة إنسانية صلبة، تأخذ على عاتقها ترجمة الآمال، وإنجاز الوعود، وخلق الوقائع والحقائق المفضية إلى التقدم بكل صوره وأشكاله.

وينبغي أن ندرك في هذا المجال، أن استعارة سلع التقدم والتطور، لا يفضي إلى المفهوم الحقيقي للتقدم الحضاري، وإنما يؤدي إلى حالة من التجاور العجائبي والتعايش المتغاير بين سلع التقدم ومنجزات التطور وممارسة إنسانية لا ترقي إلى المستوى المطلوب في التعامل مع منجزات العصر الحديث.

إن بوابة التقدم الحقيقي، هي تغيير الذات المصحوب بإرادة إنسانية تحيل الطموحات إلى حقائق، والآمال إلى وقائع، والأرض اليابسة إلى أرض خصبة خضراء، تثمر كل الخير والإنجاز إلى الإنسان حاضرا ومستقبلا.

حاجتنا إلى فقه السنن

ثمة دوافع وحوافز عديدة، تدفعنا إلى القول أن المجال العربي والإسلامي اليوم هو أحوج ما يكون إلى الفكر السنني والثقافة التي تستند في مشروعاتها وخططها و مآلاتها إلى نواميس الكون والحياة الاجتماعية العامة.

إذ إن التحولات الهائلة التي تجري في العالم اليوم،وعلى مختلف الصعد والمستويات،لا يمكن فهمها والإمساك بناصيتها والتحكم في مسارها ومآلاتها، بدون فكر يستند إلى نواميس التطور الإنساني، ويتناغم وقوانين الرقي والتقدم. وذلك لأن فقدان الفكر السنني (وهو جملة القوانين والنواميس التي يسير وفقها الوجود الإنساني قاطبة)، وعدم إدراك قوانين التطور الإنساني، يؤدي إلى لهاث فوضوي وأبله إلى التحولات والمتغيرات الإنسانية الخاصة والعامة دون القدرة على التحكم في مسارها ومصيرها.

بينما الفكر السنني، يوفر القدرة المناسبة للتحكم في مسار تطورات الحياة وتحولاتها المستمرة.

لذلك نجد أن الذكر الحكيم مليء بتلك الآيات التي توضح جملة السنن الكلية والجزئية، التي تتحكم في مسار الإنسان والمجتمع والحضارة، فيقول تبارك وتعالى..﴿ يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢١].

فهذه الآية الكريمة توضح أن مصدر نواميس الكون وسنن الاجتماع الإنساني هو الله سبحانه وتعالى. ويقول عز من قائل: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٢٢].

فهذه الآية توضح سنة أساسية من سنن التطور والتقدم، وهي أن شرط التقدم، هو إحداث تغيير جذري في نفس الإنسان وعقليته، حتى يتسنى له إنجاز تقدمه وتطوره، وبدون التغيير الذاتي أو تغيير ما بالنفس، لن يتحقق تقدما وتطورا، حتى لو امتلكنا عن طريق الاستيراد كل أشكال التقدم وسلع التطور المادية والاستهلاكية.

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[٢٣].

فبناء القوة الذاتية على المستوى الحضاري، هو الكفيل للانعتاق من ضغوط الأعداء. فالإنجاز الحضاري لا يستجدى ولا يستعار ولا يستورد، وإنما هو وليد قوتنا الحضارية. فمتى ما حقق المجتمع في ذاته وعلى مختلف المستويات مفهوم القوة الحضارية، فإنه يحقق منجزاته الحضارية، فبمقدار بناء القوة، يكون الإنجاز ويتحقق التقدم.

فالحضارات (كسنة ثابتة) على مر العصور والدهور، لا تبنى بأيدي الغير وعقولهم، وإنما تبنى حينما يبني الإنسان والمجتمع قوتهم العلمية والعملية والمادية، التي تحدث تحولا نوعيا في مسيرتهما. هذا التحول النوعي يجعلهما جديرين بالبناء والتفوق الحضاري. وفي مقابل سنن الصعود والتفوق الإنساني، نجد أن القرآن الحكيم، يوضح أيضا سنن الانحدار والتراجع والتقهقر الحضاري. فالظلم والترف والفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والخروج من دائرة العبادة الربانية، كلها عوامل وأسباب تؤدي إلى السقوط والانحدار. يقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾(٢٤).

فالمجتمع الناجح هو الذي يطرد من واقعه عوامل الانحدار والسقوط، ويعمق ويجذر في واقعه سنن الصعود والارتقاء.

ولا بد من القول في هذا الصدد. أن سنن التطور الإنساني، سنن حيادية، بمعنى أن المرء مهما كان جنسه أو لونه أو عرقه أو دينه أو ميوله، إذا لم يوفر في واقعه ومحيطه عوامل التقدم وأسباب التطور والنهضة، فإن مآله هو التأخر والتخلف، وذلك لأن سنن التطور والتغيير لا تحابي أحدا، ولا تعرف إلا من يلتزم بها.

ولقد اهتم علماء الأمة ومفكروها بسنن الكون والاجتماع، وأبدعوا في بيان موقع السنن وإرادة الإنسان وحريته، ودوره تجاه النواميس، وكان لابن خلدون (١٤٠٥م) دورٌ في بلورة فقه سنن العمران والحضارة في كتابه (المقدمة) الذي يزخر بالعديد من الأمور والقضايا التي يمكن أن نصطلح عليها قوانين التقدم و العمران الحضاري.

ومن المفكرين المعاصرين الذي اهتموا بهذه المسألة (مالك بن نبي) (ت ١٩٧٣م) الذي وضح أن الحضارة تمر بثلاث مراحل:

مرحلة الروح، وهي المرحلة التي تبزغ فيها الفكرة الدينية التي تبعث الروح في الإنسان والتراب والزمن. ثم مرحلة العقل، وهي المرحلة التي تتفجر فيها طاقات الأمة الفكرية والعملية والحضارية وهي مرحلة الازدهار، ثم مرحلة الغريزة وهي المرحلة التي تطلق فيها الشهوات والأهواء والنزوات من عقالها فيطغى عالم الأشياء في المجتمع ويضمحل عالم الأفكار.

وكذلك من المعاصرين الذين اهتموا بهذه المسألة (آية الله الشهيد محمد باقر الصدر) (ت ١٩٨٠م) وقد ألف في هذا الشأن كتابا سماه (السنن التاريخية في القرآن) وأكد في هذا الكتاب على ثلاث حقائق أساسية مرتبطة بسنن التاريخ: الاطراد، بمعنى أن السنة التاريخية مطردة، فهي ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي.

وربانية السنة التاريخية وارتباطها بالله سبحانه، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ، هو قانون رباني. وهذا الارتباط يستهدف ربط الإنسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون بالله سبحانه، وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في

هذه الساحات، ليس انعزالا عن الله سبحانه، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن، فهي إرادة الله وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون.

والحقيقة الثالثة، هي حقيقة اختيار الإنسان وإرادته وإلا لا تعارض بين حرية الإنسان واختياره وبين سنن التاريخ.

فالساحة العربية والإسلامية اليوم، هي بحاجة قصوى إلى ذلك النتاج الفكري والثقافي، الذي يبلور سنن التطور والتقدم، وأسباب الصعود والارتقاء، حتى تكون جميع الجهود والطاقات في إطار سياق منسجم ومتناغم وسنن العمران الحضاري، ونطرد من واقعنا العربي والإسلامي، كل الأوهام والعوامل الذاتية، التي تحول دون التقدم والتطور.

فلا تقدم حقيقي إلا بسنن وقوانين التطور، والخطيئةُ الكبرى حينما نبحث عن تقدمنا وتطورنا بعيدا عن نواميس الكون في هذا المجال. وحتى يسود الفكر السنني الذي يلحظ قوانين التغير والتطور، ويجعل مناشطه وأعماله منسجمة وتلك القوانين للواقع العربي والإسلامي من الأهمية بمكان التأكيد على النقاط التالية:

١ - التفكير المتواصل والتأمل الجاد في الكتاب المقروء وهو القرآن الحكيم، الذي يتضمن ثروات معرفية هائلة، ويختزن في مفرداته وآياته نواميس الكون وقوانينه الكلية والجزئية.

وكذلك التأمل في كتاب الكون المسطور، والتفكير في الآفاق والأنفس، لما لهذا التفكير والتأمل الجاد من دور أساسي في إرساء دعائم الفكر والثقافة السننية في المجال العربي والإسلامي.

ولا بد في هذا الإطار من القول: إننا ينبغي إلا نمر مرور الكرام على تطورات الحياة وظواهر الكون والتاريخ، وإنما نحن بحاجة أن ندرسها بعمق، حتى نتمكن من استيعاب دروسها وعبرها، واكتشاف قوانين الفعل الإنساني الناجح والخالد.

ودون ذلك ستتحول متغيرات الحياة إلى عبئ حقيقي يزيد من ترددنا وضياعنا المعرفي والثقافي، ويعمق في واقعنا كل معوقات التطور وكوابح الرقي، وعوامل الارتكاس الحضاري. فالقراءة الواعية والتأمل الجاد، والتفكير الحيوي في كتاب الله عز وجل وكتاب الكون (الآفاق والأنفس) من العوامل الأساسية، التي تساهم في نمو فكر السنن الحضارية، وثقافة العمل على قاعدة فهم وإدراك متطلبات نواميس التطور والتقدم.

٢ - إن فقه سنن التطور الحضاري، لا يتأتى دفعة واحدة، وإنما هو بحاجة إلى تراكم في المعرفة والخبرة، وقراءة مستديمة وواعية في تحولات الحياة، ويقظة متواصلة، كلها عوامل تساهم في فقه السنن الحضارية، وقوانين التطور الاجتماعي.

وفي المقابل فإن الغفلة وغياب المسؤولية، وتدني مستوى العلم والمعرفة والوعي، وضعف مستوى قراءة تحولات الحياة، كلها أسباب تبعدنا عن فهم سنن العمران الحضاري.

لذلك فإن طريق فقه سنن التقدم الإنساني، يمر عبر تراكم المعرفة وقراءة مستديمة وواعية لتحولات الحياة، ويقظة متواصلة تبدد الغبش في الرؤية.. ودون ذلك فإننا لن

نستطيع فهم وفقه العمران الحضاري.

٣ - إن الإرادة الإنسانية، والسعي البشري المتواصل، جزء أساسي من قوانين التطور الحضاري، إذ لا ينفع أن ندرك نواميس التطور، وإنما من الضروري أن نسند هذا الفهم والإدراك، بإرادة إنسانية، وسعي بشري متواصل، يتجه إلى تحويل هذه القوانين والأطر النظرية، إلى حقائق ووقائع في حياة الفرد والمجتمع.

وبدون ذلك سيبقى فهم سنن الصعود الحضاري مجردا وبعيدا عن حقائق الواقع.

نتائج أخيرة

وجماع القول: أن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تجري في مجالنا الإسلامي اليوم، ليست وليدة الصدفة أو بدون مقدمات أفضت إليها.. إننا نعتقد أن هذه التحولات في كل دوائرها ومستوياتها، هي نتاج جملة من العوامل والأسباب ولا يمكن فهم حقيقة هذه التحولات والتطورات إلا بإدراك أسبابها وعواملها التي أنتجتها وخلقتها. والفكر السنني هو ذلك الفكر الذي لا يتعامل مع الظواهر المجتمعية والتحولات الإنسانية بعيدا عن أسبابها الخاصة والعامة.

لذلك فإن فهم البيئة والمناخ الذي احتضن هذه التحولات، يساهم في خلق المعرفة العميقة بهذه التحولات واستيعاب حركة اتجاهاتها، وإدراك عوامل خلقها ووجودها. والإرادة التي هي سنة من سنن الله في الإنسان، هي التي تحدد قدرتنا على فهم التحولات والاستفادة منها على نحو إيجابي في حياتنا الخاصة والعامة.

والإنسان هو الذي يصنع قدره ومصيره، فحينما لا يأخذ أسباب النصر يصنع لنفسه الهزيمة، ويصنع انتصاراته عندما يقبض على أسباب النصر. فحركة الكون والإنسان خاضعة لسنة الله تعالى التي تربط الأشياء بأسبابها. وعلى ضوء ما ذكر أعلاه، نصل إلى الحقائق والنتائج التالية:

١ - إن التحولات الاجتماعية والثقافية والسياسية، ليست وليدة الصدفة، وإنما هي نتاج لشبكة معقدة ومتداخلة من الأسباب والعوامل، ولا يمكن فهم حقيقة واتجاهات هذه التحولات، إلا بمعرفة أسبابها وشروطها الخاصة والعامة.. والفكر السنني الذي نطالب أن يسود واقعنا الاجتماعي والثقافي، هو الذي يتجه إلى ربط النتائج بأسبابها، ويعمل على تجلية الظواهر المجتمعية في إطار سياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية.

وهذا بطبيعة الحال، يتطلب شهودا وحضورا دائما في الواقع، ويقظة مستديمة تتجه إلى القبض على الحقائق وإدراك التحولات وهي في المهد. لذلك نجد التوجيهات الإسلامية تؤكد على أهمية معرفة الزمان وأهله واليقظة الدائمة وعدم الغفلة.. فقد جاء في الحديث الشريف أن « العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس »[٢٥].

وفي غرر الحكم أن « أعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثه ».

٢ - إن الإرادة الإنسانية لا تتحرك بعيدا عن سنن الله في الكون والمجتمع، بل هي

تتحرك في فضاء السنن والنواميس الربانية. وتعمل على توفير الشروط الذاتية والموضوعية لعمل السنن في الاجتماع الإنساني. لذلك فالعلاقة جد عميقة بين سنن الله في حياة الإنسان والإرادة الإنسانية. وإن هذه العلاقة تتجلى في أن الإرادة الإنسانية تتجه إلى توفير المناخ والشروط والظروف المطلوبة لعمل السنن في الاجتماع الإنساني.

فالعديد من السنن الربانية في الواقع الإنساني منوطة ومرهونة (على مستوى العمل والتأثير) بالإرادة الإنسانية. بمعنى أن عمل هذه السنن يتطلب فعل الإرادة الإنسانية الذي يتجه إلى القبض على الأسباب والعوامل المفضية إلى عمل وتأثير هذه السنن.

٣ - إن استيعاب التحولات وإدراك اتجاهاتها، يتطلب التواصل مع الواقع. وذلك لأن الفكر الذي لا يتواصل مع نبضات واقعه، ويستجيب لمتطلبات الراهن، ويتناغم وحقائق التاريخ والكون، فإن مآله الانزواء والتخلف عن ركب الحضارة والعصر. ففي مناخات التواصل مع العصر، يستطيع فكرنا أن يبلور أجوبته ومواقفه وآماله ومطامحه الحضارية.

فالمطلوب على مستوى الفكر والممارسة، الانخراط النقدي في شؤون العصر وقضاياه الكبرى والمصيرية، وذلك حتى يتسنى للإنسان المسلم استيعاب علوم وقضايا عصره بمنظور نقدي، ليوفر له المساحة المطلوبة للاستيعاب والتجاوز، للفهم والنقد، للمساءلة والمشاركة □

الهوامش:

(١) القرآن الحكيم، سورة الأنفال ٥٣.
(٢) القرآن الحكيم، سورة البقرة ٣٠.
(٣) القرآن الحكيم، سورة الإسراء ٧٠.
(٤) القرآن الحكيم، سورة الحج ٦٥.
(٥) القرآن الحكيم، سورة القصص ٦٨.
(٦) القرآن الحكيم، سورة آل عمران ١٣٧.
(٧) القرآن الحكيم، سورة النساء ٢٦.
(٨) القرآن الحكيم، سورة الرحمن ٢٦.
(٩) القرآن الحكيم، سورة الأعراف ٩٦.
(١٠) القرآن الحكيم، سورة الإسراء ١٦.
(١١) القرآن الحكيم، سورة الشورى ٣٠.
(١٢) القرآن الحكيم، سورة القصص ٥٩.
(١٣) القرآن الحكيم، سورة لقمان ١٣.
(١٤) القرآن الحكيم، سورة هود ١١٦- ١١٧.
(١٥) القرآن الحكيم، سورة الرعد ١١.
(١٦) القرآن الحكيم، سورة الإسراء ٣٦.
(١٧) القرآن الحكيم، سورة النجم ٢٨.
(١٨) القرآن الحكيم، سورة الأنفال ٥٣.
(١٩) القرآن الحكيم، سورة الأنبياء ١٠٧.
(٢٠) الدكتور عماد الدين خليل، رؤية إسلامية في قضايا إسلامية معاصرة - ص ٥٥، كتاب الأمة، العدد ٤٥ - السنة الخامسة عشرة، محرم ١٤١٦هـ..
(٢١) القرآن الحكيم، سورة النساء ٢٦.
(٢٢) القرآن الحكيم، سورة الرعد ١١.
(٢٣) القرآن الحكيم، سورة الأنفال ٦٠.
(٢٤) القرآن الحكيم، سورة القصص ٥٩.
(٢٥) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ - ص ٢٦٩- دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، لبنان ١٩٨٣م.

القيم والتحولات الاجتماعية في القرآن الكريم*

■■ الشيخ زكريا داوود

يمثل القرآن الكريم منبع الحكم والقيم والمعارف وهو الذي أسس حضارة وحدد لها مصدر المعرفة لما كان وما سوف يكون وما هو مؤمل أن يكون، فالقرآن كنص موحى للرسول ﷺ، كان المحرك لمسيرة المجتمع الإسلامي في أبعاده القيمية والثقافية والسياسية والاجتماعية، فقد كانت معرفة النص وتفسيره تنتج وعياً للجماعة وللفرد، للجماعة لتتحرك نحو تفعيل قيم الشهود، وللفرد لأداء دوره في تحقيق المسؤولية.

إن كل قيم التغيير والتجديد في تاريخنا كانت تتخذ من القرآن منطلقاً، وقد تكون بعض دعوات التجديد الفكري والاجتماعي أصابت بعض الهدف، أو أخطأته، لكن الرغبة كانت قوية في جعل القرآن وعياً متجدداً مع الزمن من خلال استحضار بصائره وما يهدي إليه.

ونحن هنا نسعى كي نتوصل لوعي قرآني للتحولات الاجتماعية كما يرسمها القرآن، ومن مناهج قراءة القضايا على ضوء القرآن هو ما يطلق عليه المنهج الموضوعي في قراءة المجتمع، ولا يعني ذلك التنكر للمناهج الأخرى، لأننا نعتبر المنهج الموضوعي في قراءة النص القرآني منهجاً توظيفياً أي أنه يقرأ النص من خلال الضرورة الواقعية عبر استخدام أدوات المنهج اللغوي والتاريخي والفقهي والعقلي، فهو منهج يوظف كل الأدوات المعرفية من أجل الحصول على نتيجة أقرب لأهداف النص ولمبتغاه.

التحول في القرآن الكريم

التحول في القرآن الكريم ليس ظاهرة استثنائية، بل هو قانون ثابت يجري في كل زمن ومكان، فالكون يجري وفق قانون التغير والتحول، فليس ثمة غير الله في الحياة من لا يحكمه

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

هذا القانون ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[١]، والتحول كمفهوم هو سنة عامة تجري في خلق الله، والقرآن عندما يتحدث عن التحول يلفت الأنظار والعقول إلى كونه دليلاً على القدرة والعظمة الإلهية، لأن التحول دليل على تكاملية نظام الخلق، وعلى حكمة الخالق.

يقول تعالى وهو يصف التحول الذي يحدث في السماوات والأرض: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢]، وفي آية أخرى عندما يتحدث عن مدى التحول ومنتهاه، وما هو الزمن الذي فيه يتوقف التحول؟ فإن القرآن الكريم يعتبره أمراً مستمراً إلى يوم القيامة، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[٣]، وكذا عندما يتحدث عن التحول الذي يقع على الإنسان، فإن هذا التحول لا يتوقف حتى يصل الإنسان إلى نهاية العمر، وفي سورة الحج يتحدث ربنا عن التحولات التي يمر بها الإنسان منذ البدء وإلى المنتهى ويعتبر التحول هنا دليلاً على القدرة والعظمة والبعث فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٤].

وفي آيات عديدة يلفت الله الإنسان إلى سنة التحول والتغير، وأنها جارية في كل الخلق دون استثناء، وقد يستطيع الإنسان أن يرى التغير الحادث في الطبيعة في بعض جوانبها، وقد لا يراه في كثير من الجوانب، لكن عدم الرؤية ليس دليلاً على العدم، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[٥].

وعندما يتحدث عن مسيرة الإنسان وحركته في الحياة، فإن قانون التغير والتبدل يتحكم في هذه المسيرة بدرجة يستحيل الانفكاك عنها، فتارة يتحدث عن المفهوم العام للتحول فيقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ ﴾[٦]، وعندما يتحدث عن تفصيل لسنة التحول في المجتمعات يقول: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[٧]، وعندما يتعرض المفسرون لهذه الآية كصاحب تفسير الأمثل يقول: « يشير الله سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية وهي أنه قد تحدث في حياة البشر حوادث حلوة أو مرة لكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقاً، فالانتصارات والهزائم والغالبية والمغلوبية، والقوة والضعف كل ذلك يتغير ويتحول وكل ذلك يزول ويتبدل فلا ثبات ولا دوام لشيء منها »[٨]، ولكي تصبح هذه السنة والقانون واضحاً في عقلية المؤمنين والناس عامة يأمرنا الله سبحانه بدراسة حياة الأمم والتمعن في الحوادث الماضية فيقول: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٩]، ومما يلفت النظر هنا هو التعبير القرآني بفعل الأمر سيروا والسير كمفهوم واقعي يدل بحد ذاته على التحول، فالسير هو تحول من مرحلة إلى أخرى، وقد ورد الأمر بالسير في القرآن الكريم ٧ مرات، كل ذلك لمعرفة سنة التغير والتحول في الحياة، وحتى يأخذ الإنسان العبرة ويبني حياته وفقاً لهذه السنة.

مفهوم التحول:

من خلال هذا العرض الموجز للآيات التي تحدثت عن التحول كسنة من السنن الإلهية، يمكننا أن نخلص إلى تعريف وتوضيح لهذا المفهوم وهو: كل تبدل يحدث في الأبنية الاجتماعية في الوظائف والقيم والأدوار والمواقع الاجتماعية في فترة محددة من الزمن إذا قيس التبدل بما قبله، وقد يكون التحول عاماً يشمل كل الشرائح والوظائف والقيم والأدوار والمواقع، وقد يكون تحولاً محدوداً بقسم منها، ويمكن أن يكون التحول ايجابياً وقد يكون سلبياً.

صفات التحول الاجتماعي:

تسير الحياة في كل جوانبها وفق قوانين تنظم حركة وصيرورة الأشياء، والتبدل رغم كونه سنة عامة إلا أنه يحدث عبر ذات القانون العام، ويختلف التحول في الطبيعة المادية عنه في المجتمعات الإنسانية، ففي الطبيعة قد تفقد بعض العناصر التي لا تنفك عنها التحولات في المجتمعات البشرية، ويمكننا من خلال الآيات القرآنية أن نحدد الصفات التي تحدد التحولات الاجتماعية بما يلي:

الصفة الأولى: عمومية التحول:

يتسم التحول الاجتماعي بصفة العمومية، فلا يمكن توصيف تحول بكونه اجتماعي لكونه يطال بعض أفراد المجتمع، فالتحول هو ظاهرة عامة تطال أفرد كثيرين، مما يودي بالتالي إلى تغيرات في السلوكيات وفي القيم وفي المواقع، فالسنن الاجتماعية تجري على الجميع من دون استثناء، فـ(الابتلاء) و(المحن) و(التمحيص) و(الاستدراج) و(الإملاء) و(الاستبدال) و(العذاب) و(بعثة الرسل) و(بسط الرزق) و(التقدير) و(الخصب) و(الجدب) و(التأييد) و(الخذلان) و(النعمة) و(الحرمان)، وغيرها من السنن الإلهية عندما تتحقق شروط حدوثها في المجتمع فهي تطال الجميع، فالابتلاء والفتنة سنة عامة جارية في جميع الخلق دون تحيز أو استثناء، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين ﴾[١٠]، والتمحيص سنة عامة تجري على الجميع كي يتميز الصالح من غيره والخبيث من الطيب، وحتى تتحقق حرية الإنسان وتتجلى في اختياراته قال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[١١].

الحرمان كسنة اجتماعية عند تحقق شروطها تصيب الجميع، وهي عامة من حيث الزمن ومن حيث وقوعها على المجتمع كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾[١٢]، وفي روايات أهل البيت عليهم السلام توضيح لهذه السنة وكونها عامة، فعن محمد بن الحسن بن ميمون أنه قال: كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أشكو إليه الفقر ثم قلت في نفسي أليس أبو عبدالله عليه السلام قال: « الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، والقتل معنا

خير من الحياة مع عدونا، فرجع الجواب: إن الله عز وجل يمحص أولياءنا إذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر وقد يعفو عن كثير، وهو كما حدثك نفسك الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، ونحن كهف من التجأ إلينا ونور من استضاء بنا، وعصمة لمن اعتصم بنا، ومن أحبنا كان معنا في السنام الأعلى ومن انحرف عنا فإلى النار »[١٣] وإذا كانت السنة تتصف بالعمومية فلا يعني ذلك تشابه الاستجابة لها عند الأفراد والمجتمعات، بل تختلف المواقف والآراء تجاه جريان أي سنة إجتماعية، كما في قوله تعالى عند بعث نبي الله شعيب لقومه: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾[١٤]، وهنا تتم عملية تداخل السنن الاجتماعية حيث أن الإيمان من هذا الطرف والكفر من الطرف الآخر يفعل سنة اجتماعية أخرى وهي سنة التدافع بين المؤمنين والكافرين ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ من قَوْمه لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ من قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في ملَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾[١٥].

الصفة الثانية: استمرار السنة في الزمان وعدم توقفها:

سنن الله في خلقه ليست ظاهرة عابرة، بل قانون ثابت ودائم، وهذه الديمومة تؤهل الإنسان وتحثه على التكيف مع حركة التحولات الاجتماعية، فبدون الثبات في السنن لا يمكن للإنسان أن يستوعب ويعي التحول، وعندها لا يكون قادراً على تطوير سلوكه ومجمل حياته، لأن التقدم والتطور ناتج وعي السنن وتوظيفها ايجابياً في تصحيح الحياة الاجتماعية، والقرآن المجيد لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي دايناميي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار[١٦]، والآيات التالية تلقي الضوء على هذه الصفة.

﴿ سُنَّةَ الله في الَّذينَ خَلَوْا من قَبْلُ وَلَن تَجدَ لسُنَّة الله تَبْديلاً ﴾[١٧].

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِين فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾[١٨].

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِين أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾[١٩].

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ من قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لسُنَّة الله تَبْدِيلاً ﴾[٢٠].

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ منَ رُّسُلنَا وَلاَ تَجِدُ لسُنَّتنَا تَحْوِيلاً ﴾[٢١].

ويفسر المرجع المدرسي (دام ظله) هذه الآية بقوله: « سنة الله لن تتغير حتى يوم القيامة، فهذه من الحتميات الإلهية، والتحويل هو تحويل الشيء إلى غيره، وسنة الله المتمثلة بنصر الرسل، سنة أبدية محتومة، كما أن الظروف الطبيعية تحتمها، لأن الكفر يسير ضد التيار العام للطبيعة، بينما تنتصر رسالات الله، لأنها تتحرك باتجاه التيار الطبيعي للحياة،

كما أنها تتوافق مع الفطرة »[٢٢].

وأما الروايات التي تحدثت عن جريان السنن في هذه الأمة كما جرت في الأمم السابقة فهي عديدة، فعن رسول الله ﷺ: لتركبن سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، ولا تخطئون طريقتهم شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع، حتى أن لو كان من قبلكم دخل جحر ضب لدخلتموه قالوا: اليهود والنصارى تعني يا رسول الله؟

قال: فمن أعني لينقض عرى الإسلام عروة عروة فيكون أول ما تنقضون من دينكم الإمامة[٢٣].

الصفة الثالثة: إنسانية سنن التحول والتبدل والتغير:

التحول والتغير سنة مطردة في الحياة ولا تنفك الموجودات بأنواعها من صفات التحول، لكن الأمر الفارق بين التحول الاجتماعي وما يحدث في الطبيعة، أن الأول يحدث فيه التحول بصورة إرادية وواعية، أما التحول في الطبيعة والجمادات فإنه يحدث بشكل قسري وجبري، وهنا يحقق الإنسان سبقاً على ما لا يعقل، وهنا يتحقق التمايز بينه وبين غيره، ويمثل التحول نحو الأفضل والأحسن قانوناً أساسياً من قوانين الكون، وغريزة ثابتة في فطرة الإنسان، فالإنسان بفطرته لا يرغب أن يتساوى يوماه، بل إنه في حالة بحث دائم عن التكامل والتقدم نحو الأفضل.

وهذا الإحساس عند الإنسان هو من العوامل الأساسية التي تحرك عجلة التاريخ[٢٤] وتشجع نحو التغيير الاجتماعي، فالتغيير في المجتمع هو فعل الإنسان من خلال تحقيق إرادته، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٢٥]، ﴿ وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾[٢٦]، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[٢٧]، « فهذه السنن التي ذكرتها النصوص القرآنية واضحة أنها تتحقق بفعل إرادة الإنسان، وليست سنناً قسرية جبرية، كالإحراق بالنسبة للنار، فهنا مواقف ايجابية للإنسان تمثل حريته واختياره وتصميمه وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، جزاءاتها المناسبة، وتستتبع معلولاتها المناسبة »[٢٨].

وتنعكس النزعة الإنسانية للتحول الاجتماعي في أشكال وصور يتمظهر بها، ويمكن أن نوجز تلك الصور والأشكال في التالي:

١ - التحول في القيم الاجتماعية:

تلك القيم التي تؤثر بطريقة مباشرة في مضمون الأدوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي، حيث أن لكل مجتمع نمطان من القيم:

الأولى: الأهداف العليا: وهي قيم إنسانية ثابتة ومطلقة.

الثانية: تتصل بظروف هذا المجتمع والمتغيرات التي تطرأ عليه، وهما معاً يشكلان روح المجتمع[٢٩].

٢ - التحول في محتوى النظام الاجتماعي:

النظم والأبنية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي قد تكون عرضة للتغير، وذلك لأنها بالأساس صناعة الإنسان، كأن يتحول المجتمع من الديكتاتورية إلى الديمقراطية والشورى، ومن الملكية العامة إلى المؤسسات والشركات الخاصة، وبالطبع مثل التغير في النظام الذي يحكم جماعة ما يؤدي إلى تغير في المراكز والمواقع للعديد من الأفراد، ويمكن توصيف هذا التحول بكونه تقدم أو تطور في بنى هذا النظام الاجتماعي، كما حدث في مجتمع المدينة المنورة في بداية الهجرة النبوية، ففي سورة المنافقون يتحدث ربنا عن رؤية المنافقين للتحول الاجتماعي ويرد زعمهم أنهم لا زال بإمكانهم ممارسة أدوارهم ونفوذهم في هذا المجتمع الذي تحولت النظم والأبنية فيه نحو تحقيق سيادة قيم أخرى، هي قيم الإسلام: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٣٠].

٣ - التحول في مواقع أفراد المجتمع:

وقد يحدث التحول في مراكز الأشخاص في المجتمع بصورة طبيعية، ويجري ضمن سنة التغير الجبرية، فلا يملك الإنسان الإرادة في التغيير، ولا يمكنه الوقوف في وجه هذا التحول، كأن يكون تغير المواقع في المجتمع بفعل الوفاة والموت، فهي سنة طبيعية و لا يملك الإنسان حرية الاختيار حيالها، ﴿ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٣١]، وقد يحدث التحول في المراكز الاجتماعية والأدوار نتيجة إرادة الإنسان وفعله، وأبرز أمثلته هو ما تحدثه المجتمعات الديمقراطية، التي يسودها نظام التمثيل الانتخابي، فيذهب رئيس ويأتي آخر، وتتسلسل عملية التغيير والتحول في المواقع من القمة للقاعدة، وكما يحدث في المجتمعات التي تنتصر فيها رسالة السماء كما لا حظنا ذلك في مجتمع المدينة المنورة في بداية الهجرة النبوية.

قيم التحول بين النهضة والسقوط:

التحول كما ذكرنا تارة يأخذ شكل التطور والتقدم، أي التبدل للأفضل والأحسن، وتارة أخرى يأخذ شكلاً تراجعياً أي نحو الأسوأ، ويمكن تسمية التحول نحو الأفضل أنه تقدم وتطور وتكامل، كأن يتحول المجتمع من نظم وقيم الاستبداد إلى مناخات الحرية والديمقراطية وممارسة حق التعبير من خلال تعديل النظم والقيم والقوانين، والعكس كذلك فالتحول نحو الديكتاتورية والاستبداد هو تحول نحو الأسوأ، ويمكننا تسمية هذا بالتخلف وهو يستبطن الوقوف أو السير خلاف السنة، لأن سنن الله الجارية في المجتمع تحثه على التطوير والتكامل لأنها الفطرة التي جبل عليها الإنسان، فالله يريد الكمال ويدعونا إليه، فالإسلام الدين الكامل، ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، يطلب منا الرقي لمستواه في تفكيرنا وسلوكنا، حتى يمكننا أن نحقق معنى تكامليته في حياتنا، لأن تكامل الدين في القيم والنظم والأحكام يشكل حافزاً قوياً نحو تحقيق هذه التكاملية في

حياتنا كبشر، فبقدر ما نحقق من تلك القيم في ذواتنا نصل للكمال، وبالعكس، بقدر ما نخالف تلك القيم والنظم والأحكام نكرس التخلف ونسير خلاف السنة، ولذلك يكرس المنهج القرآني قيمة التطلع نحو الكمال في نفس الإنسان ويتدرج معه في ثلاث مراحل هي:

الأولى: استثارة فطرته التي انطوت على التسامي والتطلع.

الثانية: فك الأغلال التي تمنعه من تحقيق تطلعاته.

الثالثة: تذكيره وتعليمه بقائمة التطلعات السامية التي يمكنه بلوغها.

إن فطرة التسامي مغروزة في ضمير البشر، وداعية له أبداً إلى العروج إلى الأعلى، وإنما تدس هذه الفطرة في ركام الوساوس والأوهام، والأفكار الشيطانية، فلا تعد ترفعه نحو الأسمى، أو يضل صاحبها السبيل فيرى في الحرص على الدنيا والبغي على الناس تسامياً وعروجاً[٣٢].

وهنا نتساءل ما هي قيم التحول نحو الأفضل؟؟

يبدأ منطلق التحول نحو النهضة من خلال منظومة القيم باعتبارها تتضمن معايير الحكم على الأشياء، والحوادث، والسلوكيات، والغايات، وفي القرآن الكريم يمكننا أن نلمح هذا التوجه بوضوح في العديد من آياته وبالأخص الآيات التي تحدثت عن السنن، كما في سورة الفتح التي تحدثت عن قيمة طاعة المجتمع للرسول ﷺ، وكيف أن تحقيق هذه القيمة أدى لحصول وضع أفضل من السابق وهو النصر والفتح، والتحول نحو تنشيط حاكمية المسلمين على غيرهم، وبالعكس حدث للفئات التي تخلفت، والذين سماهم القرآن (المخلفين)، والقرآن عندما يتحدث عن هذه الفئة يربط في النهاية الفعل بالجزاء، فإذا كان التسليم والطاعة لله والرسول ﷺ، هي صفتهم فإن النتيجة تكون الأجر الحسن، أي تطور وتكامل على أرض الواقع وبين فئات المجتمع الإسلامي: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٣٣].

أما القيم التي تساهم في رقي المجتمعات، فيمكن أن نحددها في أربع مجموعات نسردها دون التعليق عليها لأن كل قيمة تمثل موضوعاً مستقلاً وهي:

الأولى: القيم الدينية:

وتتمثل فيما يلي:

١ - الإيمان بالله والتسليم لحاكميته.

قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[٣٤].

٢ - التسليم لمن أمر الله بطاعته.

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ أَطيعُواْ اللّهَ وَأَطيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلي الأَمْرِ منكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[٣٥].

٣ - التقوى والخشية من الله، والانتماء للفئة المؤمنة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٣٦].

٤ - إقامة أحكام الله وفرائضه وسننه.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣٧].

الثانية: القيم الأخلاقية:

١ - العفو والتسامح.

قال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٣٨].

٢ - التراحم والتواصل الأسري والاجتماعي.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾[٣٩].

٣ - احترام الآخرين.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٤٠].

٤ - الصدق والأمانة وأداء الحقوق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[٤١]

الثالثة: القيم الفكرية والثقافية:

١ - حرية التعبير والمعتقد والسلوك.

قال تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٤٢].

٢ - حرية التواصل الثقافي والفكري مع جميع الفضاءات المعرفية.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ ﴾[٤٣].

وقال كذلك: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[٤٤].

٣ - رفع وتعزيز مكانة العلم والعلماء.

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴾[٤٥].

٤ - تعزيز مبدأ التحاور والتعاطي الفكري ونبذ الانغلاق.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٤٦].

٥ - رفض مبدأ الحقيقة المحتكرة بين أطياف المجتمع الواحد.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[٤٧].

٦ - التخطيط العام للحياة الشخصية والعامة.

الرابعة: القيم الاجتماعية:

١ - العدل والمساواة بين أبناء المجتمع الواحد في الحقوق والواجبات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٤٨].

وقال كذلك: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٤٩].

٢ - الشعور بالمسؤولية وتحملها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٥٠].

٣ - الأمن والسلام المجتمعي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٥١].

٤ - التعاون بين تيارات وأبناء المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾[٥٢].

٥ - تفعيل دور المرأة وإشراكها في بناء المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٥٣] □

الهوامش:

(١) القرآن الكريم، سورة القصص آية ٨٨.
(٢) القرآن الكريم سورة الأنبياء آية ٣٠.
(٣) القرآن الكريم سورة إبراهيم آية ٤٨.
(٤) القرآن الكريم سورة الحج آية ٥.
(٥) سورة النمل آية ٨٨.
(٦) سورة العنكبوت آية ١٩.
(٧) سورة آل عمران آية ١٤٠.
(٨) تفسير الأمثل ج٢ ص ٥٤٩.

(٩) سورة آل عمران آية ١٣٧.
(١٠) القرآن الكريم سورة العنكبوت آية ٢.
(١١) آل عمران آية ١٥٤.
(١٢) الأعراف آية ٩٤.
(١٣) الشاكري، حسين، من سيرة الحسن العسكري عليه السلام، ط١٤٢٠هـ، ص٣٩٩.
(١٤) القرآن الكريم سورة الأعراف آية ٨٦.
(١٥) الأعراف آية ٨٨.
(١٦) الشيخ الركابي، السنن التاريخية في القرآن المجيد، الطبعة الأولى، عام ١٤١٣هـ، المطبعة مكتب الإعلام الإسلامي.
(١٧) الأحزاب آية٦٢.
(١٨) فاطر آية ٤٣.
(١٩) الكهف آية ٥٥.
(٢٠) الفتح آية ٢٢- ٢٣.
(٢١) الإسراء آية ٧٧.
(٢٢) المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدى القرآن، ج٦ ص ٢٨٣.
(٢٣) المدرسي، آية الله العظمي السيد محمد تقي، التمدن الإسلامي أسسه ومبادؤه، الطبعة الأولى سنة ١٤١٤هـ، دار البيان العربي، ص ٩٥.
(٢٤)
(٢٥) سورة الرعد آية ١١.
(٢٦) سورة الجن آية ١٦.
(٢٧) سورة الكهف آية ٥٩.
(٢٨) الصدر، الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر، المدرسة القرآنية، الطبعة الثانية عام ١٤٠١هـ، ص ٨٤.
(٢٩) البغدادي، العلامة المحقق الشيخ عبداللطيف، الرجعة على ضوء الأدلة الأربعة، الناشر الدار الإسلامية، تاريخ الطبع ١٤٢٤هـ، ص١٦٧.
(٣٠) سورة المنافقون آية ٨.
(٣١) سورة النحل آية ٦١.
(٣٢) المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده ج٩ ص ٣١٣.
(٣٣) الفتح آية، ١٦.
(٣٤) سورة النساء آية ٦٥.
(٣٥) سورة النساء آية ٥٩.
(٣٦) سورة التوبة آية ١١٩.
(٣٧) سورة البقرة الآيات ٣-٤-٥.
(٣٨) سورة الأعراف أية ١٩٩.
(٣٩) الرعد آية ٢١.
(٤٠) سورة الحجرات آية ١١.
(٤١) النساء آية ٥٨.
(٤٢) البقرة ٢٥٦.
(٤٣) آل عمران آية ٦٤.
(٤٤) العنكبوت آية ٤٦.
(٤٥) المجادلة آية ١١.
(٤٦) النحل آية ١٢٥.
(٤٧) سورة سبأ آية ٢٤.
(٤٨) سورة المائدة آية ٨.
(٤٩) سورة الأعراف آية ١٨١.
(٥٠) سورة الإنسان آية ٣.
(٥١) البقرة آية ٢٠٨.
(٥٢) المائدة آية ٢.
(٥٣) القرآن الكريم سورة التوبة آية ٧١.

الإصلاح الديني وتأثيره في التحولات الاجتماعية*

■■ الشيخ حبيب الخباز**

قضية الإصلاح في المنظور الديني تعتبر أساساً لرقي الحياة الإنسانية، طالما البشرية بحاجة إلى الهدى والاستقامة والتكامل، ولولا ذلك لعاش الإنسان تائهاً ضائعاً.

إن الإصلاح لا يقتصر على بعد واحد بل يشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، كما هو واضح في القرآن الكريم وسوف نتعرض إلى ذلك فيما بعد، وبالرغم من أن شعار الإصلاح يحظى بهذه الأهمية ويعكس الروح الايجابية للدين وقيمومتة للحياة، نجد أن هناك تيارات مختلفة تعارض هذا المفهوم وتحاول أن تضفي عليه صبغة المثالية والروحانية الخاصة في مقابل الواقعية وبعبارة إن الدين مهيمن على روح الإنسان وبنائه الداخلي وليس له علاقة بالدساتير والأنظمة الواقعية والحياتية.

ومن العجب أن نجد هذه التيارات تحتمي بدار الإسلام وتعيش في كنفها، أي مما يدعون بأنهم مسلمو العقيدة ولكنهم علمانيون. يؤمنون بفصل الدين عن الحياة، وان الناس هم أدرى بقيادة أنفسهم، وكالمستشرقين « وهم من جاءوا من خارج البلاد العربية والإسلامية لدراسة هذه الحضارة وتحت أهداف مختلفة ومن أبرزها هو محاولة التأثير في خلق مفاهيم مغلوطة ومنحرفة عن حقيقة الدين ودوره ».

الإنسان محور تعاليم الدين وقاعدة الإصلاح العام

ونجد في القرآن أن الإصلاح يكتسب أهمية وعمقا في الحياة هو أن الإنسان هو محور هذا الرؤية وتفاعلاتها وان كل ظواهر التغيير في الحياة هو نتيجة أو انعكاس لحقيقة الإنسان وواقعه، أي بما يتمتع به من صلاح أو فساد، يقول تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

** عالم دين وكاتب - السعودية.

وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾[٢]. إن الرؤية الدينية تستمد حقيقتها وصوابيتها من عمق الإنسان وحقيقته، ولا تكتفي بالظواهر ومعالجة الواقع بالواقع. وهذا هو الفرق بين الإصلاح الديني وغيره للإنسان والحياة. حيث نجد أن الفكر المادي والبعيد من القيم إنما يعالج مشاكل الإنسان المختلفة من واقع أخطائه ثم يحاول أن يتخطى الواقع لما هو أسوأ منه أو يلبسه ثوبا جديدا، وهكذا نجد أن المشاكل الإنسانية والاجتماعية في أغلب شعوب العالم هي نتيجة تكرار الخطأ و التجربة أو الهروب منها دون الوقوف عند أسبابها الجذرية، فنجد أن الرأسمالية كمذهب اقتصادي للمادية الغربية تبلور نتيجة الهروب من واقع الاشتراكية الشيوعية، وأن القومية العربية هي تمرد على الملكية والقطرية، إن هذا التخبط هو نتيجة للتجاوزات للفكر الديني القويم ورؤيته.

الإصلاح الشمولي في القرآن

ومن الدعاوى العجيبة هو اتهام الدين بأنه عقبة في طريق التقدم والإصلاح العام، بالرغم من اهتمامه بإصلاح الإنسان، فماذا نطلق على اهتمام الدين ومن خلال القرآن بكل الشؤون الحياتية والتدخل فيها وإعطائها من الأهمية بحيث نجد من ابرز مهام دور كل رسول هو معالجة جانب من الحياة يعكس ضرورته في واقع المجتمع، فالقرآن يعكس اهتمامات مختلفة من قبل الرسل والأنبياء إلى أقوامهم مع اتفاقهم على المبادئ العامة والثابتة، فهناك الاهتمام السياسي وهناك الاهتمام الاقتصادي وهناك الاهتمام الأخلاقي والإداري. فقد اتسمت قصة نبي الله موسى ع مع فرعون في معالجة الجانب الأول أي المشكلة السياسية حيث إن المشكلة الطاغية هو سيطرة النظام الحاكم بالقمع والإرهاب وتكريس الخضوع والعبودية في حياة الناس. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣]. وكانت المهمة الأساسية لموسى (عليه السلام) هو تحرير هذا الشعب حيث قال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾[٤]، بينما نجد قبل ذلك أن نبي الله إبراهيم وكذلك نوح تكرست دعوتهما في معالجة العقائد الفاسدة من الشرك والإلحاد، التي تمثلت في الأصنام وعبادة الكواكب. أما قصة نبي الله شعيب (عليه السلام) فقد كانت المشكلة الاقتصادية متفاقمة مما حدا بشعيب بتذكير القوم وتحذيرهم من مغبة التلاعب والاستغلال فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٥]، وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) تأكيد على أهلية الدين واستحقاقه في التصدي للمسؤولية في تطبيق القيم التي تعكس نزاهة هذا الدور وتأثيره في واقع الناس ومصالحهم بتبنيه نظام الإدارة حيث قال ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٦]. بينما نجد من اكبر المشاكل للأنظمة السياسية اليوم هو الفساد الإداري بسبب غياب الرقابة والوازع الديني. ومحصلة ذلك يدعونا للتساؤل عن غياب هذا الدور وتأثيره في إيجاد التحولات الاجتماعية منذ قرون عديدة.

إن حال المجتمعات العربية والإسلامية يكرس الشعور بالبحث عن أنظمة ورؤى خارج دائرة الدين والتوغل في مفاهيم الحضارات المشهود لها اليوم بالتقدم والتطور والازدهار، وهي الحضارات المادية بتبنيها للقيم التي تتفق مع التحولات الاجتماعية مثل الديمقراطية والعولمة والسوق المشتركة وقيم السلام ومحاربة الإرهاب. وإذا كان من الضروري هنا وللإجابة عن التساؤلات هو التأكيد على النموذج الديني وبالتحديد في عصر الرسول ﷺ الذي قدم للعالم الصورة المشرقة لمهمة الدين وتكاملية الرؤية من خلال قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة و التي حققت انتصارا على كل المستويات الحياتية وعلى المستوى العالمي في ذلك الوقت.

لكن من المهم البحث عن أسباب هذا التراجع وانحسار هذا الدور والى وقت قريب من عصرنا هذا، والبحث عن العقبات العامة أولا أمام الدعوات الإصلاحية الدينية في الحياة البشرية والتي أشار إليها القرآن:

أولاً: العادات والتقاليد:

إن الفكر الديني الصحيح يعكس القيم الحقة و التطلعات الخيرة، التي تساهم في رفع مستوى الإنسان الفكري والسلوكي، وتقدم للناس الرؤية الحضارية التي تقودهم نحو الآفاق الواسعة والتحولات الايجابية على صعيد الفرد أو المجتمعات، فهو فكر تجديدي ومتقدم بمعنى عدم قبوله الجمود والفراغ والانحراف، لذلك نجد أن أساس هذا الفكر قائم على أساس العقلانية والهداية، « أي وجود التفاعل بين دور الإنسان والدين »، وتركيز دعوة الدين على إثارة العقل فلأنه يقود الإنسان لتبني الفكر الصائب والأفق الرحب.

فالعادات والتقاليد غالبا ما تكون عقبة لأنها تحجب دور العقل في التفاعل وقبول دعوة الحق وليس من الضرورة أن تكون هذه العادات سيئة، بل إن البقاء عليها دون رسم حدود لها بما يكفل للإنسان التقدم وقبول التغيير والتحول له تأثير سلبي أيضا.

وأشار القرآن إلى التأثير السلبي للعادات والتقاليد السيئة في منع وصول أمواج التغيير والهداية يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[٧].

إن فكرة القبول بالواقع والتسليم للقيم الحياتية مهما كانت سيئة يرفضها العقل و المنطق والدين.

ثانياً: عصيان القيادات الرسالية:

إننا نجد في القرآن ركائز لكل الرسالات السماوية التي تمثل الدعوة للإصلاح والتغيير على ثلاثة محاور رئيسية وهي:

١ - الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢ - الالتزام بمنهج الحق.

٣ - طاعة القيادة الشرعية والربانية.

يقول تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٨]، ولقد تكررت هذه الآية على لسان مختلف الرسل وذلك في سورة الشعراء إن عصيان القيادة الدينية والمؤهلة للزعامة كان من أهم العقبات في إيجاد التحولات والتطلعات الايجابية على مر التاريخ بالرغم من الجهود الجبارة التي قام بها الرسل والأنبياء من اجل مجتمعاتهم إلا أن عصيان القيادة وعدم التفاعل مع أطروحاتهم سبب الهلاك لتلك المجتمعات والأمم. وعلى سبيل المثال وليس الاطراد و الإسهاب في هذه الحقيقة فإن نبي الله نوح عليه السلام دعا قومه مئات السنوات ولكن لم يحدث ذلك التأثير فهو يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا﴾[٩]، ونجد في قصة بني إسرائيل مواقف مخزية في التمرد والعصيان للأنبياء الذين جاءوا من اجل خلاصهم، ومن ابرز مشاهد هذا العصيان هو عبادتهم للعجل في غياب موسى عليه السلام. وتاريخ الأمة الإسلامية حافل بالنكسات خصوصاً بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان عصيان القيادة وأوامرها التي تمثلت في التوجيهات النبوية للالتفاف حول القيادة الرسالية وأئمة الهدى، فكان عصيان هذه الأوامر خطيراً في مسيرة الأمة وتجاذباتها.

لقد ترسخت أصول هذا التمرد في عهد الإمام علي عليه السلام حتى قال « لقد أفسدتم أمري بالعصيان » . إن الانحراف عن المنهج الواضح للدين يتمثل في أحد ركائزه في التمرد على القيادات الشرعية ويسبب إقصاء الدين عن مسرح الحياة، وترسيخ دعائم الأنظمة السياسية التي عملت على استغلال الدين وتهميشه ولقد عانت الأمة في أكثر تاريخها والى اليوم نتائج هذا المنحى وانعكاساته على واقع الحياة.

الصحوة الإسلامية يقظة في ضمير الأمة:

وحينما التفت الجماهير حول قياداتها الشرعية والدينية تحقق الإنجاز العظيم والتحول المشهود كما حصل ذلك في إيران الإسلامية، وأقول مشهود لما أحدثته من تحولات اجتماعية ليس فقط على مستوى الشعب الإيراني بل في العالم بأسره، ويمكن بحق أن نؤرخ لحقبة جديدة في العالم مع انتصار الثورة.

ثالثاً: إتباع الأهواء والشهوات وحياة الدعة والميوعة:

يقول تعالى:﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[١٠]، فالقرآن يحدثنا عن تلك الأمة - بني إسرائيل- حيث يقتلون قسما من الأنبياء ويكذبون دعوة طائفة أخرى، والسبب بأنهم لا يريدون الالتزام بمنهج السماء.

إن الدين يهدف إلى سمو الحياة البشرية وارتقائها عن بقية المخلوقات من خلال القيم والتعاليم

التي جاءت بها الرسل، وهكذا نجد الفرق بين مفاهيم الدين وغيره من التشريعات والمفاهيم التي يتبناها البشر. فحينما نبحث عن الفرق بين الحرية الدينية والحرية المادية الغربية اليوم (باسم الديمقراطية) نجد أن الدين يلبي طموحات الناس ويمنحهم الحرية ولكن بشرط ليس على حساب المبادئ والأهداف الإنسانية الكريمة، بينما الديمقراطية تهدف إلى إطلاق العنان للإنسان أمام أهوائه وشهواته ضمن قوانين تكفل له ذلك وتكرس له الشرعية. وهذا ما يميز تلك الحياة الغربية عن غيرها، فنجد بالرغم مما تتمتع به من أساليب حضارية براقة وقوانين في حفظ حقوق الإنسان وحرية المعتقدات وبراءة الاختراع وفي كل جوانب الحياة والذي يعكس بحق جانب مهم من أهداف الدين وتشريعاته، لكن من جانب آخر تمارس في حق الإنسان أسوأ الطرق والأساليب من خلال القضاء على كرامته بتوجيهه إلى حياة الدعة والميوعة واتباع رغباته الحيوانية بدون قيود وشروط، إنها حياة أشبه بحياة الأنعام لأنها تفتقد إلى الأهداف والغايات لنبيلة والأسس الحياتية القويمة: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[١١]، فالحياة الدنيا بالنسبة لهم هدف وغاية، فلا عجب أن نجد تلك التطلعات الدنيئة والسياسات التي تنطلق من هذه الفلسفة تحاول أن تستغل الشعوب وتمتص خيراتها بكل الأساليب واستخدام القوة هنا وهناك من اجل تأمين هذه الحياة وتحقيق متطلباتها.

إن الثقافة الغربية تعكس قيم التحلل والانحطاط وحياة الميوعة ونشر الفساد وهي من اكبر الشواهد وابرز سمات هذه الحضارة إنها جاهلية القرن العشرين كما وصفها الكاتب المصري محمد قطب وقال « ليس الجاهلية في مقابل العلم دائما فلم توصف الجاهلية الأولى بهذا الوصف لأنها تفتقد إلى العلم ولكن لأنها تفتقد إلى أبسط القيم الخلاقة والكرامة الإنسانية، وكذلك اليوم فان الحضارة الغربية تركز على انحطاط الإنسان من خلال سلب كرامته »[١٢].

وللأسف لقد تأثرت بلاد الإسلام بهذه الثقافات وبدأت تنحو بهذا الاتجاه وهو التركيز على حياة الميوعة والتحلل والتطلع الى حياة شبيهة بتلك الحياة.

من هنا نجد أن رفض الدعوة للحكم الإسلامي و تطبيق الشريعة سواء من قبل القوى أو من قبل الأنظمة الاستبدادية تكمن في فلسفة الإسلام للحياة، وقيادته للبشر نحو القيم والمثل المبادئ.

فعلى مر التاريخ كان الإسلام مستهدف من قبل الأشرار وأصحاب الأهواء والمطامع والنفوس الدنيئة، و تحت مبررات وخطط تستهدف إقصائه من الحياة وتفريغه من المحتوى، كما أنه يمثل عقبة في تمرير سياسات الطامعين.

ولا غرابة كذلك أن نجد أعلام الدين من العلماء والمفكرين والقيادات هنا وهناك محاربون ومهددون وان نسمع عن محاولات اغتيالهم.

ومن الأمثلة في التاريخ الإسلامي ما تعرض له الإمام علي عليه السلام من الإقصاء قبل تسلمه زمام الحكم، مع العلم أنه موصى ومنصوص عليه كخليفة، وكذلك حينما تسلم الخلافة وأقام النظام. انه يكمن في نزاهته وتطبيقه للدين وأهدافه، فالإمام علي ع حينما جاء للحكم أقام حكم الله

بتطبيقه مبدأ العدالة والمساواة وألغى كل الامتيازات و المحسوبيات وفتح المجال للتعبير عن الرأي بتكريسه مبدأ الحرية وتعامله مع الخوارج أكبر شاهد على ذلك. فالإمام علي عليه السلام كان خشناً في ذات الله كما قال الرسول في حقه ولذلك فانه تعرض لكل الفتن وواجه مختلف التيارات التي وقفت للنيل من شخصه حتى وصفوه بالكفر تارة وبالخروج عن سيرة الشيخين تارة أخرى.

من هنا نجد القرآن يؤكد على الثبات والالتزام، يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فيهنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[١٣]، ويقول: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[١٤]، فإتباع الهوى هو أساس كل انحراف عن الجادة وذلك بسبب الغفلة والإعراض عن ذكر الله ونسيان يوم الحساب.

ولا عجب حين يتحكم الهوى في حياة الإنسان أو في مصير الشعوب والمجتمعات أن نجد تلك المسوغات لحياة الترف واللهو واللعب ونوادي الخمور والدعارة تنتشر في تلك الدول التي تدعي الحضارة وكذلك في الدول العربية والإسلامية التي فقدت ثوابتها الدينية. فليس كل من رفع شعار الإسلام كأساس للحكم ودستوراً للتشريع وملأ الشوارع والطرق بالشعارات الدينية وبأسماء أعلام التاريخ يكون قد حقق حكم الله، ومن قبل لقد سمي أغلب حكام الدولة العباسية بأسماء أضيفت لأسم الجلالة مثل المستعين بالله والمنتصر بالله والواثق بالله.. لكنهم كانوا أشد بغضا للدين وفتكا بأولياء الله. يقول الإمام علي عليه السلام وهو يصف الحاكم الذي يحكم بحكم الله ويسعى لتحقيق أهدافه:

« إنما يقيم حكم الله سبحانه من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع ».

والمصانعة تعني الاستسلام و التساهل، والإمام علي لم يتساهل في تطبيق العدالة حتى مع الشخصيات التي تملك القدرة على التمرد وتأليب الناس كمعاوية كما انه رد الأموال التي فرقت هنا وهناك من بيت مال المسلمين. والمضارعة تعني المشابهة بأن يتأثر الإنسان من المحيط ويحمل أمراض المجتمع السلبية ويبتلى بالضعف والمصلح والقائد لا بد أن يكون قدوة.

كما يقول الشاعر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو عليل

ولا يتبع المطامع، يقول الإمام علي عليه السلام « الطمع رق مؤبد »[١٥]. ويقول الإمام عليه السلام: « كم من عقل أسير تحت إبريق المطامع »، ويقول عن أهداف الثورة و الإصلاح وقيام النظام الإسلامي « نرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك »[١٦].

رابعاً: النفاق:

ومن اشتقاقاته النفق في الأرض ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا في

الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾[١٧]، ويشتركان في الاختفاء، فالمنافق يخفي كفره ويظهر إيمانه من أجل تحقيق مآربه وغاياته. لقد كان المنافقون اشد خطرا على الإسلام من غيرهم من الكفار والمشركين واليهود في كل زمان ومكان، وان المتتبع للقرآن يجد الحديث عن أهل النفاق ودورهم في خراب الدين واستهدافه ومحاولة إقصائه وفصل الأمة وتثبيطها عن الالتزام به، ويمكن تلخيص أساليبهم من خلال ما يلي:

١ - تشويه صورة الإسلام.
٢ - تثبيط النفوس عن الجهاد والدفاع عن الإسلام.
٣ - استغلال المناصب والحكم والاستبداد.
٤ - الحيلولة دون تطبيق الشرع والالتزام بالفرائض.
٥ - الكيد والغدر والخيانة لأهل الأيمان.
٦ - التعاون مع أعداء الدين من الكفار والمشركين.

فالمنافقون وان كانوا يعيشون مع الناس ويظهرون المودة وشعارات الإخوة إلا أن قلوبهم وعقائدهم وأهدافهم وتطلعاتهم فاسدة وخبيثة، فهم خطر على الأمة ومصالحها في أي خندق تمترسوا وأي مكان وجدوا فهم بلاء ما بعده بلاء، والقرآن حينما يتحدث في كثير من آياته عن أساليبهم فهو يحذرنا من شرهم ويقول تعالى:

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾.
- ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.
- ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.
- ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾.
- ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.
- ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.
- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.
- ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

ومن الملاحظ في اغلب الآيات التي تتحدث عن المنافقين يشير إليها القرآن بقوله: (ومن الناس) إشارة إلى دورهم الخبيث في التظاهر بالصلاح وقربهم من الناس.

والأمة الإسلامية اليوم ابتليت بمثل هؤلاء خصوصا أولئك الذين تشبعوا بثقافة الغرب وتربوا وترعرعوا في أجوائها وشربوا من ثدي مبادئها حتى إذا ما رجعوا إلى أوطانهم قاموا بما يجب أن يقوموا به من تلميع صورة الغرب وتقديمها كنموذج وتكريس التبعية لهم، وانبهروا بإنجازاتها وتأثروا بعاداتها وتقاليدها فهم اليوم يمثلون راس النفاق من خلال تربعهم وسيطرتهم على مقدرات الأمة ومصيرها. فهم مع ذلك يرفعون شعار الدين والإسلام ويرسمون الأحلام لشعوبهم ولكنهم ابعد ما يكون عن تطبيق ذلك وتحقيق الأهداف. فلننظر إلى ما حققته هذه الأنظمة والحكومات وكيف تسخر خيرات الشعوب التي تحكمها وما هي المناهج الإسلامية الحقة التي تنتهجها، وكيف أصبح المسلمون مع كثرتهم وتعدادهم امة متخلفة ومتفرقة بعد أن كانت تجمعهم كلمة التوحيد (لا اله إلا الله) ووحدة الكلمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فلا يجمعهم اليوم سوى المصير الواحد وهو الضعف والاختلافات و التخلف كل ذلك بسبب الذين يحسبون أنفسهم بأنهم يملكون مفاتيح الخلاص للأمة والمقدرة على تغيير أوضاعها إلى الأفضل وأنهم الأحرص على خيرات الأمة....

وخلاصة الكلام بعد ذكر العقبات، إن التحولات الدينية في التاريخ وفي وقتنا الحاضر وربما في المستقبل هي بطيئة ونادرة (للأسباب التي ذكرت وللأسباب التي سوف نذكرها في الفصل القادم) ولكنها هي الأجدر والأقوى في التأثير على الإنسان والشعوب مهما كانت هناك من عقبات وتراكم من ناحية الزمن والثقافات والعادات. فالتحولات الدينية هي رهينة بالتضحيات والجهود ووعي الأمة ومن اجل ذلك نجد أن الانتصار الحقيقي هو ثمرة كل ذلك وتجاوز العقبات والابتلاءات، يقول المرجع المدرسي: « إن الشعوب أحيانا ومن أجل استرداد حقوقها وإرادتها بحاجة أحيانا إلى ما يشبه بالعمليات القيصرية ».

الإخفاقات وسلبيات العمل الإصلاحي

يمكن أن توفر السلبيات فيما يلي:

أولاً: العمل الفردي:

قد يفرض على الإنسان العمل الفردي لأنه لا يجد أحدا يقف معه، وكذا المصلح لا يمكن أن يتوقف عن واجبه وعن مسيرة الإصلاح. فليس من الشروط الحتمية أن يحقق النجاح الكامل في مسيرة الإصلاح يقول الإمام علي عليه السلام: « لا استوحشن من طريق الحق لقلة سالكيه »، إنما الإشكالية أن يختار المصلح هذا الأسلوب والطريقة لتحقيق التأثير

والتحول والتغيير. إن الإخفاقات الإصلاحية في كثير من الحالات هو بسبب إرادة العمل الفردي لعلاج المشاكل المختلفة وقضايا الأمة المعقدة. وإذا كان العمل الفردي قبل قرن أو أكثر يفرضه الواقع الاجتماعي لغياب الوعي الجماهيري وركود الحياة، فانه اليوم مختلف تماما حيث أن أوضاع العالم قد تغيرت والتحديات التي تواجهها الأمة اختلفت وكذلك فان الأمة في صحوة مستمرة مما يتطلب:

١ - نشاط وقدرة غير محدودة.

٢ - أن يتسم العمل بالتنظيم والتركيز والإدارة.

٣ - ومع وجود النخب الإصلاحية يتطلب التنسيق والتعاون وبلورة الرؤى والأفكار للوصول إلى نتائج متقاربة أو متحدة وسديدة.

٤ - وفي ظل المشاكل الاجتماعية المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية يتطلب وجود مؤسسات وقنوات لاستيعاب هذه الضغوط والتحديات التي نواجهها.

٥ - وأمام التطور العالمي والانفتاح وتأثيراته وإيقاعاته السريعة يتطلب القدرة والجهد للخلوص إلى مواقف ونظريات وتحليلات في صالح الحركة وتسخيرها في مصلحة الأمة.

إن المبدأ الإسلامي يعطي للدور الجماعي الأحقية والأفضلية كدعامة في تحقيق الأهداف واستيعاب الظروف. يقول تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّه إِنَّ اللّه شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وإذا كان العمل الفردي اليوم لا يحقق الأهداف المنشودة وفي ظل الظروف الصعبة والمستجدات الاجتماعية والتحديات فهو يعكس أيضا روحاً سلبية على مستوى التحولات الاجتماعية.

ثانياً: الدور المحدود:

ومن الإخفاقات الإصلاحية هو الاكتفاء بالعمل المحدود في التأثير، والتي لا تتجاوز المعرفة السطحية بمشاكل الناس وهموم الأمة، ومما يؤخذ في وقتنا الحاضر هو وجود كثرة المصلحين لكن دون إحداث التغييرات المأمولة، وإذا كانت هناك من تأثيرات ملموسة فهي لا تعكس ولا تتناسب مع هذا الوجود، من هنا تأتي ضرورة المؤهلات والكفاءة والطموح والتي تعلب دورا مهما في شخصية الداعية والمصلح وقدرته في تبني المشاريع والمؤسسات والأدوار الرئيسية التي يحتاجها الناس، ولاشك إن الإحجام عن القيام بتلك المهام المطلوبة والأدوار لها أسبابها الشخصية والاجتماعية المختلفة. كما أن القدرة على تجاوز كل هذه العقبات والصمود دليل على الأهلية، وقد أشار القرآن إلى هذا البعد بشكل دقيق يعبر عن كل المعاني في شخصية المبلغ والمصلح يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللّه وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ﴾.

ثالثا: ثقافة التكفير والتفكير السطحي:

ومما يؤخذ على الفكر الدعوي والإصلاحي في بعض اتجاهاته هو ذلك التناقض بين تبني هذا الهدف وتلك الأفكار والمواقف المضادة لبعض التيارات الدينية والتي تزعم إصلاح الأمة وهداية الناس. بينما هي تشهر سلاح التكفير لكل من يحمل فكرا أو عقيدة أو مذهبا مخالفا لها، ولا شك أن هذا التطرف كان له تأثير سلبي وأوجد إرباكا على مستوى الأمة في تحقيق وحدتها. ونفورا عند البعض حيث عكس جانبا من أسباب التخلف و الانحطاط في تاريخ الأمة، بل يرى آخرون عند تقييمهم لهذه التيارات الفكرية المتطرفة أنها أشد خطراً وفتكاً لوحدة الأمة وتفكيكاً لقدراتها وتشويهاً لرؤاها وذلك من خلال استخلاصهم لمواقفهم وأساليبهم التي يتبنونها في كل مكان وفي أي عصر والتي تتلخص في:

١ - ثقافتهم السطحية للدين وتعاليمه.

٢ - تسببهم في تمزيق وحدة الأمة من خلال التمييز بينها الى مذاهب وعقائد وجماعات توصم بعضها بالكفر والضلال، ولا يمكن للأمة أن تتوحد من خلال هذا التشرذم والافتراق.

٣ - خلق الفتن والصراعات والمشاكل الجانبية بين المسلمين.

٤ - إيجاد بؤر للصراعات والحروب بين الأمة وأعدائها في العالم من خلال تأويلاتهم للدين وللإحداث وتحليلهم للسياسات.

٥ - بروز الفكر المتطرف على مسرح الحياة الاجتماعية والعالمية مما يعكس صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين.

ولقد عانت الأمة عبر تاريخها من ألوان هذا الفكر المتحجر والسطحي في فهم الدين و مبادئه ومنطلقاته الحضارية، ومن نماذج هذا الفكر في التاريخ هم الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي عليه السلام في خلافته وكفروه وحاربوه، فالخوارج في التاريخ كانوا فتنة وهي أشد من القتل للكفار، « ولقد قال الإمام علي عليه السلام حين حاربهم وقتل منهم الكثير « أنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجرأ عيها احد غيري بعد أن ماج غيبها واشتد كلبها » وأشار الإمام بأنه لم يتجرأ احد أن يواجههم غيره والسبب هو أنهم يرفعون شعار الإسلام والحرص عليه ويتظاهرون بالزهد والخشوع والتدين »[١٨].

وما زال هذا الفكر بألوان مختلفة ساري المفعول إلى وقتنا الحاضر حيث تعاني الأمة من هذا التطرف لبعض التيارات التي ترفع شعار الإصلاح والدفاع عن مصالح الأمة، لكنها معزولة فكرياً عنها لا لأنها تعترف إلا بنفسها ولا تخضع لأي حجة أو رأي فهي تعتقد بالحق المطلق لها.

إن من أهداف الدين الأساسية الدعوة إلى وحدة الأمة و تكريس مبادئ السلام والاحترام والإخوة الإيمانية، التواصل والحوار بين المسلمين وغيرهم، لان ذلك يوفر الأرضية الخصبة في نشر القيم الصحيحة وأساليب الاقتناع والتأثير وإيجاد التحولات الايجابية. إن التطرف مرفوض من الناحية الدينية والعقلية لأنه يفتقد إلى عنصر المواجهة مع الآخرين، وإلقاء الحجة واحترام الرأي

الآخر، مما يبرر للآخرين باتهامه بالباطل والضعف والانحراف، لأنه لا يتفق مع المبادئ الحضارية والأخلاقية وهي من أهم سمات الفكر الديني والإسلامي. ولقد أكد القرآن على هذه السمات في قضية الدعوة و التبليغ والإصلاح، فقد أمر الله سبحانه رسوله محمد ﷺ بالالتزام بها وهو قدوة المصلحين والهادين حيث قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾، وقال أيضا: ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

رابعاً: أسلوب المواجهة المباشرة مع النظام السياسي:

ومن الإخفاقات التي واجهت حركة الإصلاح الدينية هو تبنيها ذلك الأسلوب في مواجهة النظام السياسي دون الرجوع إلى إرادة الأمة، وكان المطلوب هو إعطاء الأمة دورها في تقرير مصيرها وذلك من خلال نشر الوعي و الثقافة، وتحميل الأمة المسؤولية اتجاه أوضاعها، أي لابد من استفادة الحركة لكل الفرص والخيارات المتاحة. وقد أكد القرآن على قضية الحوار كأسلوب للتعاطي مع النظام السياسي المنحرف، وقد أمر الله نبيه موسى عليه السلام للحوار مع فرعون فقال: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[١٩]، إن أسلوب المواجهة كان في الغالب ليس في صالح الأهداف الإصلاحية بل تعمل على:

أولاً: إلى هدم كل الإنجازات وتأخير كل الخطوات البناءة.

ثانياً: تكريس قبضة الهيمنة للسلطات الحاكمة وتبرير قمعها وسيطرتها

ثالثاً: إلحاق الضرر بالمصلحين من الملاحقة المستمرة و التشريد و القتل و التصفيات و التنكيل والعقوبات.

رابعاً: تشويه صورة المتصدين واتهامهم بأشد المسميات والمساوئ.

إننا نجد أن أسلوب المواجهة عبر التاريخ مع الأنظمة الفاسدة على نوعين وحالتين:

الأولى: هي تلك الثورات والحركات التي اختارت هذا الطريق ولم تمهد لها قاعدة جماهيرية تستند إليها، واختارت المواجهة المباشرة كحل جذري من اجل التغيير والإصلاح.

ثانياً: هي تلك الحركات والدعوات التي قامت بدورها اتجاه الناس ونشر الوعي وحملت الأمة مسؤوليتها، فلم تلقى استجابة وتفاعل، أو أبت إلا الخضوع والاستسلام، فكان الطريق هو القيام بواجبها التاريخي والمصيري الذي يحتم عليها، ومثال هذا النموذج الثاني هو ثورة الإمام الحسين عليه السلام حيث ثار في وجه النظام الأموي اليزيدي ولكن بعد أن دعي من قبل الجماهير وكتبت له الرسائل و الكتب من اجل حثه للخروج والثورة، فما كان منه عليه السلام وهو الإمام المعصوم والهادي للأمة إلا الاستجابة كما إن الظروف المأساوية لانحراف النظام عجلت في الثورة.

لكن العنصر المهم في ذلك هو في وعي الأمة وإرادتها للتغيير ومن دون ذلك فان النتائج وخيمة والتضحيات جسيمة ولا يمكن تقديرها وتقييمها مهما كانت نزاهة الثائرين وتطلعات المصلحين من الأنبياء و الشهداء الذين يحفظ الله دماءهم وحياتهم الخاصة يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٢٠]

إن العلاقة بين الثورات و الأنظمة السياسية هي علاقة جدلية في الغالب تعكس بظلالها على صعيد التحولات الاجتماعية، فهما يشكلان محور التأثير في رسم خريطة الحياة ومستقبلها ولذلك يقول الرسول ﷺ: « اثنان إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي العلماء والحكام » من المهم أن نقف عند مدلول هذا الحديث بعد التسليم به وتواتره عند علماء المسلمين، ونحاول استنتاج آفاقه وان بدا واضحا، فنقول أن الحديث له عدة افتراضات واحتمالات للوصول إلى الغرض المطلوب:

الافتراض الأول: هو صلاح العلماء (المؤسسة الدينية) وصلاح الحكام (السياسية) وذلك حينما تتجسد في شخصية الحاكم بأن يكون عالما وهو قليل في التاريخ والحاضر، ونجد مثالا على ذلك هو في عهده الرسول الأكرم معلم البشرية وهو الحاكم والمصلح، حيث تحقق في عهد الحلم البشري في ظل الحضارة الإسلامية حيث ارتقت الإنسانية إلى سلم التكامل والسمو والسعادة فكان رحمة للعالمين ومفتاحاً للخير والبركة فلم تنعم البشرية في الحياة كما عاشت في ظل قيادته الربانية وقد وصف القرآن مهمته بأدق التعبير حيث قال: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢١].

والنموذج الآخر هو في عهد الإمام علي عليه السلام الذي رسخ قيم الحق والعدالة والمساواة وهو الذي يقول: « إن في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ». لكن وجود المغرضين وأصحاب المطامع والأهواء الذين لا يريدون الخير للأمة أضاعوا فرصة وجود هذه القيادة الربانية وحرموا الأمة من ظلها وعطائها.

الافتراض الثاني: فساد المؤسستين الدينية والسياسية، ويمكن أن يتصور ذلك بان تكون المؤسسة الدينية خاضعة بالكامل إلى الجهاز الحاكم الفاسد، وفي التاريخ والحاضر نماذج كثيرة فالحكومات بعد عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام مثال واضح بدء من العهد الأموي ثم العباسي، وقد تكون هاتان الحقبتان بداية لتأسيس تحولات سلبية خطيرة في تاريخ الأمة وانحرافها مما يدل على خطورة هذا المنعطف والمنزلق للعلماء الذين يقودون الناس ويبيعون ضمائرهم ويخونون أمانتهم في سبيل الارتزاق من الحاكم. ولقد ابتليت الأمة من هذه النماذج أي من (علماء السلاطين) فهم يشكلون خطرا اشد من بطش النظام نفسه، ولقد حذر القرآن من مهمة علماء ومفكري الأمة ومن مغبة التورط في القيام بأدوار تفقدهم قيمتهم و مصداقيتهم، يقول الرسول ﷺ محذراً: « إذا رأيتم العلماء على أبواب السلاطين فبئس العلماء وبئس السلاطين، وإذا رأيتم السلاطين على أبواب العلماء فنعم العلماء ونعم السلاطين » فعلماء

السلاطين لا يكتفون بالجلوس والعمل في جهاز الحاكم وتوجيهه بل يصبحون جزءاً من النظام وضحية مؤامراته رغم إرادتهم ووعيهم وعلمهم، وإن مهماتهم خطيرة ومع ذلك يقومون بها لأنهم لا يملكون القدرة على العصيان والرفض واختصاراً لا يملكون الاستقلالية فنجدهم:

١ - يُظْفون الشرعية على النظام.

٢ - يبررون مواقفه وخطواته.

٣ - يمجدون في شخصه وأفعاله.

٤ - يحرفون الدين ويزيفون الحقائق على الناس في سبيل تحقيق رضا الحاكم.

٦ - يصدرون الفتاوى الشرعية في وجه كل من يقف ضد النظام أو يحاول التعرض إليه.

ولا شك أن تأثير هؤلاء على الناس كبير وخطير لكن الشريحة الواعية لا تستجيب إلى هذا الصنف من الوعاظ، لأنهم أبواق ومرتزقة للنظام ويعبرون عن إرادته. ولقد استفادت الحكومات الظالمة من هذا اللون من العلماء في تكريس قوتها وتنفيذ مخططاتها، مما أفقد الأمة صوابها وقدرتها، وعلى سبيل المثال نجد في التاريخ شريح القاضي في الجهاز الأموي الحاكم يفتي ضد الحسين وثورته ويقول بان الحسين خرج عن حده فليقتل بسيف جده. فأصبح الحسين سبط رسول الله وريحانته يقتل بسيف الإسلام وسيف محمد ﷺ وهو القائل ﷺ: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ».

ونشير إلى ذلك التحذير القرآني الصريح في مهمة العلماء يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[٢٢]، ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٢٣]

إن هذا اللعن والتهديد لهذه الفئة من العلماء لم يتأتى لولا خطورة دورهم في مصير الأمة وخيانة الأمانة الكبرى بتحريف الدين. وليس لهم توبة حقيقية لتبرير مواقفهم أمام الجماهير إلا إذا تخلوا عن مهمتهم الخبيثة والشيطانية وكذلك اعترفوا بأخطائهم ثم بينوا الحقيقة وكشفوا الأخطاء.

مما يعني أن دور العلماء هو دور القيادي والطليعي في الأمة وان الجماهير هي رهينة مواقفها وتصديها وان التنازل عن ذلك بالسكوت أو المهادنة يفقدها مكانتها ومبرر دورها، كما هو تحذير للجماهير من إتباع وتقليد هؤلاء أو الاستماع لهم. ففي الحديث: « فمن استمع إلى ناطق فقد عبده فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله وان كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان ».

الافتراض الثالث: صلاح أحدهما وفي الغالب أن تكون السلطة السياسية هي من تتآمر وتسعى للفساد وتحقيق المصالح، وأن المؤسسة الدينية دائما في مواجهة هذا الانحراف، ومن أجل تحقيق الأهداف المنشودة وتطلعات الأمة و تحقيق التغيير و التحول الاجتماعي لا بد

من تجاوز تلك الثغرات التي تتسبب في تلك الإخفاقات، فلا بد من أن تسعى في استنهاض إرادة الأمة والجماهير وتعمل على تفعيلها لتكون هي صاحبة القرار والتغيير.

إن التحولات الاجتماعية مهما كانت أسبابها واتجاهاتها هي تعبير عن سنة الحياة، والقرآن يشير إلى سنة الإصلاح الديني والحياتي بأنها رهينة الإرادة الجماعية والشعبية في التحولات الاجتماعية، وليس الإرادة الفردية.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

وقال أيضا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ □

الهوامش:

(١) سورة الشمس، آية ٨ ـ ١٠
(٢) سورة النازعات، آية ٤٠
(٣) سورة القصص، آية ٤
(٤) سورة طـه، آية ٤٧
(٥) سورة هود، آية ٨٥
(٦) سورة يوسف، آية ٥٥
(٧) سورة لقمان، آية ٢١
(٨) سورة نوح، آية ٣
(٩) سورة نوح، آية ٦
(١٠) سورة المائدة، آية٧٠
(١١) سورة محمد، آية ١٢
(١٢) قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين، بتصرف بسيط.
(١٣) سورة المؤمنون، آية ٧١
(١٤) سورة ص، آية ٢٦
(١٥) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.
(١٦) نقل بتصرف: (الحركات الإسلامية في القرن العشرين) مرتضى مطهري، ترجمة صادق العبادي.
(١٧) سورة الأنعام، آية ٣٥.
(١٨) انظر: دراسة عن الخوارج سياسياً وتاريخياً للعلامة جعفر مرتضى العاملي.
(١٩) سورة طـه، آية ٤٤.
(٢٠) سورة آل عمران، آية ١٦٩.
(٢١) سورة التوبة، آية ١٢٨.
(٢٢) سورة البقرة، آية ١٥٩.
(٢٣) سورة البقرة، ١٦٠.

انتكاسة السامري وثقافة المرحلة*

■■ الشيخ عبد الغني آل عباس**

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾[1].

بين ثقافة النهوض ودعوات الانتكاسة بون شاسع، من حيث أن الأولى يكون همها البناء والحركة واستثمار الكفاءات أو صناعتها من جديد، بينما الثانية مصبها بالنتيجة إلى العودة إلى الوراء.

العنصر الأول: زمن النهوض:

مجتمع كان يخيم عليه الخوف والفرقة... مثل هذا المجتمع يحتاج إلى الوحدة واجتماع الطاقات والقدرات، وهذا إنما يكون تحت إشراف القيادة، ولذا جاء قوله تعالى آمرا موسى وهارون بالتصدي ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]، وقد ورد في تفسير هذه الأوامر الإلهية أن المراد من القبلة هنا الصلاة في البيوت بسبب الخوف وجعل البيوت متقابلة مع بعضها البعض، لكن بعض المفسرين أشار إلى أن المراد من ذلك شيء آخر وهو التلاقي من أجل التوجيه والإرشاد والتخطيط، فقد قال صاحب الميزان العلامة الطباطبائي قدس سره: « القِبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجِلْسَة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل، واجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضا في جهة واحدة وكأن الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ »[3]، أما آية الله العظمى السيد الشيرازي قدس سره فيصرح بقوله: « لعل هذين الأمرين باتخاذ البيوت بتلك الكيفية وإقامة الصلاة أن الأول التكتيل في محل واحد بعضهم قبال بعض فلا يكونوا منتشرين هنا وهناك، وذلك التكتيل والتنظيم مهم جدا في تلوين الأفراد بلون واحد ولنشر الأخبار وتنفيذ الأوامر »[4].

---

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

** عالم دين وباحث - السعودية.

ولاشك هنا أن المراد من القبلة هو القيادة، وتالياً يراد منها أن تصب الجهود كلها في بوتقة واحدة. ذكرنا هذا العنصر من باب المقدمة، إذ ليس هو مصب حديثنا.وكانت غاية هذه المرحلة الزمنية قد انتهت بانتصار كليم الله موسى عليه السلام وأتباعه على فرعون وجنوده.

العنصر الثاني: انتكاسة السامري:

حين يحدثنا القرآن الحكيم عن حال المجتمع الإسرائيلي بعد الانتصار، يحول أنظارنا مباشرة إلى الانتكاسة، وهنا لابد من القول أن بعض الأمم أو المصلحين سواء قبل وصولهم إلى أهدافهم أو بعد الوصول، يسعون إلى بدء مرحلة يمكن أن نسميها (المراجعات) وللأسف فإنها تتحول عند بعضهم إلى محاكمات.

بالطبع نحن نؤكد على أننا في شديد الحاجة إلى مراجعات ثقافية، خصوصاً وأن العناوين الثقافية لها ما يشبه الالتماس ببعض الظروف الزمنية، وهذا أمر لا إشكال فيه بل هو مطلوب بشدة من أجل مواءمة بين الواقع والحاجة، ولهذا أيضا رأينا اختلافا في طبيعة الخطاب القرآني بين مدنية ومكية ضمن هذا السياق، لكن أن يتحول الأمر إلى محاكمة لكل المكاسب والإنجازات فهذا ليس صحيحا مطلقا.

إن ما حدث من انتكاسة بقيادة السامري يمكن تعداده بما يلي:

أولاً: تأثير السابقيات الفكرية والعقائدية:

ليس في هذا الموطن فقط بان الأثرُ التاريخي للعقائد، وإنما حدثنا القرآن عن إشارة إلى ذلك لَمَّا خرج بنو إسرائيل من مصر حيث تراءت أمام أعينهم مجموعة من عبدة الأصنام ﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[٥]، كان هذا عبارة عن الاختبار الأول لبني إسرائيل، والسياق القرآني يرجع هذا التراجع العقائدي إلى الجهل بالعقيدة.

لكن الأمر لم يبق إلى هذا الحد، وإنما تغلغلت هذه الأفكار في ذهن أقرب الناس إلى الكليم موسى عليه السلام، ألا وهو السامري، « والسامري هذا هو من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة، وكان يعبد البقر قبل موسى عليه السلام، وهو من القيادات الذين خلفهم موسى عليه السلام على بني إسرائيل عند ساحل البحر »[٦] وهنا إشارة إلى أن الكل معرض لمثل هذه الاهتزازات الثقافية، فليس أحد يمتلك حصانة يوحي بها أنه لا يمكن أن ينزلق في أشباه هذه المزالق.

ثانياً: التلْبيس والملبِّسون:

إن أمثال هذه الأفكار الارتجاعية المطالبة بالعودة إلى ما قبل الإصلاح، لا تطفو على سطح المجتمع على حين غفلة، بقدر ما يتبين لنا من كلمات القرآن الحكيم وجود من يغذي مثل هذا الاتجاه، وفي

الحقيقة هنالك تلبيس وهنالك أيضا ملبسون، ولا فصل بينهما، يقول آية الله العظمى السيد المدرسي « يبدو أن السامري كان منافقاً يتحين الفرص وكانت مجموعة من الانتهازيين وضعفاء النفوس تلتف من حوله، وما إن تأخر موسى عليه السلام ظنوا أن الوفاة أدركته، وأشاع السامري فيهم أن موسى عليه السلام قد مات وصنع لهم العجل كرمز للسلطة، وأمرهم بعبادته مستغلا حب بني إسرائيل للذهب وللرواسب الشركية عندهم »[٧]. من هنا كان لزاما علينا توخي الحيطة والحذر من ثقافة التلبيس والتشكيك، وإنما يمكن لنا ذلك بالحفاظ على الثوابت والكليات وهنا لا يمكن التعلل بعدم وجود الثوابت والقواعد الكبرى، فهذه الأركان إن صح تسميتها موجودة في قواميس المصلحين، وهل يعقل القول مثلا كما في بني إسرائيل أن مسألة الإيمان بالله والدعوة إلى عبادة العجل يمكن النقاش فيها ؟!

وهذا يعني لنا أن المساس بهذه الأركان والقواعد خط أحمر، نعم التجديد في الأساليب وفي طبيعة الخطاب، وفي ما يقال لأي زمن هو. كل ذلك يمكن بسط الحديث فيه من دون مراعاة لأقوال المتزمتين الذين يريدون إبقاء ما كان على ما كان.

ثالثاً: محاولة السعي من أجل تحصين المجتمع ثقافياً وعقائدياً:

حتى لا ينساقوا خلف كل حامل دعوة وداع إلى كل شعار، وفي الحقيقة نحن لا نعيش في عالم لوحدنا نتحكم فيه بثقافة الأتباع والأنصار، وإنما عالم تتجاذبه العديد من التيارات والقوى الإعلامية، ولاشك أن هذه القوى تستخدم أساليب متنوعة من التلبيس والتدليس، لذا كان لزاما علينا أن نقوي جبهتنا الداخلية من حيث الثبات على المنهج والعقيدة، والمتأمل في سريان التضليل السامري يتعجب من اتساع مساحته، إذ كما تذكر الروايات التاريخية أن عدد بني إسرائيل كان يقرب من ٦٠٠٠٠٠ نسمة، من بقي منهم على عهد موسى والإيمان بالله ١٢٠٠٠ أي أن نسبة المتأثرين بتضليلات السامري حوالي ٩٠٪. إنها حقا نسبة تذهل العقل، لكن القرآن أشار إليها أيضا حين قال: ﴿ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[٨] □

الهوامش:

(١) سورة طه، آية/٨٥
(٢) سورة يونس، آية/٨٧
(٣) الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠ ص١١٤
(٤) الشيرازي، آية الله العظمى السيد محمد مهدي، تقريب القرآن إلى الأذهان، ج١١ ص١٣٦
(٥) سورة الأعراف، آية/ ١٣٨
(٦) التفسير الخاص، ج٤ ص ٤٥٦
(٧) المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدى القرآن، ج٧ ، ص٢٠٧
(٨) سورة آل عمران، آية/١٤٤

اللاعنف في المنهج الحركي لأهل البيت عليهم السلام*

■■ إبراهيم محمد جواد **

مصطلح اللاعنف في اللغة والقرآن:

أريد أن أوضح في البدء، أن اللغة العربية لم تعهد في عصور ازدهارها، كلمات من قبيل للاعنف، واللاوعي، واللامسؤولية، واللاظلم، واللاعدل، واللاسلم، واللاحرب... إلخ، كما أنها في واقع الأمر وحقيقته، غريبة كذلك عن لغة القرآن الكريم، لأنها صفات سلبية، لا تثبت فعلاً إيجابياً للإنسان، بل هي مجرد نفي لأفعال، قد يكون المرء مأموراً بها أو منهياً عنها، وإنها أقرب إلى الحياد بين الفعل والامتناع عنه.

إن الأساس الذي قام عليه بنيان اللغة العربية في جُلِّ مفرداتها، أن يكون لكل صفةٍ صفةٌ معاكسةٌ لها في المعنى، مساوية لها في الإيجابية، فالحرب يقابلها السلم، والظلم يقابله العدل، والعنف يقابله الرفق، وهكذا، والقرآن الكريم أكد بدوره هذا الأساس المتين، عندما أعرض عن استخدام المفردات العدمية السلبية، وأقام بنيانه المتين على المفردات الإثباتية الإيجابية، وهذا لا يعني أن اللغة العربية، ترفض استقبال تلك المفردات واستخدامها، لأنها من المرونة بحيث يتسع صدرها لكل جديد، مفيد لمعنى من المعاني المقبولة.

والذي يؤكد لنا أن صفة « العنف » ، إنما يقابلها في اللغة العربية صفة « الرفق » ، قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: « إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف »[1]، وقول الإمام أبي جعفر عليه السلام: « إن لكل شيء قفلاً، وقفل الإيمان الرفق »[2] والرفق في لغة العرب صفة إيجابية مرغوبة، تتجاوز مجرد الامتناع عن ممارسة أشكال العنف مع الآخرين، إلى الإقبال برغبة واندفاع، على ممارسة أنواع الرقة والرفق، والرأفة والرحمة، في التعامل مع جميع أفراد المجتمع الإنساني.

---

* باحث، سوريا. إجازة في الشريعة من جامعة دمشق.

على أن ظهور مصطلح « اللاعنف » كشعارٍ في عصرنا الراهن، جاء كرد فعل على شيوع أعمال « العنف » بشكل يلفت النظر، في المجتمعات الإنسانية المعاصرة وخصوصاً الغربية منها، تلك المجتمعات المدنية التي تنشد أن تسودها الألفة والوئام، وأن يتحلّى إنسانها بصفات الرقة واللطف، والشفافية الفكرية والسلوكية، ومن هنا فقط كان قبولنا لاستخدام هذا المصطلح الذي لا أساس لـه لا في القرآن، ولا في لغته العربية المبينة.

ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة هنا، إلى أن كلمة « العنف » أيضاً، لم ترد في القرآن مطلقاً، مثلها مثل كلمة « التطرف »، وهما كذلك نادرتا الورود جدّاً في الحديث النبوي، وعلى ألسنة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

وهدفنا من هذه الدراسة اليوم، بيان أن العنف فعل مذموم، منهي عنه في الإسلام، وأن « اللاعنف » هو الحد الأدنى المطلوب من المسلم، وله على ذلك أجر يتضاعف في حال الانتقال من حالة اللاعنف، إلى حالة الرقة والرفق، والرأفة والرحمة، وأول ذلك البيان، ما أوردناه قبل قليل، من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، أن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

وهكذا فإنه لا عنف ولا إرهاب ولا تطرفَ في الإسلام، وهي جميعاً أعمال مذمومة منهيٌّ عن ممارستها من قبل المسلم، وكذلك الأمر في كل الديانات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، مالم يلحقها التحريف والتزييف بعد أنبيائها ورسلها، إما جهلاً بالدين، أو خروجاً متعمّداً عن تعاليمه، وصولاً إلى غاياتٍ غير مشروعة.

السلام هو الأصل والحرب استثناء:

الإسلام في حقيقة أمره دعوة إلى السلام، والله سبحانه وتعالى هو السلام، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾[٣]، ويحث المسلمين على إقامة عظيم كيانه، وترسيخ شامخ بنيانه على السلم والسلام، سلام المرء مَع نفسه بتوحيد نوازعها ودوافعها، وسلامه مع ربه بصدق التوجه إليه وحسن تعهد شريعته، وسلامه مع مجتمعه بالحفاظ على أعرافه ومتبنياته، وسلامه مع باقي المجتمعات حيثما كانت، برعاية مصالحها المشروعة، والوفاء لها بالعهود والمواثيق القائمة بينها وبين مجتمعه، فلا يخلّ بشيء منها، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾[٦].

ولا غرو أن كانت تحية المسلمين في الحياة الدنيا، مشتقة أصلاً من هذا الشعار المبارك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾[٧]، وكذلك تكون تحيتهم في الحياة الآخرة ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾[٨].

وهكذا يأخذ السلام مأخذه من نفوسهم، ويترسخ في صدورهم وقلوبهم، حتى أنهم لا يتصرفون مع الناس، إلاّ وفق مقتضياته من اللين والرفق، والرأفة والرحمة، لأنهم ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾[٩].

ولذلك فإنهم ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾[١٠]، هذه هي سيرتهم، وهذا هو سلوكهم: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾[١١]، ولذلك فإن هؤلاء لهم ﴿ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[١٢].

وأما الحرب، فهي نوع من أنواع العنف الضروري، أبيحت استثناء للدفاع عن دار الإسلام، فإذا انتفى العدوان وجب إيقاف الحرب، والجنوح إلى السلم، طبقاً لقوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[١٣]، وبذلك تتم العودة بعد كل حرب، إلى الأصل الذي هو حالة السلم والاستقرار، والذي يتم فيه التبادل والتعاون، وتمارس خلاله كل حالات الألفة والمودّة، مصداقاً لقوله عزّ من قائل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[١٤]، فإذاً حصل التعارف واطّلع الناس على أحوال بعضهم البعض، قام التآلف والوئام مقام التخالف والخصام، وحل التعاون والتآزر، محلّ التنابذ والتناكر، لما في ذلك التعاون والتعاضد من المنفعة والمصلحة الحقيقية لجميع الناس شعوباً وأفراداً.

ورغم أن الحرب بحدّ ذاتها استثناء كما بيّنا، فإنها فوق ذلك مقيدة بكل القواعد الأخلاقية، التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه وأتباعه، والتي تنبع من مبدأ اللاعنف، فلا يُقتلُ مدبرٌ، ولايُجهَزُ على جريح، ولايعتدى على كهل، ولا امرأة ولا طفل، ولا يُقطَعُ شجرٌ ولا تُتلَفُ مزروعاتٌ، ولا تُهلك مواشٍ وحيواناتٌ، ولا تُدمَّر مساكن ومبانٍ، إلا في حالات الضرورة القصوى، وبشكل استثنائيٍ أيضاً.

كلمتا: « الجهاد » و « ترهبون » ما معناهما؟

على أن من الواجب توضيح المعنى الصحيح لكلمتي: « الجهاد » و « ترهبون »، اللتين وردتا في القرآن الكريم، واللتين قد أشكل معناهما على بعض الدعاة إلى الإسلام، وعلى خصومهم من غير المسلمين على السواء.

فكلمة « الجهاد »، التي وردت كثيراً جداً في القرآن الكريم، وبصيغ متعددة: جاهدوا، يجاهدون، تجاهدون، جهاده... إلخ، هي كلمة عامة شاملة، تعم كافة أنواع الجهاد الفكري منه والسياسي، والإعلامي والاقتصادي، والتربوي والعسكري و... و... إلخ، وهذا الجهاد يمكن أن يمارس داخل المجتمع المسلم وخارجه على السواء، باللسان أو القلم أو اليد أو القلب، فيبدأ من النفس لينطلق إلى الغير، وهو في كل حالاته لايعني العدوان على النفس أو الغير، وإنما يعني كبح جماح الظلم والعدوان، والقضاء على المنكرات والقبائح، وإزالة أشكال الفوضى والعبث.

والجهاد بكلمة جامعة مانعة، هو كبح جماح الدوافع نحو الشر، ودعوة الإنسان أفراداً وجماعات، إلى التحلي بخصال الخير والتخلي عن خصال الشرّ، كما يحددها الله العليم الخبير، لاكما تحددها نوازع البشر، وكما جاء بها الأنبياء والرسل، الذين لاينطقون عن الهوى ونوازع النفس، لاكما سطّرتها أيدي الحكماء والزعماء والفلاسفة، الذين لايمكن لهم

بأي حال من الأحوال، التخلص من عوامل الجهل ونوازع النفس نحو الهوى والشهوات.

وحسبَ توجيهات النبي ووصاياه، فإن خير الجهاد جهاد النفس، لأنه « الجهاد الأكبر » كما قال رسول الله ﷺ، وأفضله وأكمله وأتمّه « كلمة حق عند سلطان جائر ».

وأما كلمة « ترهبون »، فقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، عند بيان الفائدة المرتقبة، من إعداد كل أنواع القوة في الدفاع عن دار الإسلام، التي هي منطلق الدعوة إلى إشاعة أعمال الخير، وكبح نوازع الشر في المجتمعات البشرية.

قال الله العليّ العظيم في محكم كتابه الكريم ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[١٥]، وأتبعها على الفور وبلا أدنى تريث بقوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، بحيث يفهم كل امرئ عاقل، أن هذا الإعداد والاستعداد، إنما هو لدفع العدوان، وأن المقصود بكلمة « ترهبون » في هذا المقام، هو إدخال الرهبة والرعب في قلوب الأعداء، لكي يمتنعوا أصلاً، عن مجرد التفكير بشن أي حرب عدوانية على المسلمين، كما تمنع القوة النووية اليوم، من يمتلكها من التعرض لأي اعتداء خارجي، ولا تعني بأي حال من الأحوال، النية بالاعتداء على الآخرين، وإرهابهم بالقتل وسفك الدماء، وترويع الآمنين المطمئنين المسالمين، وتهديم البنيان وتخريب العمران، كما فعل الصليبيون مع المسلمين في العصور السالفة، وكما فعل المهاجرون الأوروبيون إلى قارة أمريكا، مع أصحاب الأرض الحقيقيين من الهنود الحمر، وكما فعل شُذّاذ الآفاق من الصهاينة المجرمين، مع المسلمين العرب في فلسطين، قبل خمسين عاماً بدعم مباشر من بريطانيا، وتأييد كامل من أوروبا وأمريكا، وصمت مطبق من بقية دول العالم، وكما لا يزالون يفعلون في أهلها اليوم، تحت سمع الدنيا وبصرها، من سفك دماء العزّل الأبرياء، من الكهول والشباب، والأطفال والنساء على السواء، يرهبونهم ويروِّعونهم، ويحاصرونهم ويجوِّعونهم، ويهدمون دورهم فوق رؤوسهم، بلا أي رادع من ضمير، ولا زاجر من قوة عالمية أو إسلامية أو عربية.

وصحيح أن هذه المفردة « الرهبة »، قد وردت بصيغ عديدة في القرآن الكريم، من مثل: يرهَبون، فارهبون، استرهبوهم، الرهْب، رهبة، رهَباً، رهبان، رهبانية، ولكنها في جميع تلك الصيغ، لم تخرج عن المعنى الذي ذهبنا إليه فيما تقدم، ولم تذهب بحال من الأحوال إلى معنى العنف والعدوان على الغير، ولا حتى على النفس.

سبب الانحراف عن القيم الإسلامية:

وإذا كان بعض الحكام في التاريخ الإسلامي، ومن انضوى تحت ظلهم من علماء السوء، قد دفعتهم أنانياتهم ومطامعهم الشخصية، وأهواؤهم النفسية، إلى الاعتداء على المجتمعات غير الإسلامية، مستظلين بهذه المفردات التي وردت في القرآن الكريم، وتبعهم في عصرنا الحاضر بعض الجهلة من دعاة الإسلام، فإنهم قبل ذلك قد اعتدَوا على حُرُمات المسلمين

أنفسهم، فأرهبوا وأرعبوا، وعذّبوا وقتلوا وشرّدوا، ما شاءت لهم أهواء أنفسهم، وعاثوا في أرض المسلمين طغياناً وكفراً، فليس الذنب في كل ذلك ذنب الإسلام، وإنما هو ذنب فريق كبير جداً من « المتأسلمين »، الذين انجرفوا وراء أهواء أنفسهم الشيطانية، وانحرفوا بشكل مبكر عن تعاليم الإسلام، ومالوا عن جادّته السويّة، عندما وسّدوا أمر الأمة إلى غير أهله، منصرفين عمن عينهم الله ورسوله لقيادة سفينة هذه الأمة، التي كانت خير أمة أخرجت للناس قبل هذا الانقلاب الخطير.

ولو أنهم يومها استقاموا على الجادّة، ولزموا بعد نبيهم جانب أهل العلم والخبرة، واهتدَوا بكواكب العترة، والتزموا منهجهم الرباني السويّ، لما مادت بهم سفينة الحياة، ولا تفرقت بهم سبلها، ولاظهرت في مجتمعاتهم هذه التأويلات والمصطلحات.

مصدر العنف وسببه:

في الندوة التي رعتها دار المدى اليسارية العلمانية، ورأستها الدكتورة بثينة شعبان، خلال الأسبوع الثقافي الذي أقيم في دمشق عام ١٩٩٩م، كان عنوان محاضرة الدكتور رفعت السعيد: « التطرف يبدأ فكراً »[١٦]، وقد أثار هذا العنوان الدكتور أحمد برقاوي، الذي قال في الرد على العنوان: « التطرف متعدد الأوجه، ومرتبط بتعين الثقافات »[١٧].

كما أثار السيد محمد جمال باروت، الذي اعتبر أن مقولة السعيد ليست دقيقة، « إذ أن التطرف ذو طبيعة متعددة أكثر بكثير مما يريد أن يقنعنا به الدكتور رفعت السعيد، فالنقطة التي يبدأ منها التطرف، هي نقطة تتشابك فيها عوامل عديدة ومعقدة، والغريب أن الدكتور رفعت، لم يدرسها في إطار علاقتها بالمسائل التاريخية المتعينة، لم يدرسها في علاقتها بمسائل التهميش، مسائل تحويل أمة إلى أمة مذلّة مهانة، لم يدرس علاقتها حتى بموضوع سيكولوجيا المضطهَدين... أظن أن هذه الأمور كلها، تتشابك وتنسج ما نسميه بالموقف المتطرف، وما يسمى في علم النفس الاجتماعي بالموقف المتعصب، والذي يشكل الفكر المتصلب أصلاً سمةً من سماته »[١٨].

والذي يستنتج من كل من الردين، أنه لا يجوز فصل أشكال العنف والتطرف عن إطارها التاريخي، وأن للعنف والتطرف في كل مرحلة تاريخية أسباباً ودوافع سبقتهما، واضطرّت فئاتٍ من الناس على ممارستهما في ذلك الظرف التاريخي المحدد، وأنهما لاينبتان هكذا من فراغ.

وفي رأيي أن جميع هذه الآراء صحيحة، إذ من الملاحظ وبشكل واضح، أن من العنف ما ينبثق عن الأهواء الفردية، والأنانية الشخصية، والمصالح الذاتية، وقد يكون الممارس لهذا النوع من العنف فرداً، وقد يكون عصابة، وقد يكون دولة، وهذه الدولة (السلطة) قد تمارسه ضد فئات من المجتمع الذي تحكمه، أو ضد دولة أخرى، فهذا كلّه عنف وإرهاب سلوكي.

عندما يأتي من يفلسف هذا العنف، ويحيطه بإطار فكري، ويعطيه مبرراً أيديولوجياً معيناً، يصبح عنفاً وإرهاباً فكرياً إيديولوجياً، وما أكثر ما كان يحصل ذلك في تاريخ

البشرية الطويل، وهو عنف وإرهاب غير مقصور على الاتجاهات الفكرية، والتشكيلات السياسية، والمذاهب الدينية، وإنما مورس على مرّ التاريخ منذ ابني آدم عليه السلام، ومن قبل جميع التجمعات البشرية دون استثناء.

هذا العنف والتطرف والإرهاب، إن مورس من قبل دولة على دولة أو أكثر، أو مجموعة من الدول على دولة أو مجموعة دول سواها، فإنه لا محيص أبداً عن مقابلته بمثله حتى يرتدع المعتدي عن عنفه وعدوانه، والاستعمار - قديمه وحديثه- خير مثال لهذا النوع من العنف والإرهاب، فقد أدى في كل مراحله المشؤومة، إلى الكفاح المرير والنضال المتواصل، من أجل تحرر الشعوب المنكوبة من نير هذا الاستعمار البغيض، واستعادتها لحريتها ومكانتها.

أما إذا مورس هذا العنف والإرهاب، من قبل السلطة الحاكمة، على أفراد من المجتمع الذي تحكمه، « مفكرين أو مثقفين أو كتاب أو شعراء، أو دعاة إلى فكرة أو مذهب أو دين أو حزب »، أو مورس على جماعات وفئات دينية أو حزبية أو مؤسسات ثقافية و.. و.. إلخ، فقد يقابل هذا العنف والإرهاب بعنف وإرهاب مثله، إذ أن العلاقة بين عنف وإرهاب المعارضة، وعنف وإرهاب السلطة، علاقة وثيقة الصلة كعلاقة الفرع بالأصل، وكلما زاد عنف وإرهاب الأصل « السلطة »، زاد في المقابل عنف وإرهاب الفرع « المعارضة » وبالعكس، ومهما قيل عن ضرورة « الدفاع عن تماسك أجهزة السلطة، تظل هذه منبت التطرف ومصدراً له، وتبقى هي الموقع المركزي الذي أمّن لحركات « العنف المتأسلم » شروط انطلاقها »[١٩]، فلو تخلّت السلطة عن ديكتاتوريتها وعنفها، ونحت في ممارساتها نحواً ديمقراطياً، سواء في أساليب الوصول إلى السلطة، أو في أساليب تصريف أمورها، لخفت صوت العنف والإرهاب في المجتمع، واختفت معظم مظاهرهما فيه، ولربما أمكن فتح باب عريض للحوار بين السلطة والمعارضة، يؤدي إلى الوصول إلى حلول وسط، تعصف بالعنف، وتنهي مظاهر التطرف والإرهاب.

على أن المجتمع -أي مجتمع- لا يمكن أن يخلو تماماً من كل أشكال العنف، إذ يبقى هناك العنف الذي يقع تحت عنوان « الجرائم »، والذي تكافحه قوات الأمن العادية، التي لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات المعاصرة، والذي يحال ممارسوه إلى القضاء، ليوقع بهم العقوبات التي نص عليها قانون الدولة.

العنف في حد ذاته أداة ووسيلة تُمتطَى، وليس هدفاً يُسعَى إليه، أداة ألجأت إليها الحاجات والمصالح المفترضة للأقوياء، وهدفهم من اللجوء إلى العنف تثبيت واقع عدم التكافؤ، وفرض التشريعات والقوانين التي تضمن بقاءه واستمراره، وهو- في ذات الوقت- وسيلة وأداة ألجأت إليها الحاجات والمصالح الضرورية للضعفاء، لاسترداد حقوقهم المسلوبة، وإعادة التوازن الذي أخلّت به مطامع الأقوياء.

ولقد كانت بنى المجتمعات الأوروبية ونظمها المعرفية والثقافية، أكثر البنى تأهُّلاً وقابلية واستعداداً لميلاد العنف والإرهاب والتطرف في هيكليتها، ونموّه وتطوره وتجدد

أشكاله وتنوع أساليبه في أحضانها.

فمنذ عهود الرومان الأولى، الذين دمّروا « قرطاجة » عام ١٤٦ قبل الميلاد، وصبوا الملح في أرض شمال إفريقيا كي تغدو عقيمة غير قابلة للزراعة[٢٠]، وبنوا أعتى الإمبراطوريات قساوة وعنفاً في التاريخ الحضاري للإنسانية[٢١]، والتي كان من أحد أركان بنيانها، نصيحة أم أحد الملوك لولدها: « إذا رمت عملاً يرفع ذكرك، فعليك بهدم كل ما شاده غيرك، والفتك بكل من ظفرت به، فإنك لن تشيد خيراً مما شاد سابقوك، وليس في مقدورك تحقيق إنجاز أنبل ليذيع صيتك »[٢٢].

إلى أوروبا الحملات الصليبية، التي تعتبر من أقسى النماذج التاريخية ممارسة للعنف، والتي تعد واقعة الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩م نموذجاً مثالياً لها، إذ قام فيها الصليبيون « بذبح كل المسلمين رجالاً ونساء وأطفالا، وفي معبد سليمان وحوله خاضت الجياد في الدم حتى الركب، بل وحتى اللجام،... أما بالنسبة ليهود القدس، فحين اجتمعوا في معبدهم الرئيسي أضرمت فيه النيران، وأحرقوا جميعاً أحياءً »[٢٣].

وجاءت بعد ذلك - في القرن الثالث عشر إلى بداية القرن الخامس عشر الميلادي-، مرحلة الرحلات والاكتشافات الجغرافية، قبل وبعد ماجيلان وكولومبس وكروزو، لتدخل الدول والكيانات والقوى الأوروبية في تنافس شديد على الأراضي والمسالك البحرية المكتشفة، ومنها حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨م) التي انتهت بمعاهدة « وستفاليا » سنة /١٦٤٨/م في بداية النهضة الأوروبية، فمعاهدة « أوتريخت » عام /١٧١٣/م لتنظيم وضع إسبانيا بعد توزيع المملكة بين عائلتي هابسبورغ وبوربون، فمؤتمر « فيينا » عام (١٨١٤- ١٨١٥)م لإعادة التوازن في أوروبا خوفاً من امتداد رياح الثورة الفرنسية إلى عروش أوروبا المحافظة، فمؤتمر « برلين » (١٨٨٤- ١٨٨٥)م، الذي يعد أحد المنعطفات التاريخية في مجال استعمار إفريقيا، وتفكيك وحدتها الجغرافية والاجتماعية والإثنية[٢٤].

في مرحلة الاستعمار هذه وما بعدها، اشتد التنافس من جديد، وكثر النزاع بين الدول الأوروبية على مناطق النفوذ، ولم تستطع كل تلك المؤتمرات والمعاهدات أن تحدّ من هذا التنافس والنزاع، لأن المطامع والمطامح كانت الأكثر حضوراً، ولأن ثقافة العنف والإرهاب كانت لها الفاعلية الكبرى، وكانت صيحة « توماس هوبز » : « ليست العقود بمعزل عن السيف سوى مجرد كلمات لا تكفي لحماية أي إنسان »[٢٥]، الأمر الذي جرّ في النهاية إلى حربين عالميتين، ليست فظائعهما عنا ببعيد.

وحتى لانطيل، نكتفي بإيراد نموذج واحد عما كانت تفعله الدول الأوروبية المستعمِرة، والأساليب والطرق التي كانت تنتهجها لاحتلال الدول المستعمَرة، ونأخذ هذا المثال من المذكرات الحربية في الجزائر للسيد « سانت آرنو » وهو واحد من أهم مساعدي « بيجو » قائد الحملة الفرنسية على الجزائر، يقول فيها: « لقد كانت حملتنا تدميراً منظماً أكثر منها عملاً عسكرياً، ونحن اليوم في وسط جبال « مليانة » لانطلق إلاّ القليل من

الرصاص، وإنما نقضي وقتنا في حرق جميع القرى والأكواخ، وإن العدو يفر أمامنا سائقاً قطعان غنمه... إن بلاد « مناصرة » بديعة جداً، لقد أحرقناها كلها، آه أيتها الحرب، كم من نساء وأطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج، فماتوا هناك من الجوع والبرد، وليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى وأربعين من الجرحى »[٢٦].

وفي كل تلك العهود والمراحل، كان العنف لدى الأوروبيين مباحاً، وكان يمثل في الثقافة الأوروبية قيمة اجتماعية وسلوكية كبرى كأداة صالحة في التعامل الدولي، سواء بين الأوروبيين أنفسهم، أوبينهم وبين سواهم، وإن كانوا في فترات تالية قد حاولوا كثيراً أن يخففوا من وطأة هذا العنف فيما بينهم، فكانت « عصبة الأمم »، وأخيراً « منظمة الأمم المتحدة »، و « مجلس الأمن » وما لحق بهما من مؤسسات دولية.

وأخيراً فإنه لا يجوز أن نغفل عن دور دول أوروبا وأمريكا وإسرائيل، ومساهمتها الكبرى في فرض وشيوع أشكال العنف والتطرف والإرهاب في العصر الحديث، حيث تجد هذه الجهات في ذاتها القوية ومؤسساتها الحضارية أهلية كافية، لأن تنصّب زعماءها ومسؤوليها ومصالحها، مرجعاً وحيداً للحق، وموئلاً لـه، « الأمر الذي يدفع إلى الأخذ بالكلمة، دون الأخذ بأيديولوجيا سياقها، فهذا السياق - وهو غريب عن الصدق والموضوعية- يسبغ صفة « الاعتدال » على من يشاء، ويلصق صفة « التطرف » بمن يشاء أيضاً، وفي هذا المنظور، يصبح تحطيم الولايات المتحدة للعراق ترجمة للشرعية الدولية، ويغدو الفلسطيني المنتسب إلى « الجهاد الإسلامي » متطرفاً، بل يصبح الموقف الوطني السوري - وهو عقلاني ومتسق في دفاعه عن سلام عادل وشامل- موقفاً متطرفاً، بينما تذهب صفة الاعتدال إلى جميع الممارسات الإسرائيلية »[٢٧].

منهج أهل البيت عليهم السلام في اللاعنف:

إن الرفق - الذي هو التعبير الإسلامي الأفضل عن مصطلح « اللاعنف » - سمة من سمات الأنبياء عموماً، وهو سمة نبي الرحمة والهداية، الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وسمة الأئمة الهداة من آله عليهم السلام، فقد كان الرفق - اللاعنف- مظهراً بيناً من مظاهر سلوكهم، ومعلماً واضحاً من معالم وصاياهم وتعاليمهم.

وقد برزت هذه السمة في منهجهم الفكري، وسلوكهم الحركي في الواقع العملي، بأشكال شتى وصور متعددة، منها:

١- عدم الإكراه على الإسلام والإيمان:

وذلك نزولاً عند قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الْغَيِّ ﴾[٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَنَ في الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ؟! ﴾[٢٩].

ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله، لم يُكْرِهْ أحداً من المشركين على الإسلام يوم تمّ له فتح مكّة، بل ترك للناس أن يقبلوا على الإيمان بهذا الدين طواعية عن يقين واقتناع، ولما جاءه صفوان بن أمية برفقة بلال بن رباح، خاطب النبي قائلاً: هذا يزعم أنك أمّنتني، قال النبي: صدق، قال صفوان: فاجعلني بالخيار شهرين، أي اتركني شهرين كي أنظر لنفسي إن كنت أريد الإيمان بهذا الدين أولا، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: أنت بالخيار أربعة أشهر.

وكذلك فإنه لم يكن يعيب على أحد من الناس ديناً ارتضاه، بل كان يقول لكل أصحاب الأديان الأخرى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٣٠]، وكان يخاطب أصحاب تلك الأديان بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[٣١]، وكان صلى الله عليه وآله، لايفتأ ينهى أصحابه وأتباعه عن التعرض لأصحاب الأديان الأخرى بالسب أو الشتم، وفقاً لنهي الله سبحانه وتعالى عن ذلك: ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٣٢]، وكذلك أوصى الإمام أبو عبدالله عليه السلام شيعته، وحذّرهم قائلاً: « ... وإياكم وسب أعداء الله، حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم »[٣٣].

ولم يكونوا عليهم السلام يأمرون بشيء أو ينهون عنه، مالم يكن ذلك الشيء راسخاً في عقيدتهم، ظاهراً في خلقهم وسلوكهم.

٢- العفو والصفح:

لابد لكل امرئ يريد أن يتجنب العنف، وأن يتحلى باللين والرفق، أن يتحصن قبل ذلك بحصن العفو عن المخطئين، والصفح عن المسيئين والمذنبين، ولقد أمر الله سبحانه وتعالى، رسوله محمداً صلى الله عليه وآله، والمسلمين معه والمؤمنين به، أن يتخلقوا بهذا الخلق الجميل، وأن يتحلّوا بهذه الصفة الحسنة، فقال عزّ من قائل لنبيه الكريم: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣٤]، وقال له كذلك: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[٣٥]، وقال سبحانه وتعالى للمؤمنين: ﴿ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ﴾[٣٦]، وقال لهم كذلك: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ؟ ﴾[٣٧]، وقال لهم: ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣٨].

وانطلاقاً من هذه التوجيهات الربانية، فقد وقف النبي ذات يوم خطيباً في المسلمين، فقال:

« ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة، العفو عمن ظلمك، ووصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك »[٣٩].

ولم تكن كل هذه التوجيهات والوصايا لتذهب هدراً، فقد نهد للعمل بها والاهتداء بهديها، فريق كبير من المسلمين، على رأسهم أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن اقتدى بهم واهتدى بهديهم، فعندما شكا رجل من المسلمين خدمه إلى رسول الله، صلى الله عليه وآله، قال له: « اعف

عنهم تستصلح قلوبهم » ، قال الرجل: يارسول الله، إنهم يتفاوتون في سوء الأدب، فما زاد على أن قال له: « اعف عنهم » ، ففعل الرجل[٤٠].

وبينما كان أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام، يهم بالخروج من المسجد بعد أداء الصلاة، رماه أحد الخوارج بكلمة هجاء قارصة، فتوقف يسأل عن قائل تلك الكلمة، فقال الرجل: هاأنذا ياأمير المؤمنين، وإن تعفو وتصفح فأنت أهل لذلك، قال: عفوت وصفحت[٤١].

ومن عظيم حلم الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، أن رجلاً شامياً التقاه يوما، فراح يسبّه وأباه ويشتمهما، فأقبل عليه الإمام الحسن ضاحكا، وقال له: أظنك يا شيخ غريباً، ولعلك شبّهت ولم تعرفني، قال الرجل: أولست الحسن بن علي؟ قال: بلى أنا هو، ولكن لو استعتبتنا يا شيخ لأعتبناك، ولو سألتنا لأعطيناك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، وإن كنت جائعاً أطعمناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وأن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حوّلت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعْوَدَ عليك، لأن لك لدينا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً، فخجل الرجل من سماحة الإمام مقابل فظاظته، ومن حلم الإمام على جهله، وبكى معتذراً نادماً، ثم قال للإمام: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يضع رسالته، لقد كنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت وأبوك أحب خلق الله إليّ[٤٢].

وكان الإمام الصادق عليه السلام ذات يوم في حائط له، فجاؤوه بأحد غلمانه وقد وارى كارةً (صرّة) من تمر خلف الحائط، فقال له الإمام: أتجوع يا فلان؟ قال الغلام: لا يا سيدي، قال له: أفتعرى؟ قال: لا يا سيدي، قال له الإمام: فلأي شيء أخذت هذه؟ قال: اشتهيت ذلك، قال الإمام: خلّوا عنه، اذهب بها فهي لك[٤٣].

ولقد قال الإمام زين العابدين، علي بن الحسين عليهما السلام، مشيراً إلى حسن جزاء هؤلاء الأبرار عند ربهم « إذا كان يوم القيامة، جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم ينادي منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا نصل من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا، فيقال لهم: صدقتم، ادخُلوا الجنة »[٤٤].

٣- الحلم وكظم الغيظ:

قال الله تعالى يصف نفسه لعباده: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[٤٥]، وقال سبحانه يصف عباده المتقين: ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، واللّه يحب المحسنين ﴾[٤٦].

وتعتبر هاتان الصفتان - كسابقاتهما-، من أبرز مصاديق اللاعنف في منهج الإسلام وسيرة أهل البيت عليهم السلام، فإذا كان الحلم اسماً من أسماء الله العظمى، وصفة من صفاته جلّ جلاله، فما أجمل أن يتصف بها رسله وأولياؤه والمؤمنون من عباده.

ولذلك قال الإمام علي عليه السلام: « ثلاثة لاينتصفون من ثلاثة: شريف من وضيع، وحليم

من سفيه، ومؤمن من فاجر »[٤٧]، وقال عليه السلام، فيما أوصى به ابنه الإمام الحسن عليه السلام: « يا بنيّ، العقل خليل المرء، والحلم وزيره، والرفق والده، والصبر من خير جنوده »[٤٨].

وفيما كان الإمام علي عليه السلام، يصلي ذات يوم صلاة الصبح، سمع الخارجيَّ ابنَ الكوّاء، يقرأ من خلفه وهو يقصده: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٤٩]، فأنصت الإمام تعظيماً للقرآن، ثم تابع صلاته، ولكن ابن الكوّاء عاود قراءة الآية ثانية ثم ثالثة، فلما انتهى ابن الكوّاء من قراءته، تلا الإمام قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾[٥٠]، ثم أتمّ السورة وركع[٥١].

وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: « إذا وقع بين رجلين منازعة، نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلتَ وقلتَ وأنت أهل لما ستُجزى بما قلتَ، ويقولان للحليم منهما: صبرتَ وحلمتَ، سيغفر الله لك إن أتممتَ ذلك »[٥٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام، يصف الحلم ويزينه لأتباعه: « الحلم سراج الله، يستضيء به صاحبه، ولا يكون حليماً إلاّ المؤيَّد بأنوار المعرفة والتوحيد، والحلم يدور على خمسة أوجه: أن يكون عزيزاً فيذل، أو يكون صادقاً فيُتَّهم، أو يدعو إلى الحق فيستخف به، أو أن يؤذى بلا جرم، أو أن يطلب الحق فيخالفوه فيه »[٥٣].

ولربما اعتبرت هاتان الصفتان، بمثابة صفة واحدة، قال النبي الرحيم صلى الله عليه وآله: « ما من جرعة أحب إلى الله من جرعتين، جرعة غيظ يردّها مؤمن بحلم، وجرعة جزع يردّها مؤمن بصبر »[٥٤]، وعندما سأل أمير المؤمنين عليه السلام ابنه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: يا بنيّ ما الحلم؟ أجابه: الحلم كظم الغيظ وملك النفس[٥٥].

روي أن جارية للإمام السجّاد عليه السلام، كانت يوماً تسكب على يديه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فارتعبت وبادرت تقول للإمام: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾، قال عليه السلام: قد كظمت غيظي، وعندئذٍ سُرِّيَ عنها وتمالكت جأشها فأضافت: ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾، قال عليه السلام: عفوت عنك، قالت: ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٥٦]، قال عليه السلام: اذهبي، فأنت حرّة لوجه الله تعالى[٥٧].

وكان الإمام زين العابدين، علي بن الحسين عليهما السلام يقول: « ما تجرّعت جرعة غيظ قط، أحب إليّ من جرعة غيظ أعقبُها صبراً »[٥٨].

٤ - السماحة واللين:

السماحة واللين، هما من السمات الرئيسية المهمة للمؤمن، الذي يتحلّى بالرفق ويجتنب العنف، كما يظهر من قول الرسول الأكرم، صلى الله عليه وآله: « ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غداً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الهيّن اللّيّن »[٥٩]، وقوله: « المؤمن هيّنٌ ليّنٌ سمْحٌ »[٦٠]، وذلك لأن « المؤمن يدرك بالحلم واللين درجة العابد المتهجّد »[٦١].

وقد انطلق منهج أهل البيت الكرام عليهم السلام من هذا الخلق القويم، ونهلوا من معين هذا

المنهل العذب، فكانت السماحة سفينتهم، وكان اللين مع الناس مذهبهم، فهذا لبيد بن عطارد التميمي، كان يكثر من الكلام في أمير المؤمنين، فبعث إليه مرّةً من جاءه به، وأمر به أن يُضرَبَ تعزيراً ليمتنع عن الهجاء، فقال لبيد: نعم والله، إن المقام معك لَذُلٌّ، وإن فراقك لكفر، فقال له عليه السلام: قد عفونا عنك، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٦٢]، أما قولك: إن المقام معك لَذُلٌّ فسيئةٌ اكتسبتَها، وأما قولك: إن فراقك لكفر، فحسنةٌ اكتسبتَها، فهذه بهذه[٦٣].

وقال الإمام أبو عبد الله عليه السلام، من وصية لأحد أفاضل شيعته وهو « المفضل بن عمر »: « وإن شئتَ أن تُكْرَمَ فَلِنْ، وإن شئتَ أن تهانَ فاخشنْ، ومن كَرُمَ أصله لان قلبُه، ومن خَشُنَ عنصره غَلُظَ كَبِدُه »[٦٤].

٥ - الرأفة والرحمة:

إن الرأفة والرحمة اسمان من أسماء الله العظمى، وهما صفتان ملازمتان للباري عزّت أسماؤه وجلّت صفاته، لاتنفكان عنه بحال من الأحوال، فهو الرؤوف بعباده الرحيم بهم، وهو الرحمن الرحيم، ولذلك فقد افتتح سُوَرَ كتابه المقدّس « القرآن الكريم » بقوله عزّ من قائل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، عدا سورة براءة استثناها من هذه القاعدة المطّردة، وبذلك علّم المسلمين، أن يفتتحوا كل عمل من أعمالهم بهذا الشعار المبارك، لتكون الرحمة رائدهم، ولتكون الرأفة ممزوجة في كل تحركاتهم وأعمالهم.

ولقد بعث الله سبحانه وتعالى، نبيه محمداً صلى الله عليه وآله، متصفاً - ككل الأنبياء -بهاتين الصفتين العظيمتين، وقال عنه في محكم تنزيله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٦٥]، فكان سلوك النبي في كل مراحل حياته، مصداقاً لما وصفه به ربّه من الرأفة والرحمة، وعمل بكل ما أوتي من حكمة وصبر، على ترسيخهما في قلوب وصدور المسلمين.

فعندما تمّ للإمام علي عليه السلام فتح حصون خيبر، بعث صفيّة بنت حُيَيْ بن أخطب للنبي مع بلال بن رباح، فجزعت جزعاً كبيراً كادت تزهق معه روحها، عندما مرّ بها بلال على القتلى من أهلها، فلما علم النبي بذلك، عنّف بلالاً على ما أقدم عليه، وعاتبه قائلاً له: « أنُزعت من قلبك الرحمة يا بلال؟ »[٦٦].

ويوم فتح مكة، كانت إحدى رايات المسلمين بيد سعد بن عبادة، فهز الراية بيد، والسيف باليد الأخرى، وراح ينادي وهو يهم بدخول مكة: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فأرسل النبي علياً فأخذ الراية من سعد، وراح ينادي بأعلى صوته: اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمة[٦٧].

وعندما تمّ للنبي فتح مكة، وأصبح وجهاً لوجه أمام أهلها، الذين لاقى منهم كل أصناف الاضطهاد، وجميع أشكال الأذى، ووقفوا بين يديه موقف الضعفاء المهزومين من

القوي المنتصر، ناداهم بصوت تملؤه رنة الرحمة والرأفة، ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ وأنطقهم صوت الأمل بالنبي الذي عرفوه حليماً رؤوفاً رحيماً، فقالوا بصوت واحد: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، ولم يخيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ظنهم به، فقال لهم: « أقول لكم كما قا ل أخي يوسف لإخوته: لاتثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء »[٦٨]، فلم يعاملهم المعاملة التي يستحقونها من القتل أو الأسر أو الاسترقاق.

وعندما علم عبدالله بن الزبعري بهذا الموقف الإنساني الرحيم، وكان قد فرّ من مكة خوفاً من انتقام النبي منه، لأنه كان هجّاءً، شديد الوطأة في شعره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعرف أن محمداً رسولُ الرحمة والرأفة للإنسانية جمعاء، رجع إلى مكة، واعتذر بين يدي النبي مما بدر منه من الجهل والسوء، وسرعان ما قبل النبي اعتذاره، وعفا عنه، وأمر له بحُلّة[٦٩].

هذه إلماحات مختصرة، من مظاهر اللاعنف في المنهج الحركي، الذي رسمه أهل البيت عليهم السلام لأتباعهم، والسائرين على نهجهم القويم، وهي مشاعل نور تضيء دروب الدعاة إلى الله، وتنير قلوب العاملين على نشر ألوية رسالة الإسلام بين العالمين، وبهذا المنهج يتأكد أن الإسلام هو الخير المحض للإنسانية جمعاء، وأنه الدين العالمي الجدير بأن تجتمع عليه كلمة الأمم دون استثناء □

الهوامش:

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي ١٥/ ٢٦٩ الحديث رقم ٢٠٤٧٨ -صحيح مسلم ١٦/ ٣٦٢.
(٢) الكافي للكليني ٢/ ١١٨ باب الرفق الحديث الأول.
(٣) يونس/ ٢٥.
(٤) البقرة/ ٢٠٨.
(٥) الإسراء/ ٣٤.
(٦) النحل/ ٩١.
(٧) النور/ ٢٧.
(٨) إبراهيم/ ٢٣.
(٩) الفرقان/ ٦٣.
(١٠) القصص/ ٥٥
(١١) الفرقان/ ٦٣.
(١٢) الأنعام/ ١٢٧.
(١٣) الأنفال/ ٦١.
(١٤) الحجرات/ ١٣.
(١٥) الأنفال/ ٦٠.
(١٦) مجلة « النهج » اليسارية، السنة/ ١٥/ العدد/ ٥٦/ ص ١٢٦.
(١٧) المصدر السابق ص ١٣٦.
(١٨) المصدر السابق ص ١٤٠.
(١٩) « التطرف الأصلي والتطرف الثانوي » للدكتور فيصل درّاج، مجلة « النهج » اليسارية (مصدر سابق) ص ١٢٢
(٢٠) مجلة « الوحدة » المغربية، السنة السادسة، العدد ٦٧، وللاطلاع أكثر يراجع كتاب « صمود وسط الإعصار » للسيد عبد الله إبراهيم.
(٢١) القانون الدولي في وقت السلم، حامد سليمان ص ١٨٩ ومابعد.
(٢٢) كافين رايلي، الغرب والعالم ص ١٧٦.
(٢٣) المصدر السابق ص ١٩٧.
(٢٤) مجلة « لوحدة » المغربية، السنة السادسة العدد ٦٧ ص ١٠- ١١.
(٢٥) مجلة « الوحدة » المغربية (مصدر سابق) ص ١٢.
(٢٦) المصدر السابق ص ١٢.
(٢٧) التطرف الأصلي والتطرف الثانوي » للدكتور فيصل درّاج، مجلة « النهج » اليسارية (مصدر سابق) ص ١٢٤- ١٢٥.
(٢٨) البقرة/ ٢٥٦.
(٢٩) يونس/ ٩٩.

(٣٠) الكافرون/ ٦.
(٣١) آل عمران/ ٦٤، ومعنى ذلك: ادعوهم إلى توحيد الألسنة والقلوب على هذه المعتقدات الرئيسية، فإن استجابوا فبها، وإلاّ فاتركوهم وما يعتقدون، إذ لم يجعل الله لكم عليهم سبيلاً، وأشهدوهم أنكم مسلمون مؤمنون بهذه المعتقدات، مستقيمون عليها.
(٣٢) الأنعام/ ١٠٨.
(٣٣) تفسير « نور الثقلين » للحويزي ١/ ٧٥٧ الحديث رقم ٢٣٨.
(٣٤) المائدة/ ١٣.
(٣٥) الزخرف/ ٨٩.
(٣٦) البقرة/ ١٠٩.
(٣٧) النور/ ٢٢.
(٣٨) التغابن/ ١٤.
(٣٩) الكافي للكليني ٢/ ١٠٧ باب العفو الحديث الأول.
(٤٠) المستدرك على وسائل الشيعة للشيخ النوري ٩/ ٧ الحديث رقم ١٠٠٥٥.
(٤١) بحار الأنوار للمجلسي ٤١/ ١٣٢-١٣٣.
(٤٢) مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب ٤/١٩.
(٤٣) الكافي للكليني ٢/ ١٠٨ باب العفو الحديث رقم: ٧.
(٤٤) الكافي للكليني ٢/ ١٠٧ باب العفو الحديث رقم: ٤.
(٤٥) البقرة/ ٢٣٥.
(٤٦) آل عمران/ ١٣٤.
(٤٧) أمالي الطوسي ص ٦١٤ المجلس التاسع والعشرون الحديث رقم ٦.
(٤٨) أمالي الطوسي ص ١٤٦ المجلس الخامس الحديث رقم ٢٤٠.
(٤٩) الزمر/ ٦٥.
(٥٠) الروم/ ٦٠.
(٥١) بحار الأنوار للمجلسي ٤١/٤٨.
(٥٢) الكافي للكليني ٢/١١٢باب الحلم الحديث رقم٩.
(٥٣) المستدرك على وسلئل الشيعة للنوري١١/ ٢٨٩ الحديث رقم: ١٣٠٥٢.
(٥٤) الأمالي للشيخ المفيد ص١١ المجلس الأول الحديث رقم: ٨.
(٥٥) المستدرك على وسلئل الشيعة للنوري ٩/ ١١الحديث رقم: ١٠٠٥٦.
(٥٦) آل عمران/١٣٤.
(٥٧) مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب٤/١٥٧ - كشف الغمة في معرفة الأئمة للعلاّمة أبي الفتح الاربلي ٢/٢٩٩.
(٥٨) أمالي الطوسي ص ٦٧٣ المجلس السادس والثلاثون الحديث رقم ٢٦.
(٥٩) وسائل الشيعة للحر العاملي ١٢/ ١٥٨ الحديث رقم ١٥٩٤٣.
(٦٠) وسائل الشيعة للحر العاملي ١٢/ ١٥٩ الحديث رقم ١٥٩٤٦.
(٦١) المستدرك على وسائل الشيعة للنوري ١١/ ٢٨٨ الحديث رقم ١٣٠٤٧.
(٦٢) المؤمنون/ ٩٦.
(٦٣) بحار الأنوار للمجلسي ٤١/ ٤٩.
(٦٤) الكافي للكليني ١/ ٢٧ الحديث رقم ٢٩.
(٦٥) التوبة/ ١٢٨.
(٦٦) بحار الأنوار للمجلسي ٢١/ ٢٢.
(٦٧) « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » المعروفة بالسيرة الحلبية ٣/ ٩٥ - مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب ١/ ٢٠٨. مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٦٢ م.
(٦٨) المصدر الستبق ٣/ ١١٣.
(٦٩) مناقب آل أبي طالب لابن شهراشوب ١/ ١٦٦.

الإمام الشيرازي..
ملامح المدرسة وآفاق التجديد

المشاركون

- الشيخ محمد العليوات
- الشيخ زكريا داوود
- السيد محمود الموسوي
- الشيخ ناجي زواد
- عباس الجمري
- الشيخ فيصل العوامي

الحريات... قراءة في فكر الإمام الشيرازي قدس سره

■■ الشيخ محمد العليوات*

يعد الإمام المرجع الشيرازي رضي الله عنه من عمالقة الفكر الإنساني... الذين دافعوا عن الإنسان كإنسان بغض النظر عن أصله وديانته وقوميته ومذهبيته، وقد كرس جهداً كبيراً من حياته الشريفة ليس للذود عن العقيدة الإسلامية فحسب بل للذود عن قضايا الإنسان.. بل و أمهات القضايا الكبرى كالحرية والعدالة والمساواة والشورى..

ثلاثة عقود ونيف ما فتئ ينافح ويناضل لإعلاء قيمة الإنسان الذي كرمه خالقه، وأذله بعض البشر ! ومن النادر أن تجد مرجعا دينيا وظف هذا الكم الهائل من المعارف الدينية في القضايا المعاصرة، لكنه تميز رضي الله عنه بهذا العقل التنويري الذي سبق الكثير بأفكاره وأطروحاته حتى عهدها البعض (القاصر) مثالية وخيالية في عصر الجدب والعجز والظلام واليأس!

ففي حين كان الحديث يدور عن أحكام الحيض والنفاس بعمق.. كان عقله يحلق في آفاق العلم والمعرفة وقضايا الإنسان الكبرى. لقد وظف تلك المعارف الدينية في معركته الكبرى ضد الجهل والتخلف والاستبداد. بواسطة فقه ديني واسع غني المضامين..

إن من أهم الموضوعات التي شغلت الفقيه والمفكر الكبير الشيرازي هي مسألة الحريات وقد توسع في شرحها والدفاع عنها والتأكيد على ممارستها. ومنذ وقت مبكر أصدر كتابا في هذا الشأن بعنوان (الحرية في الإسلام) عندما كان في مدينة كربلاء بالعراق، وعاد مجدداً إلى هذه القضية مجددٍ ومبدع في كتاب (الحريات)[1].وغيره من كتبه.

مما يدل على رسوخ هذه القضية في وجدانه، وإنها تشغل جزءاً كبيراً من اهتمامه.. باعتبارها أحد مفاتيح الإصلاح في العالم الإسلامي.

---

* عالم دين ومفكر إسلامي - السعودية.

ويبدو أن التأمل المتأني للإمام الراحل في أحوال العالم الإسلامي وخصوصا التجارب الإسلامية الحديثة ودراسته لتجارب الشعوب والدول المختلفة قاده إلى تشخيص أن الداء الأكبر الذي يعاني منه المسلمون هو تجذر الدكتاتوريات.. وغياب الحريات في مختلف مجالات الحياة.

وعن الدكتاتورية خصص الإمام الشيرازي بحوثا مستقلة في كتبه وبالأخص ممارسة التغيير، « فباعتقاده أنها الكابح الأول لتقدم الأمة، فبمجرد أن تُطهر أجواء بلاد الإسلام من الدكتاتورية تسير الأمة إلى الأمام لبناء حضارة إسلامية صحيحة تنقل المسلمين من الحضيض الذي وصلوا إليه الآن إلى الأوج الذي أراده الإسلام »[٢].

وليس الدكتاتورية هي ممارسة الحاكم فقط، إذ أن أرضية الدكتاتورية اجتماعية وأسرية، فقد يمارس الأب دور المتسلط (الصغير) الذي يصادر حقوق أبنائه وبناته بتبريرات سخيفة لا ترقى إلى مستوى العقل، باسم الدين جهلا منه بحقوق الأبناء والبنات في التشريع الإسلامي.

و قد يمارسها الزوج على زوجته باسم القيمومة، وهو لا يقوم بوظائف القيمومة ومتطلباتها. بل قد تصبح الدكتاتورية شلالاً اجتماعياً عاماً، فيمارسها الموظف والشرطي متقمصا دور الدكتاتور الحاكم... وهكذا... حيث أن الاستبداد لا يكون حاكما إلا بوجود مستبد، وأرضية اجتماعية للاستبداد، من هنا يقول الإمام الراحل: « إن الدكتاتورية لا شكل لها ولا لون بل هي حالة مرضية وقد يصاب بها حاكم من الحكام فيقود أمته إلى الدمار والخراب، وقد يصاب بها الأب الذي يقود أسرته إلى التحلل والطلاق، وقد يصاب بها مجتمع بأسره فيصبح مجتمعا دكتاتوريا فيحلو له كل ما يحمل صفة الدكتاتورية، فيطيب له رؤية الحاكم المستبد »[٣]. وبالتالي يتكيف ويتعايش مع هذه الحالة المرضية.

فلسفة الدكتاتورية

ويحلل الإمام الراحل عمق الدكتاتورية، ويسبر غورها ويشرح ماهيتها وخطرها ويرجعها إلى مشكلة تمركز القدرة في أيدي جماعة قليلة تنتهي بالأخير إلى فرد واحد، فإن من طبيعة القدرة المتمركزة كبت القابليات و إبادة الكفاءات ومنع الناس من أن يفكروا أو يقولوا، وإذا خيم جو عام من الدكتاتورية وأصبح حاكما فإنه إيذان بموت المجتمع... وموت الفكر وهو كما نرى تحليل عميق يصيب المرمى... ويضع الأمور في نصابها.. فليست الدكتاتورية إلا ذلك.(تمركز القوة في أيد قليلة).

أشد الدكتاتوريات

ويستنتج الإمام الشيرازي من خلال تحليله لماهية الدكتاتوريات أن أشد أنواع

الدكتاتوريات ضراوة هي دكتاتورية الحاكم حيث تتولد الكثير من المفاسد الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية جراء ذلك.

الحرية الوجه الآخر

لقد أدرك الإمام الراحل بفكره المستنير، وبصيرته الثاقبة أن العالم الإسلامي يعج بمختلف الدكتاتوريات وتتكرس فيه قيم الدكتاتورية بتكرس الجهل، وأن لا مخرج من هذا الواقع البائس إلا عبر الحريات.. فهي التي تكسر حاجز الدكتاتورية، وتهيئ لمناخات الكرامة والعزة والعدالة والمساواة وهي العلاج الناجع.. وقد فصل ذلك كله في كتاباته المختلفة وبالأخص كتابه الموسوم (بالصياغة الجديدة). حيث ينذر خلو كتاب من كتبه من مدح الحرية ونبذ الدكتاتورية. حيث كان كارها ومعاد لها ويعتبرها أساسا لكل بلاء وانحطاطا وكان عاشقا للحرية منافحا ومناضلا عنها، وعاملا في سبيلها، بإصرار، وصبر منقطع النظير. لأنها بداية كل خير وتقدم وتحضر. ورؤية الإمام الشيرازي للحرية واسعة وخصبة، بخصوبة الدين وسموه، فلم يخضع أفكاره للمعادلات الاجتماعية التقليدية السائدة التي تمثل الواقع الحاكم.

وعنده أن الإسلام أعطى الإنسان حرية الفكر، وحرية القول والعمل لكن في الإطار المعقول الصحيح من عدم الإضرار بالآخرين وعدم الإضرار بالنفس.

تأصيل الحرية

وما يميز رؤية الإمام الراحل للحرية ويضاعف من قيمتها كونها نابعة من رؤية فقيه عارف متبحر في الفقه الإسلامي وأصوله، يسند مقولاته حول الحرية بنصوص وأدلة دينية، مما يعني أن تلك المقولات مؤصلة ومتصفة بعلمية منضبطة بالأدلة والبراهين.

ومما استدل به حول موضوع الحرية بشكل مجمل عبر القرآن الكريم والسنة المتواترة وسيرة الرسول ﷺ و أهل بيته الطاهرين. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[٦].

وقد استدل من السنة الشريفة كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً ».

أن تلك الآيات والأحاديث مؤداها أصالة الحرية، كأصالة الإباحة تماما وهذا يعني أن الأصل الحرية إلا ما أخرجه الدليل وأن الناس مسلطون على أنفسهم وأموالهم يتصرفون كيف يشاءون.. ومتى يشاءون وليس لأحد سلب تلك الحرية عنهم.. فالأصل أن يكونوا أحراراً.

الحرية: الإطار الفكري.

وعمق الحرية في الفكر الإسلامي يرتبط في الأساس بكون الإنسان عبدا ذليلاً مطيعا لله سبحانه وتعالى دون سواه، من الآلهة البشرية أو الخرافية، متحرراً من كل قيود الشهوات، وأصر المصالح الضيقة، والمطامع الرخيصة التي تذل الإنسان وتجعله أسير شهواته ونزواته وأنانيته ومصالحه، ومتى ما خلع الإنسان ثوب العبودية، وتحرر من تلكم الشهوات والرغبات الجامحة والملحة، وتخلص من ضغوط المادة، وتحرر من سيطرة أصحاب النفوذ الاجتماعي أو السياسي بل والثقافي، وتسامى عن ذلك كله، وأخضع كل جارحة فيه في طاعة الخالق، وهذب ملكاته في طريق التقوى، والصلاح، فقد أصبح حراً، متحرراً من كل القيود راغباً في مرضاة الخالق، متمسكاً بتلك الحدود الشرعية من قبل الخالق غز وجل، واقفاً عندها وغير متجاوز لها.

أصناف الحريات

ومما يدلل على أفقه الواسع في نظرته للحريات إيمانه بأنواع الحريات التي قسمها كالتالي:

أولاً: الحرية الدينية... فالحرية الدينية عنده عامة لكل الناس حتى الكفار، حيث يكفل الإسلام لهم حرية ممارسة دينهم، فالكفار الذين يعيشون في ذمة الإسلام يباح لهم أن يعملوا بدينهم استناداً إلى رواية « ألزموهم بما التزموا به ». وتتضمن هذه المقولة تسامحا نحو الأديان. حيث أن لهم الحرية في إبراز عقيدتهم، دون أن يدعو المسلمين إليها، كما أن لهم الحرية قي إجراء مراسيم عبادتهم ولا يتعرض لهم مسلم بسوء. ولا يحق للدولة أن تتدخل في شؤونهم العبادية والقضائية التي لا تضر بالمسلمين، ولا تتنافى مع مصلحة البلاد، بل و للدولة الحق في برهم والإحسان إليهم استناداً على الآية الشريفة ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّه يُحِبُّ الْمُقْسِطين ﴾[٧]. وفقه الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وحتى في القضاء فإن للكفار أن يراجعوا قضاتهم أو يختاروا قاضي المسلمين.

ثانياً: الحرية الفكرية.. أي حرية البحث والمناقشة والبحوث العلمية الدينية.. والنشر في الجريدة والمجلة وما أشبه. كل تلك الحريات مكفولة لكل الناس.

ثالثاً: الحرية السياسية.. وهي التي تتناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم وإن الحاكم يجب أن يكون باختيار الأمة، ومن يتوفر فيه رضا الله سبحانه وتعالى وسائر الشروط الإسلامية، وكلها شروط يؤكد عليها العقل كأن يكون عالما بالغا عادلا ويمكن إدراج مصاديق عديدة للحرية السياسية ذكرها الإمام الراحل كحرية المجتمع، وحرية إبداء الرأي، وحرية إنشاء الجمعيات وتكوين النقابات وإنشاء الأحزاب، وحرية المظاهرات والإضرابات

كالإضراب عن الطعام.

رابعاً: الحرية الاقتصادية: حرية العمل والتجارة والكسب وما أشبه.

ويوسع المرجع الراحل آفاق الحريات كما في كتابه الموسوم (الحريات) إلى كل مباح حيث اعتبر أن كل مباح في الشرع. هو نوع من الحرية في الإسلام وقد عدد مائة من الحريات من قبيل حرية الزواج، ولإنجاب، والحرية في السفر، وانتخاب الوظيفة وما أشبه[٨]

حدود الحرية

وحتى تتحدد أطر الحرية السائغة في نظره فقد أكد على أن الحرية في الإسلام ينبغي أن تكون حرية بناء وليست حرية هدم كما هو الحال في الغرب، حرية مقدسة وليس امتصاص ثروات ودماء الآخرين، كما يجب أن تكون حرية مسئولة، فالإسلام يرفض الحرية التي تؤدي إلى الزنى لما يجر من ويلات وأمراض وتفكك أسري وإلى اغتصاب أموال الناس.

ومن سمات الحرية وشروطها أن تكون إنسانية ترفع من شأن الإنسان وتوصله لمصاف الملائكة.

وضابطة كل ذلك أن لا تحدث الحرية ضررا على الإنسان نفسه، أو ضررا على الآخرين في مفهوم الإسلام هنا و إلا خرجت عن مسمى الحرية.

والإمام الراحل هنا يؤصل لحرية منسجمة مع منظومة متكاملة، في نظام فكري متسق، فكل نظام فكري له خصائصه الذاتية ومقوماته الجوهرية، وهو يقرر هنا ما يعتقده ويؤمن به، بعيدا عن الأفكار المجنحة أو تلك الأفكار التي يعاني أصحابها من استلاب، ونظرة دونية لمعتقداتهم، أو أولئك المنبهرين المخدوعين بالحريات الصورية المزيفة التي يصورها الغرب في بعض جوانب حياته السياسية والاجتماعية.

فلا توجد حرية بدون ضوابط أو معايير إلا في خيال أصحابها، وأوهامهم !

الدولة الإسلامية والحريات

ولأن الدولة في الإسلام مسؤولة عن تطبيق النظام والقانون فهي مسؤولة عن ضمان الحريات للناس، والاعتناء بها وتطبيقها، والحاكم الإسلامي مسؤول عن ذلك.

ونظراً لتعدد قضايا الحريات وتعقيدها، وتعدد الأطياف الاجتماعية والسياسية.. والمعارضة فقد اتسعت نظرة الإمام الراحل لكل تلك الإشكاليات

فقد لاحظ: أن على الحاكم الإسلامي إعطاء الحريات للناس لأن سلب الحرية يعني العنف والثورة على نفس الحاكم وأنصاره.

وقد اعتبر قدس سره أن من علائم استقامة الحكومة كثرة الحريات وقلة السجون، لأن

الحريات هي الأصل في رفاه الإنسان وتقدمه[٩].

وينبه قدس سره للديمقراطية المزيفة التي توهم الناس بالحريات، عبر الرفاه الاقتصادي وملئ الأسواق بالحاجات، ووسائل اللهو حيث يتوهم الناس أجواء الحرية في حين أن ذلك كبت مغلف.

أرضية الحرية في الدولة

عندما تتكافأ الفرص في مختلف المجالات لكل الناس عبر توفير النظام الإسلامي للجميع:العلم والمال والحكم فتكون على حد سواء، وبحيث تُوفر الأجواء الصالحة لكي يتمكن كل إنسان من التعلم بقدر ما يشاء، وأن يصل إلى الحكم كسائر من يصلون للحكم، وأن يتمكن من الاستفادة من المال حسب طاقاته، فتكون هذه الأمور الثلاثة الحكم والعلم والمال.. مثلها مثل الماء والهواء والنور، يتمتع بها الجميع من دون استثناء.

كذلك يجب أن يوفر الحكم الإسلامي لكل واحد القدرة على الوصول إلى المال حسب الموازين الشرعية، والعقلية. وذلك إنما يكمن في جو تكون فيه الحريات الكثيرة لجميع الناس[١٠].

حيث أن احتكار العلم أو المال في طبقة خاصة، طارد لقيم الحرية، و مكرس لقيم الدكتاتورية، والاستبداد، حيث يستبد أصحاب الامتيازات و الاستقطاعات الخاصة بحقوق الناس وأموالهم. من هنا فإن توفر الحريات الثلاث لكل الناس هي ضمانة لصد الدكتاتورية.

حرية الانتخاب مصداقية الدولة

ولا يتكرس النظام الإسلامي وتثبت أركانه. ويستقر نظامه الاجتماعي والسياسي إلا عبر انتخابات حقيقية لا صورية وحريات مكفولة، حتى لا تشكل جماعات الاغتيال، و الأحزاب السرية المناهضة للدولة، لأن ذلك كله هو سحب لذرائع المناوئين، فلا يجدون الأنصار بالقدر الكافي. إذ لا شيء يدعو الناس إلى الثورة على الحكومة الحرة... التي تكفل حرياتهم.

الأحزاب الإسلامية صمام أمان

تعتبر الأحزاب الإسلامية التي يدعو إلى تشكيلها الإمام الراحل لتمارس مسئوليتها في دفع حركة الدولة الإسلامية عامل إثراء وصمام أمان للدولة لمواجهة مشاكل الدولة وتناقضاتها، حيث أن الأحزاب الحرة تساعد على حفظ التوازن في داخل الدولة، بسبب اختلاف برامجها وأطروحاتها، ونظرتها لمختلف مسائل السياسة و الاقتصاد والاجتماع.

فإن تداول السلطة بين مختلف الأحزاب يوجب نزع فتيل الأزمات، وذلك بعدم تراكم الكره (وبالأمرين الأحزاب، والتبدل)[11] تسير الدولة سيراً معتدلاً فلا يصيبها جمود ببقاء الدولة، ولا فوضى تبدل الدولة

الحرية حتى للمعارضة

وتتكفل الدولة الإسلامية ضمان الحرية لجميع الناس والأحزاب والحركات على حد سواء، وحتى المعارضة منها، والمعادية، وكثيرا ما يرجع الإمام الراحل في هذا الموضوع إلى تاريخ وسيرة جده أمير المؤمنين مع الخوارج، حيث أتاح لهم حرية واسعة للتعبير عن آرائهم. فقد روى المؤرخون أنه لما ظهر الخوارج وأخذوا ينتقصون الإمام ويكفرونه ويقولون لا حكم إلا لله وهي كلمة حق يراد بها باطل، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لم يتعرض لهم الإمام بسوء بل كان في رواية يجري عليهم أعطياته من بيت المال. وقد أراد أصحاب الإمام قتال هؤلاء بادئ الأمر ولكن الإمام أبى عليهم ذلك و أنكره وقال إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا حاججناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم.

وقد فهم من كلامه عليه السلام أن الأمر بحاجة إلى المحاجة والمناظرة ما داموا لم يعتدوا. وأن حريتهم في ذلك مكفولة كسائر الناس.

خاتمة

لم أجد فيما بين يدي مرجعية دينية أولت اهتماما واسعا لمسألة الحريات بعد دراسة مستقصية لتجارب الشعوب والدول، وأصلت ونظرت بولع وشوق و إيمان بعوائد الحرية وأهميتها القطعيةَ باعتبارها المدخل الرئيسي للتقدم والتحضرَ بعقل مستنير كما فعل المرجع الشيرازي. وأخاله أنه سكب دموعا غزيرة على أمة سُلِبت حريتها، بل وأعانت المستبدين على مصادرتها. وغدت بعد ذلك أمة ذليلة مستسلمة لقدَرها الموهوم! □

الهوامش:

(١) مجلة الكلمة. عدد ٣٤ /ص ٥.
(٢) ممارسة التغير ص ٢٧٧.
(٣) ممارسة التغيير ص ٢٧٨.
(٤) الغاشية: ٢١ - ٢٢.
(٥) الأعراف /١٥٧.
(٦) البقرة /٢٥٦.
(٧) (الممتحنة -٧.).
(٨) الحريات.
(٩) السبيل إلى إنهاض المسلمين ٣٤٦ ـ ٣٣٩.
(١٠) السبيل إلى إنهاض المسلمين ٣١٦.
(١١) السبيل إلى إنهاض المسلمين ٣٩.

الشيرازي والتعاطي مع النظم السياسية.. قراءة في المقدمات*

■■ الشيخ زكريا داوود

ونحن نحيي الذكرى السنوية الثانية لرحيل المجدد الثاني، لم نشهد لحد الآن قراءة شاملة لشخصيته وتجربته ومنهجه، ولعل أهم أسباب ذلك هو عمق التجربة وشموليتها، فهو فقيه ومرجع ومصلح وقائد سياسي ومجدد نهضوي، إن تجربته موسوعة شاملة لم تترك جانباً دون تنظير، ولعلنا لن نشهد قراءة متكاملة لتجربة المجدد الثاني إلا بعد مخاض طويل، لأنه ليس من السهل إنجاز قراءة شاملة لتجربة موسوعية حفرت أخدوداً داخل كيان أمة تشعر بالهزيمة، ولأن من شروط القراءة هو وعي وإدراك طموح صاحب التجربة، لتكون القراءة عقلية ذات إحساس وشعور بالإنسان الذي ناضل وكافح لسنين، فكانت تمر به الأيام الحلوة تتلوها الأيام المرة وهكذا تتجلى صورة وحركة الإنسان بكل ما يحمل من هموم وطموح وفكر وثقافة وعلم وتقوى.

ولعلنا لو نظرنا للقراءات التي قدمها المحبون والمخالفون، لأمكننا القول أنها اتخذت مسارات مختلفة، وكان المسار البكائي أكثر حضوراً وبروزاً في كل تلك القراءات وهو أمر مفهوم خصوصاً وأن الرحيل لا زال قريباً، ولعله سوف يبقى لفترة طويلة خصوصاً للجمهور الذي أحبه وكان قريباً منه، وهي طبيعة إنسانية لا يمكن الفرار منها، ومن القراءات الأخرى التي اتخذت مساراً مناقضاً للمسار البكائي، هي قراءة المختلف، الذي يركز على ما يظنه خطأً لكونه مختلفاً ومناقضاً لرؤيته وفكره، وكلا القراءتين لا يمكن أن تقدم لنا فهماً واضحاً لحقيقة التجربة وعمقها وتأثيراتها الماضية والحاضرة والمستقبلة.

وهناك القراءات السطحية والتوافقية والانتقائية، وكل هذه القراءات غير قادرة على رسم الصورة الحقيقية لشخصية موسوعية كالمجدد الشيرازي الثاني، ولعلنا نحن كذلك نقدم اعتذارنا لأننا لن نكون قادرين على القراءة الشاملة لتجربة موسوعية استمرت سبعين عاماً وأنتجت منهجاً فكرياً وخطاً نهضوياً وحلولاً للكثير من الأزمات المنهجية والموضوعية والواقعية.

* دراسة مقدمة لمؤتمر الإمام الشيرازي الذي أقامته جمعية الرسالة الإسلامية بين ١٦ - ١٧ شوال ١٤٢٤هـ - البحرين.

نحن نقدم هنا قراءة انتقائية محددة بموضوع « تعاطي المجدد الشيرازي الثاني مع الأنظمة السياسية ونخص العراقية منها » ، وهي قضية سكنت في وجدانه ورافقته في كل محطات حياته، ونظرة سريعة لمذكراته « تلك الأيام » تبرز أهمية القضية العراقية، ولكن ليس للحد الذي تتحول عنده إلى مسألة « طائفية » ، هنا سوف نسلط الضوء على هذه القضية من زاوية نظرته للأنظمة السياسية التي تعاقبت على العراق وبالأخص « حزب البعث » ، وقبل ذلك نستشرف مباني الرؤية السياسية عند المجدد الشيرازي الثاني، لأنها المنطلقات التي تحدد للسيد الشيرازي علاقته مع كل مفردات الواقع الإسلامي.

مباني الرؤية السياسية

يبتني المنهج السياسي عند المجدد الشيرازي الثاني على خمسة مرتكزات هي:

١ - الأمة الإسلامية الواحدة.

٢ - وحدة المصير والمسير والمسار.

٣ - اللاعنف منهجاً وسلوكاً.

٤ - ضرورة الحريات.

٥ - محورية شورى الفقهاء.

إن أي قراءة لا تصدر عن إدراك هذه المباني المنهجية لا يمكن أن تقدم رؤية صحيحة لفكر المجدد الشيرازي الثاني، حيث اعتبرت هذه المباني حاكمة ليس في النظرة السياسية فحسب، بل ألقت بظلالها حتى في العمل الفقهي، والفكري والثقافي وغيرها من الحقول المعرفية.

الأمة الإسلامية الواحدة

لم ينظر الإمام الشيرازي لقضايا الأمة من مقياس اللحظة الراهنة بشكل مطلق، مع أنه استخدم ذلك ولكن سيطر مقياس المطلق على كل جهده الفكري والسياسي وغيره، فهو لا يفصل حدثها الآني عن الماضي، ولا جزءها القطري عن وحدتها الشاملة، ولا السياسي عن الديني، إنه يستفيد من مقياس اللحظة الراهنة كي يعبر منها للمستقبل، وهذا لا يتم دون توظيف باقي الأجزاء.

وعندما يبحث الوضع السياسي لأي قطر لا يغفل باقي الأجزاء، وهذا ما نلحظه في كل نتاجاته المعرفية، كالصياغة، وطريق النجاة، والدولة الإسلامية، والحكم في الإسلام، وإذا قام الإسلام في العراق، والعراق بلد الخيرات، والسبيل إلى إنهاض المسلمين، وغيرها من الكتب التي ألفها المجدد الشيرازي.

والعراق كقضية وأزمة نظر إليها الشيرازي من زاوية الخلل العام الذي أصاب بنية الأمة ككل، ففي كتاب طريق النجاة عندما يتطرق للقضية العراقية، فإنه يبحثها كجزء من الخلل الذي أصاب جسد الأمة، فتحت عنوان « كيف تحطمت بلاد الإسلام؟ ولماذا » ، يبحث عن الأزمة في تركيا والنفوذ الغربي، ومن ثم عن إيران وتاريخ النفوذ الغربي وأدواته، وهكذا أفغانستان وباكستان والهند ومصر والعراق كذلك، وهي طريقة بحثية طبعت كل نتاجات المجدد الشيرازي الثاني، حتى في الكتب

التي خصصها للقضية العراقية، كما في كتاب « العراق ماضيه ومستقبله » وكتاب « الشيعة والحكم في العراق » وغيرها، ففي كتاب « إذا قام الإسلام في العراق » يقول الإمام الشيرازي: فاللازم أن يعتبر المسلم من أية دولة بمنزلة المسلم المواطن في الدولة الإسلامية إلا إذا كان هناك عنوان ثانوي قطعي مثل قانون لا ضرر وقانون الأهم والمهم وقانون من سبق حيث إن السابق مقدم على غيره والعنوان الثانوي يكون على نحو الاستثناء لا الأصل وبشكل مؤقت لا دائم، إني أذكر قبل نصف قرن حيث لم تكن هناك جنسية ولا هوية ولا ما أشبه كيف كان المسلمون يأتون من بلاد الإسلام أو غير الإسلام إلى العراق فكان حالهم حال المسلمين في العراق في كل شيء من الزواج والكسب والأخوة وغير ذلك وهذه الحالة يجب أن ترجع كما أمر الله وكما قرر في الكتاب الحكيم[1].

إذاً من منطلق الأمة الإسلامية الواحدة يبني المجدد الشيرازي نظريته السياسية وفكره التجديدي، ومن ذات المنطلق يحدد الشيرازي علاقاته مع الأفراد والجماعات، والمؤسسات والأحزاب السياسية، والحكومات والدول، فليست نظرته تجاه كل تلك المفردات نابعة من كونه مرجعاً وفقيهاً يتعالى على الإقليمية والفئوية والطائفية فحسب، بل مع كل ذلك يصدر المرجع الشيرازي من مفاهيم ومباني فكرية واضحة المعالم، وتتأسس مناشطه إنطلاقاً منها، وعندما يُسأل عن الصورة المستقبلية للعراق يجعل أحد أهداف الدولة المستقبلية هو تحقيق الوحدة بين الدول الإسلامية كي يرجع المسلمون أمة واحدة حيث يقول: يجب على كافة المسلمين السعي لكي تتوحد بلاد الإسلام وتنصهر في دولة واحدة إسلامية ذلك إن المسلمين امة واحدة كما قال تعالى: وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، وقد أسس الرسول الأعظم ﷺ أساس الدولة العالمية الواحدة حيث توحدت في حياته ﷺ تسع دول تحت راية الإسلام ـ على ما ذكره المؤرخون ـ وفي هذا القرن كانت الهند مثالا لذلك كما إن أوربا تحاول التوصل إلى ذلك، ومن الواضح إن تفكك الدول الإسلامية ووجود الحدود الجغرافية بينها من الأسباب الرئيسية في تخلف المسلمين من جهة وفي تناحرهم وتحاربهم من جهة أخرى وفي تفوق المستعمرين عليهم واستعمارهم من جهة ثالثة[2].

وحدة المصير والمسير والمسار

إذا كان المسلمون أمة واحدة، فمن الطبيعي أن تتوحد أهدافهم وتطلعاتهم، وهذا يقتضي توحيد المسيرة وتحديد المسار، لأن الأهداف المشتركة ترسم مصيراً مشتركاً، من هنا كان المجدد الشيرازي يرسم فكره السياسي، فعلى هذه المسلمة تقوم كافة الأبنية الفكرية والسياسية والاجتماعية وغيرها، ومن هنا يمكننا أن نقول أم مرجعية الشيرازي لم تكن تهدف تحقيق مجموعة من المطالب في واقع الأمة فحسب، بل كان هدفه الأساس هو تحقيق الشعور بأهمية هذه المطالب والأهداف، وتوحيد فعل الأمة ومسارها لا يكون إلا عبر وعي مضامين ومدلولات الغايات، وهذا ما يقوله النص التالي مع صغر حجمه وضغط دلالاته: المستعمر قطع بلاد المسلمين جزءاً جزءاً، حتى يتمكن من إذلال المسلمين ونهبهم، ويمكن تدارك هذه القوة بالوعي وبالحركة الواحد[3]، ونص آخر يقول: « الوصول إلى حكومة المسلمين الواحدة بحاجة

إلى نشر الثقافة والفكر حتى يصبح التطلع إلى الحكومة الواحدة جزءاً حيوياً من فكر المسلمين »[٤].

ومن هذا المرتكز ينظر السيد المجدد إلى القضية العراقية، فهي « قطعة » من بلاد الإسلام التي سعى الاستعمار إلى نهب ثرواتها، وقد اختلفت السبل في تحقيق تلك الأهداف من خلال اختلاف الواجهات الاستعمارية، لكن الهدف ظل واحداً لا يتغير وهو تحطيم قدرات المسلمين ووضع العراقيل أمام نهضتهم، وهنا نقتطع نصاً مشحوناً بالقلق والثورة في ذات الوقت، قلق على وضع الأمة وعلى ما أصابها ويصيبها، وثورة ونقمة على المستعمر الذي يؤصل للمأساة في واقع الأمة: « قتلونا في فلسطين، ولبنان، ومصر، والأردن، والجزيرة العربية (البريطانيون وعملاؤهم، قتلوا في وجبة واحدة في أطراف الجزيرة العربية أكثر من مائة وخمسين ألف إنسان مسلم).

وقتلونا في الفلبين، وكشمير، واريتريا، والأوغاوين، وبورما، وباكستان الشرقية والغربية - يوم انفصال باكستان شرقها عن غربها -، وقتلونا في اليمن وشطروها نصفين.

منذ قرن ونحن نقتل ونسجن وتهتك أعراضنا، لماذا؟

لاحظوا البلاد الأوروبية الشاسعة والتي يبلغ نفوسها ما يقارب ستمائة وخمسين مليون نسمة، فمنذ أربعين سنة لا توجد فيها حروب ولا انقلابات عسكرية والحروب والانقلابات تقع بكثرة في البلاد الإسلامية، وهي ليست إلا أحابيل المستعمرين والمستكبرين، فقد جاؤوا إلى بلادنا لتقطيعنا وتمزيقنا ونهب خيراتنا وسفك دمائنا وتعذيبنا في السجون والمعتقلات، وهنا يعرج المجدد الشيرازي على العراق باعتباره جزء من المأساة والتراجيديا التي تصنعها الدول المستعمرة، يقول:

والآن: يوجد في سجون البعث في العراق أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان مسلم يرزح تحت نير ظلمهم، فيهم الشيخ المسن والعجوز المسنة والشاب والشابة والطفل والطفلة!

كيف حدث هذا؟ هل لحزب البعث العراقي هذا الحق؟ وبأي حق جاؤوا إلى الحكم؟، نعم بحق الدبابة والقوة! فعل حزب البعث كما يفعل اللص وقاطع الطريق، إنه يسحب مسدسه عليك ويأمرك بنزع ملابسك وإخراج أموالك ويستولي على مقدراتك، والشيء نفسه فعله حزب البعث، فقد جاؤوا في منتصف الليل بتخطيط من أمريكا وبريطانيا وإسرائيل معاً، ثم يوضح المجدد الشيرازي سبب هذه المأساة التي قلبت أوضاع الأمة ويحدد الحل الأمثل في النص التالي: « إن إعراضنا عن الله وعن قوانين الله وعن توحيد المسلمين سبب هذه المشاكل، ولا علاج إلا أن نرجع إلى حكم الله سبحانه وتعالى، لتوحيد المسلمين وإقامة حكومة ألف مليون مسلم، لا حدود بينها ولا سدود ولا قيود ولا شروط.

يجب أن تكون البلاد الإسلامية موحدة، والوحدة الإسلامية لا تتحقق في الواقع الخارجي إلا بعد شعور وحدوي في أعماق نفوس المسلمين، فالأمة واحدة والرب واحد والكتاب واحد والنبي واحد والشريعة الإسلامية قائمة على الكتاب والسنة، وعلينا أن نتبعها حق الإتباع، وليس الإسلام منحصراً في الصلاة والصيام وتعمير المسجد وما أشبه فقط، بل هذه أجزاء من الإسلام، وهناك أجزاء أخرى منها توحيد البلاد الإسلامية تحت لواء واحد »[٥].

اللاعنف منهجًا وسلوكًا

اللاعنف كمبدأ وكسلوك أخذ حيزاً كبيراً من تنظيرات المجدد الشيرازي الثاني، وتشكل من خلال طابع شمولي، فهذا المبدأ أصل في كل المناشط الإنسانية الفكرية والاجتماعية والسياسية، وحتى العسكرية، وكي تتوضح نظرية اللاعنف عند الإمام الشيرازي لابد من الارتداد إلى المنظومة المعرفية التي شحنها الشيرازي بهواجسه وتطلعاته وتنظيراته، فقد ألف الإمام الشيرازي كتباً خاصة في توضيح نظرية اللاعنف، ولم تخلو بحوثه الأخرى من التطرق لهذه النظرية، ومن كتبه التي خصصها لشرح نظريته كتاب « اللاعنف في الإسلام »، يقول في مقدمته: « (اللاعنف) سمة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام والعقلاء الذين يقدّمون الأهمّ على المهم في شتّى حيثيات حياتهم.

وفي التاريخ: إنّ من أبرز صفات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم انّه كان لا عنفاً إلى أبعد حدّ، وقد دعا القرآن الكريم المسلمين قاطبة أن يدخلوا تحت ظلّ هذا القانون، فقال عزّ من قائل: ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾، ولا يخفى أنّ السلم أقوى وأكثر دلالة من اللاعنف.

وبالتأكيد، فإنّ كلّ مَن يلتزم بقانون السلم واللاعنف لا مندوحة له إلاّ وينتصر في الحياة[٦].

ورغم كون القاعدة والأصل هو اللاعنف في كل الميادين ومع كل الناس حكومات وأفراد إلا أننا يمكن أن نلمح تغيراً في نظرة المجدد الشيرازي للقضية العراقية من زاوية اللاعنف، فمع أن اللاعنف هو الأساس والأصل وعكسه الاستثناء، إلا أن العراق في ظل النظام البعثي لم يكن ممكناً حلها إلا من خلال الاستثناء، مع استخدام كل الوسائل السلمية التي ذكرها الشيرازي عند حديثه عن تغيير الأنظمة القمعية والاستبدادية، والنص التالي الذي نقتطعه من كراس « العراق بلد الخيرات » يوضح هذه الحالة الاستثنائية: « فعلى كافة المسلمين في هذه المعمورة، وعلى المسلمين المجاهدين من أبناء شعبنا العراقي المظلوم، وخصوصاً الذين هجرهم النظام البعثي، ونفاهم عن أراضيهم ومسقط رؤوسهم، وعلى كافة الخيرين في العالم الوقوف بوجه هذا النظام البعثي، بكافة الوسائل والإمكانيات، لأن خطره ليس على الشعب العراقي فحسب، بل على العالم الإسلامي بأكمله، بل وعلى جميع الخيّرين ومحبي الإنسانية في العالم، وإنّ جبين الإنسانية ليندى من تصرفات وأفعال هذا النظام الاستعماري الغادر، وقد قال الإمام الحسين عليه السلام كلمة الفصل حينما انبرى مخاطباً الإنسان الذي لا يعمل على مكافحة الظلم والطغيان: (أمّا بعد فقد علمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال في حياته: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحُرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، ثم لم يغيّر بقول ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يدخله مدخله) »[٧].

ولكن المجدد الشيرازي مع ذلك وفي هذا النص وغيره، يجعل الأساليب السلمية، كالجهاد الثقافي والإعلامي والسياسي والاقتصادي هي الوسائل والأساليب المقدمة على الكفاح المسلح، بل نكاد نفقد التصريح في كل ما ألفه حول العراق وغيرها، فيما يخص العمل المسلح، عدا البيانات التي صدرت في الأيام الأولى للحرب العراقية الإيرانية (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، حيث قال في بيان صدر في تاريخ ١٣-٧-١٤٠٠هـ: « إن الواجب الشرعي الإسلامي والواجب العقلي يحتمان عليكم حمل السلاح لأجل إنقاذ

العراق من يد الاحتلال »[٨]، أما في كتبه الأخرى فلم نظفر بنص يحرض فيه الإمام الشيرازي على حمل السلاح، بل زخرت كتبه بالدعوة لإسقاط نظام صدام عبر العديد من الوسائل كالعصيان المدني، والفرار من الخدمة العسكرية، وبث الوعي السياسي بين أبناء الشعب العراقي، وغيرها من الوسائل.

فاللاعنف كمنهج حركي وسياسي يعتبر في فكر الإمام الشيرازي أصلاً حاكماً على كل الوسائل، ومن خلاله يبني الإمام الشيرازي علاقاته وسياساته وجميع مناشطه بالصدور من بوابة اللاعنف، ويجعل العكس هو الاستثناء وعندها يكون محكوماً بقاعدة الأهم والمهم، بل يعتبر الإمام الشيرازي أساليب العنف واستخدام القوة هي أحد عوامل انحطاط وتخلف المسلمين وفي النص التالي يوضح لنا الإمام الشيرازي ذلك بقوله: « عندما يتأمّل الإنسان في تاريخ الإسلام العزيز يجد أنّ معظم المصائب والرزايا التي عانى منها المسلمون على امتداد التاريخ هي ناجمة عن سياسة العنف التي كان يستخدمها الحكام خلافاً لسيرة رسول الله ﷺ والإمام أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وعلى عكس ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فالحكام المستبدون الذين استولوا على المسلمين من دون شرعية لم يلتزموا بتعاليم الإسلام الداعية إلى اللين واللاعنف وكانوا من وراء ضعف المسلمين[٩].

ضرورة الحريات

الحرية ليست حقاً يجب عدم التنازل عنه فحسب، بل واجباً من المهم عدم التفريط به، وترتبط الحرية في فكر الإمام الشيرازي بالنهضة والسقوط، وترتبط كذلك بالتوحيد للخالق، فلا يتحقق التوحيد الخالص إلا من خلال ممارسة الحرية في الحياة بكل جوانبها، وهنا يكون التفريط في الحرية أو الخنوع للأنظمة المستبدة مخالفة للأسس الدينية التي أقرها الإسلام، والنص التالي يوضح هذه الدلالة، حيث يقول في كتابه « الصياغة الجديدة » : إن من تأمل في كلمة (لا إله إلا الله) التي تكررت في القرآن والسنة ألوف المرات والتي يرددها المسلمون في شعائرهم في وقت الصلاة وغيرها، يجد في هذه الكلمة رمز الحرية وجوهرها »[١٠].

ممارسة الحرية عبادة والتفريط فيها ذنب ومعصية، من هذا المنطلق يؤسس المجدد الشيرازي رؤيته للتعامل مع الأنظمة، فبقدر ما يعطي النظام السياسي الناس حقوقهم في ممارسة الديمقراطية يقترب أكثر من حقائق وأصول الإسلام، ويحقق مشروعيته والعكس كذلك، ففي كتابه « سقوط بعد سقوط » يورد المجدد الشيرازي أسباب سقوط الأمة بفقدان مجموعة من الأسس وأحدها هو كبت الحريات، وعندما يبحث علاقة الحرية بالدين يؤكد أن الكبت والاستبداد يشوه الدين ويفقده فاعليته لدى الأفراد والمجتمعات، وهنا نقتطف هذا النص الذي يوضح العلاقة الصميمية بين الحرية والدين لدى المجدد الشيرازي: « وتسبّب أفول الدين لدى المسلمين في كبت الحرّيات المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ... ﴾.

قال رسول الله ﷺ: « الناس مسلطون على أموالهم » ، وأضاف الفقهاء بالضميمة

إلى المال « وأنفسهم » ، مستفيدين ذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم ... ﴾.

حيث دلّت الآية الكريمة على: إنّ كلّ إنسان له الولاية على نفسه حتى تتحقّق الأولوية الكائنة للنبي ﷺ. ولذا استنبط الفقهاء القاعدة الفقهيّة: « الناس مسلّطون على أموالهم وأنفسهم » .

فالإنسان خُلق حرّاً، وسيبقى حرّاً إلاّ في المحظورات وهي المحرّمات الشرعيّة.

أمّا اليوم فالّذي نراه في قوانين الحكومات، إن قائمة الممنوعات تجاوزت قائمة المحرّمات الشرعية إلى مئات الأضعاف.

فكلّ ما يريد أن يفعله الإنسان من سفر وحضر عمل وأعمار و... فهو بحاجة إلى إجازة ورخصة وهوية وجنسية و.. »[١١].

وعندما يتحول الأصل في ممارسة الأنظمة السياسية إلى الكبت ومصادرة الحريات والاستبداد، فلا يبقى شيء على صورته وحقيقته، في كل الجوانب والمناشط الحياتية، فتنقلب أسس الأخلاق ليتحول الكذب والنفاق هو وسيلة الوصول للأهداف والمآرب، وفي الاقتصاد يصبح مال الله دولاً والناس خولاً، وتنشط قيم المحسوبيات، وتتحول الرذائل إلى فضائل، بل يطال التبدل والتغير حتى القيم الدينية والممارسات العبادية، وفي النص التالي يرسم لنا المجدد الشيرازي كل ذلك حيث يقول:" وأخذ الاستبداد ينخر في جسم الكيان الإسلامي، فتحوّل كلّ شيء إلى ضدّه، وبات الإسلام مجرّد طقوس وشعارات، وشيئاً فشيئاً بدأت معالم الدين تتغيّر وتتبدّل وتأثّرت العلاقات الاجتماعية بالحالة الدينيّة[١٢].

وحين يسأل عن تصوره لمستقبل العراق بعد حزب البعث، يجعل الحريات البند الثاني من الأمور التي من خلالها ينبني مستقبل الشعب العراقي، فيقول: « الثاني: من الضروري استناد الدولة إلى المؤسسات الدستورية حيث يلزم منح الحرية لمختلف التجمعات والتكتلات والفئات والأحزاب غير المعادية للإسلام في إطار مصالح الأمة، كما يلزم أن تكون الانتخابات حرة بمعنى الكلمة وان توفر الحرية للنقابات والجمعيات ونحوها كما يلزم أن تعطى الحرية للصحف وغيرها من وسائل الإعلام ويلزم أن تمنح الحرية لمختلف أصناف المجتمع من المثقفين والعمال والفلاحين و ... كما تعطى المرأة كرامتها وحريتها كل ذلك في إطار الحدود الإسلامية الإنسانية قال تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾.

وقال الإمام أمير المؤمنين: « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا »[١٣].

يخالف المجدد الشيرازي هنا الكثير من الرؤى داخل الثقافة الكلاسيكية وخصوصاً السنية التي تدعوا للإستكانة للواقع الاستبدادي، كما نلحظ ذلك في كتب الآداب السلطانية التي تنظر لتكريس واقع متخلف عبر التأصيل دينياً للاستبداد واعتباره أمراً ملازماً للأمن والحفاظ على الحياة المستقرة الخالية من الفتن، حيث عملت الآداب السلطانية عبر تاريخ إنشائها لنصوصها، وإعادة إنشائها لهذه النصوص، على أداء رسالة وصياغة نظام في المعرفة السياسية، فاستخدمت من أجل بلوغ مراميها نظاماً في الكتابة يقوم على تجميع معطيات وأحداث وتواريخ وحكم، بهدف

ترسيخ تصور معين للسلطات، ورسم صورة معينة للملك... وقد عملت الأيديولوجيا المساندة للسلطة المتعاقبة في العالم الإسلامي، على فرض صورة معينة عن السلطة والملك، وذلك باستخدام كل ما يمكن من التمويه والتزييف، سواء في مسألة أصل الدولة أو في مسألة إعادة كتابة التاريخ، وترسيخ تصور محدد لحقبه، لتأكيد شرعية الملوك والسلاطين الذين تعاقبوا على الحكم[١٤]، على العكس هي الرؤية التي يطرحها المجدد الشيرازي حيث يتبنى موقفاً رافضاً لكل أشكال السلطات التي تفرض بالقوة والقهر أو بالوراثة والامتداد النسبي، والتي لا يختار الناس فيها من يمثلهم، وتنعكس هذه الابستومولوجيا في القراءة التاريخية والمعاصرة للأنظمة السياسية التي تحكم العالم الإسلامي أو العراق الذي يقرأه بعنوان كونه " سلسة من النظم المستبدة المتعاقبة " والتي خيمت على الواقع المعاصر و تمثل في أشرس الأنظمة السياسية استبداداً وقهراً لشعبه وهو حزب البعث، وهنا ننقل نصاً من كتاب العراق بلد الخيرات لتتوضح صورة نظام حزب البعث لدى الإمام الشيرازي:" تعدّدت أساليب النظام البعثي الحاكم في العراق، في التفنن بتعذيب معارضيه حتى فاقت جميع أساليب الأنظمة العميلة الأخرى، فذلك نظام الشاه المقبور العميل للاستعمار الغربي الأمريكي كان يعتقل ويعذّب أبناء الإسلام في إيران، ويلفق عليهم التهم الواهية مدعياً بأن هذا شيوعي وذاك متآمر وهكذا، وذلك ليبرر للعالم والشعب بأنه أعدم أو اعتقل هؤلاء لعمالتهم ـ كما يدعي ـ ولكن نظام البعث الكافر تجاوز حتى هذا الحد من التعامل أي تبرير عمله في قتل أبناء الشعب فإنه يعتقل ويعذّب أبناء الشعب العراقي المخالفين له والمعارضين لسياسة حكمه، أو كل من يعد من المتدينين الإسلاميين بدون أية تهمة موجهة إليهم ولو ظاهرياً[١٥].

والحل لهذه المشاكل يكمن في التأكيد على الحريات جميعها بدو انتقاء فبدءاً من السلطة وإلى القاعدة لابد من ممارسة الديمقراطية، وإلا فإن الأسوأ سوف يحدث، هذا ما يقوله النص التالي: « يجب أن يكون الحكم في العراق قائماً على أساس إعطاء الناس حقوقهم في إبداء الرأي بحرية، وأن يعمل بالشورى والمشورة، وأن تعطى للأحزاب الإسلامية حرية العمل والتنافس، وأن يكون لها الحق في نقد الحكومة، وحينذاك سوف لا تكون الحكومة قادرة حتى على قتل خمسة أشخاص بالباطل، كما رأينا ذلك بأعيننا، حينما كانت التعددية الحزبية ـ على علاتها ـ هي الحاكمة.

أما إذا انفردت بالسلطة حكومة دكتاتورية فسيؤول وضع العراق من سيئ إلى أسوأ[١٦].

محورية شورى الفقهاء

تتميز قراءة الإمام الشيرازي للواقع السياسي بمميزات خاصة تشكل بمجموعها رؤيته الفريدة التي انسحبت على كل الحقول المعرفية الأخرى، فهي ليست قراءة من الداخل بالصيغة التي بلورتها القراءات الكلاسيكية في الايديولوجيا الامامية، التي تسحب عنصر الغيبة إلى الفعل السلبي المنحبس في الانتظار المجرد، مع كون الانتظار عقيدة دينية و سياسية دافع عنها الإمام الشيرازي بشكل كبير في قراءاته للعقيدة الإمامية، وهي ليست قراءة خارجية استشراقية تقارب

موضوعها بأسئلة وفرضيات مستمدة من تاريخ مغاير، بل يشكل الحدث التاريخي للأمة حضوراً واسعاً شغل موضوعات متعددة، كما أنها ليست قراءة تكتفي بإعادة ترتيب معطيات محتوى النص الديني والانحباس في تجلياته المعرفية فقط دون الانفتاح على مستجدات الواقع.

إن قراءة الإمام الشيرازي للواقع السياسي وغيره تندرج أولاً ضمن مشروع إعادة الإسلام إلى الفاعلية في كل الحقول الحياتية، والسياسة أحد الحقول التي تتجلى فيها شمولية الدين الإسلامي، وقدرته على التفاعل والتأثير في الحدث في حركته وصيرورته وتغيراته، وثانياً ضمن التنظير للواقع والسعي لتغييره للأفضل وتجاوز السلبية وردة الفعل التي صبغت تعامل الحركات الإسلامية مع الواقع، إن المجدد الشيرازي الثاني جعل الدين المنطلق الأول، وجعل الواقع محركاً ومتأثراً وثائراً، وعندما يبحث عن آليات تطوير وتحديث واقع الأمة فإنه يؤسس لمحورية الشورى وخصوصاً في الحقل السياسي، التي تنعكس متبنياته في عامة المناشط.

وهنا يبدأ المجدد الشيرازي بقراءة حديثة للنص الديني الذي اعتبره ركيزة في بناء مؤسسات الشورى، والتي تصل إلى الذروة في التأسيس لنظرية « شورى الفقهاء المراجع » السلطة التي تمارس وظائف عديدة أهمها بناء الأمة ومؤسساتها وفق رؤية إسلامية تتفاعل مع المتغيرات من خلال قواعد وأصول الدين، ولكي يعبر بوابة العمل السياسي باعتباره امتداداً للممثلين لرسالات السماء، يجعل العمل السياسي بكل مضامينه الدينية وظيفة مارسها الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ البشري، وإحدى مقولاته الشهيرة هي أن الأنبياء سياسيون، وإذا كان الإمام الشيرازي يسعى لتغيير واقع الأمة عبر مشروعه النهضوي، فإن الفهم السياسي لابد أن يرتكز على بنى أسياسية يحددها الإمام الشيرازي في مقولته التالية:" إن من أوليات الفهم السياسي: أن نعرف أن هناك ثلاثة أشياء ليست من الإسلام في شيء، وإن جاء المستغلّون لها بألف حجة ودليل، وهي:

١ - إن كل شيء يهدّد وحدة المسلمين، ويفرقهم على أساس من القومية أو الطائفية أو العنصرية، فهو ليس من الإسلام في شيء. والمفروض أن تذوب كل هذه التقسيمات من خلال وحدة الإسلام العظيم، الذي يرى كل المسلمين سواسية، وأنهم أخوة تتكافأ دماؤهم. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إن الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى »، وأبرز مثال على ذلك هو: الأخوّة التي عقدها النبي بين الأنصار والمهاجرين، حيث كان الإسلام فوق كل الفوارق الأخرى، والتاريخ يشهد بقوة ذلك المجتمع من جرّاء وحدة القلوب، ومن ثم وحدة الصف.

٢ - إن كل من يصل إلى الحكم بلا استفتاء حرّ من الشعب، وبلا شورى منهم، ولا انتخاب واختيار، فهذه الصورة ليست من الإسلام في شيء، سواء كان وصوله إلى الحكم بسبب العشيرة، أو القبيلة، أو بسبب الملكية الوراثية، أو بسبب الانقلاب العسكري، أو بغير ذلك.

٣ - إن كل بلد يُجهر فيه بالمعاصي والمحرمات، وهو على مرأى ومسمع من الحكومة

أو بتشجيع منها، فذلك دليل على انحراف تلك الحكومات عن الإسلام وابتعادها عنه. ولربما محاربتها له. فعلى التيار الإسلامي الذي ينشد التغيير أن لا تغيب عنه هذه الأساليب والألوان، التي تقوم بها تلك الحكومات[١٧].

وحدة الأمة، الشورى، تطبيق الشريعة، من هذه المنطلقات يحدد الإمام الشيرازي وعي الممارسة السياسية، وكل ممارسة لا تنطلق من هذه الأسس فليست ممارسة صحيحة، ولا تمثل مخرجاً للأمة من أزماتها ومشكلاتها.

بل يعتبر ممارسة الكبت والاستبداد وإلغاء الشورى في اختيار الناس لمن يمثلهم أحد الأسباب الرئيسة للسقوط الديني والدنيوي، والمقصود بالسقوط هنا كما يقول:" هو تركهم مجموعة من أهم الأسس التي يقوم عليها الحكم والإدارة والمجتمع في الإسلام، ومن هذه الأسس:

١ـ « الشورى » يقول تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾.

لقد بدأ الانحطاط ومعه بدأ السقوط ـ وإن كان الظاهر يوحي بغير ذلك في بعض الفترات ـ في تلك الساعة التي ترك حكام المسلمين مبدأ الشورى.

وأخذ الاستبداد ينخر في جسم الكيان الإسلامي، فتحوّل كلّ شيء إلى ضدّه، وبات الإسلام مجرّد طقوس وشعارات، وشيئاً فشيئاً بدأت معالم الدين تتغيّر وتتبدّل وتأثّرت العلاقات الاجتماعية بالحالة الدينيّة[١٨].

وفي كتاب « الشورى في الإسلام »، يؤصل الإمام الشيرازي للشورى إنطلاقاً من النص، حيث يستعرض الآيات القرآنية التي جاءت صريحة في جعل مبدأ الشورى قانوناً دينياً وسياسياً واجتماعيا يحكم حركة الأمة من وحداتها الأولى وهي الأسرة إلى المؤسسات السلطوية التي تسير شؤون الناس، ويرجع كذلك للنصوص النبوية والإمامية، التي فصلت مبهمات الآيات القرآنية، ومن ثم يصل إلى النتائج التالية:

١ - إنّ الشورى مبدأ إسلامي عام لا يختصّ فقط في المجال السياسي بل حتى في الحياة الأسرية والاجتماعية.

٢ - إنّ للشورى مجالان، الأول: مشورة الحاكم المسلم للمسلمين في الأمور المتعلقة بهم، والثاني: مشورة المسلمين فيما بينهم على إدارة شؤونهم، فهي دعوة الطرفين إلى الشورى، طرف الحاكم وطرف الرعية.

٣ - مبدأ التشاور قائم في الأمور المتعلقة بشؤون المسلمين دون الأحكام الشرعية التي ورد فيها النص.

وتنعكس نظرية الشورى بكل مداليلها على القضية العراقية بشكل أخص فإن فهمها وحل معضلاتها لا يمكن من دون شورى الفقهاء المراجع، حيث يقرر في كتابه" إنقاذ العتبات المقدسة" أن مستقبل العراق لا يمكن تحقيقه بشكل سليم إلا من خلال مجموعة من الأمور يذكر ثلاثة منها وهي:

١ - المؤسسات الدستورية.
٢ - التعددية الحزبية.
٣ - شورى المراجع.

وقد أسهب الإمام الشيرازي كثيراً في طرق وآليات تطبيق هذه النظرية على واقع الأمة بشكل عام، واعتبرها في العديد من كتبه أهم مخرج لهذه الأمة لتحقيق الوحدة والنهوض وإعادة الإسلام كمشروع نهضوي تجديدي فاعل □

الهوامش:

(١) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، إذا قام الإسلام في العراق.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، طريق النجاة، الطبعة الثانية عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م الناشر هيئة محمد الأمين ص ٢١٣
(٤) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، الوصول إلى حكومة واحدة إسلامية، الطبعة الأولى عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، الناشر دار النخيل للطباعة والنشر، ص ١٩.
(٥) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الثالثة عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار المنهل للطباعة والنشر والتوزيع، ص ١٦.
(٦) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، اللاعنف في الإسلام.
(٧) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، العراق بلد الخيرات.
(٨) الكاتب، أحمد، الشيرازي المرجعية الدينية وأفاق التطوير.
(٩) اللاعنف في الإسلام، مصدر سابق.
(١٠) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام، ص ٣١٤.
(١١) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني،سقوط بعد سقوط.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) إذا قام الإسلام في العراق، مصدر سابق.
(١٤) عبداللطيف، د.كمال، في تشريح أصول الاستبداد قراءة في نظام الآداب السلطانية، الطبعة الأولى عام ١٩٩٩م، دار الطليعة بيروت، ص١٤٦.
(١٥) العراق بلد الخيرات، مصدر سابق.
(١٦) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، العراق بلد الخيرات.
(١٧) الشيرازي، آية الله العظمي السيد محمد الحسيني، دعاة التغيير ومستقبل العراق.
(١٨) سقوط بعد سقوط، مصدر سابق.

ملامح المرجعية القيادية عند الإمام الشيرازي

■■ السيد محمود الموسوي*

قلّة هم أولئك المراجع الذين يحملون همّ الأمة الإسلامية بما يتشعب ذلك الهم من جوانب ومسئوليات، وقلّة هم أولئك الذين أعطوا رؤية مؤصّلة من الدين لقضايا الأمة الإسلامية التي تعصف بها بين الحين والآخر، ولعل ذلك راجع إلى ما يحتاجه ذلك الجهد من عمق علمي، واستيعاب للحوادث الواقعة (القضايا المعاصرة)، ومقدرة على استنفاذ ذلك العلم في تلك الحوادث، بل ويحتاج إلى الشجاعة وروح التضحية، والاستغراق في الهم الديني.

والأقل منهم ألئك الذين يتصدّون ويتحملون المسئولية الإلهية بأنفسهم وقدراتهم وما يستطيعون من قوة.

وكأمثلة على أولئك « السيد محمد المجاهد، الذي حمل السلاح وقاد الجيوش، للزحف على روسيا القيصرية، عندما بسطت سيطرتها على بعض بلاد إيران.

وهذا هو السيد محمد حسن الشيرازي، الذي حارب الاستعمار البريطاني، وطارده من إيران، عندما كان يتسلل إليها بواسطة احتكاره شركات التبغ.

وذاك الشيخ محمد كاظم الخراساني، الرجل الذي قاد الشعب الإيراني لضرب دكتاتورية الاستبداد الفردي الملكي..

وذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، الذي فجّر ثورة العشرين ضد الاستعمار البريطاني في العراق.. وبعده السيد أبو الحسن الإصفهاني.. والسيد عبد الحسين شرف الدين الذي حارب الاستعمار الفرنسي.. وذلك السيد البروجردي الذي جاهد ضد البهلوي... »[1].

وهذا هو الإمام الخميني الذي قاد الثورة الإيرانية ضد الشاه، وكوّن دولة إسلامية..

فألئك هم المراجع القادة التي تجلّت فيهم روايات أهل البيت عليهم السلام من مواصفات للفقهاء وعلماء

---

* عالم دين وباحث - البحرين.

أمة محمد ﷺ، و كما في الحديث: « وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا »[٢]، و « العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس »[٣]، وقول الله عز وجل: ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[٤].

وما من شك أن أوضاع المسلمين التي وصلت في بعض الأزمنة إلى حالة من الضعف والوهن الشديد، لم تتنام ولم تنهض إلا بسبب توافر المرجعية القيادية التي تحمّلت عبء المسئولية، سواء في تنمية الوعي لدى الأمة الإسلامية، أو في تحقيق انتصارات سياسية، تعيد للمسلمين عزتهم ودورهم في عمليات البناء. ولن تنهض الأمة من محنتها اليوم إلا إذا توافرت تلك القيادة أو القيادات الواعية لشأن الأمة ومتطلباتها.

إن نظام المرجعية تميّز به الفكر الشيعي على الخصوص، وقد أعطى الحركة الشيعية والمجتمع الشيعي طول التاريخ قوة، بما هو مرسوم لها من هيكلية قيادية وضعت العلماء والمراجع في موقع التخصص ورجوع غير العالم إليهم في شئون دينهم، بل قد كان لمسألة اختيار (المكلف) الفرد لمرجعه الذي يأخذ منه الأحكام الدينية أهمية في المبحث الفقهي، ولعل من أوائل الكتب التي أدرجت هذا الجانب في ضمن المسائل التكليفية هو كتاب (العروة الوثقى) للعلامة الطباطبائي اليزدي، في عدة مسائل ابتدأها بتعريف المجتهد، ومواصفاته، وطرق تحديده، وكيفية اتخاذ الفتوى منه، ثم سار على هذا النهج سائر المجتهدين إلى يومنا هذا، وقد عدّت المواصفات في الرجولة، والبلوغ، والعقل،والإيمان، وطهارة المولد، والحياة، وأن يكون حراً وعادلاً، و الأعلمية مع اختلاف الآراء في سعتها وضيقها ـ وتعريفها، و إمكانها.

ولكن هل هذا كان كافياً لإصلاح شأن الأمة الإسلامية ورفعها من الحضيض إلى مصاف الأمم الأخرى التي تقدّمت في جوانب عديدة.. هنا يأتي دور المواصفات التي أبدع فيها قلة من المجتهدين، ولقد كان الإمام السيد محمد الشيرازي أحد هؤلاء، الذين لم يكتفوا بالبعد التقليدي للتقليد من جهة المكلف، وللمرجعية من جهة المجتهد، بل أضاف شروطاً تكميلية على السائد لكي تنشأ المرجعية القيادية التي تستطيع أن تغيّر الواقع، إذا ما أعطيت الثقة واتبعها الناس، وقد عبّر الكثير من المراجع عن الصفة التي ينبغي أن تتوفر في المرجع المتصدي والقائد بالكفاءة، أمثال الإمام الخميني في الحكومة الإسلامية، والشهيد السيد محمد باقر الصدر، وكذلك الإمام الشيرازي، الذي يذهب للتفصيل في مواصفات المرجع القيادي، ولكن الكفاءة مفهوم عام ونسبي، هو بحاجة إلى التفصيل، ونستطيع أن نستجليه من خلال المواصفات القيادية التي يطرحها الإمام الشيرازي.

ونحن هنا إذ نستظهر الملامح الهامة التي يؤكد عليها الإمام الشيرازي للمرجعية القيادية، لكي تكون أسساً عامة وواضحة في معرفة المراجع القادة في الأمة، ولكي يتعرّف عليهم الناس من دون لبس، لأن من تتوفّر فيهم هذه المواصفات سيكونون أولى بقيادة الأمة، لما تحتاجه في وقتها كممثلين عنها ورافعي رايتها، حيث يمكن المراهنة على القدرات

التي يحملونها تجاه كل التحديات المعاصرة.

وسنستعرض نظرة الإمام الشيرازي للمرجعية المثلى والقيادية من خلال ما يلي:

١ - (فكره) الذي يتمثل في مؤلفاته العديدة، سواء المؤلفات المباشرة في هذا الموضوع كـ(المرجعية الإسلامية) و(المرجع والأمة)، أو من الكتب الأخرى التي تناولت الموضوع بشكل غير مباشر.

٢ - (مسيرته) وتاريخه الذي مارس من خلاله دور المرجعية، والمهام التي اضطلع بها في حياته الجهادية الطويلة، كشاهد على صدق القول، وإمكانية التطبيق.

يؤسس الإمام الشيرازي مجمل المهام والمواصفات التي يجب أن تتوفر في المرجع الديني على المسألة القيادية، حيث يتولى المرجع الديني مهامها، انطلاقاً من ضرورتها بالنسبة للأمة، ولأصالتها الشرعية والدينية في الفكر الإسلامي، باعتبار المراجع هم النوّاب عن المعصوم عليه السلام فيقومون بمهام إدارة المسلمين دينياً ودنيوياً، ولابد من غير المجتهدين إتباعهم والعمل معهم.

ومن أهم تلك الملامح:

١ - المرجع المفكر:

إضافة للبعد الاجتهادي التقليدي الذي يؤهل المرجع لمستوى الفتيا، وهو البعد الذي يكتسبه المرجع من خلال دراسته الحوزوية وممارسته للعلوم التي تقود لاستنباط الحكم الشرعي وقواعده من مصادره وأدلته متمثلة في علم أصول الفقه والفقه والحديث والقرآن وغير ذلك، إضافة إلى تلك الملكة الاجتهادية، يدعو الإمام الشيرازي لأن يكون المرجع مفكراً ولديه « القدرة على إنضاج الأفكار والرؤى في مختلف الشئون الفقهية منها والسياسية والاجتماعية والثقافية، وما إلى ذلك »[٥]، وذلك إيماناً منه أن العالم المعاصر إنما يدار عبر الخطط الفكرية في مختلف المجالات، والمواجهات التي يواجهها العالم الإسلامي إنما تقوم على التفكير ورسم الخطط للوصول إلى الأهداف، فينبغي على المرجع أن يداوم على المراقبة وقراءة الواقع المتغير في مختلف مجالاته، ويذكر في ذلك: إن « عالمنا اليوم متلاطم بالأحداث والقضايا، متخم بالتطورات العلمية والسياسية والثقافية » وبالتالي « فمن الضروري أن يكون للمرجع الديني إطلاع كاف حول هذه الأمور والتطورات التي تجري من حوله »[٦] ثم لا يحدد الشيرازي ذلك الاهتمام بالقضايا الإسلامية البحتة، بل يقول: « حتى لو لم تصطبغ بالصبغة الإسلامية »[٧].

وهذا الاهتمام إنما يكون بداعي إعطاء الرؤية حول ذلك، يذكر متمماً: « ومن ثم يكون للمرجع موقف محدد من هذه التطورات إما سلباً أو إيجاباً، بالتأييد أو الشجب أو ما أشبه ذلك مما يناسب المقام »[٨]، ويلخص أسباب اهتمام المرجع بالقضايا المعاصرة في سببين، هما أن التدخل في تلك القضايا جزء من مقام الفقيه لأنه نائب عن المعصوم في

الدين والدنيا[٩]، ولأن الناس يرتبطون بالمرجع صاحب الرؤى، وخصوصاً المثقفين منهم لأنه يلبي حاجتهم وعندما لا يجدونها لدى المرجع فإنهم سيلجئون لغيره، وهذه الصفة ا أن يكون المرجع مفكراً كانت محط تداول من قبل جمع كبير من المثقفين المعاصرين، مطالبين من الفقيه أن يكون مثقفاً تحت إشكالية (الفقيه المثقف)، ولو لاحظنا تاريخ هذه الإشكالية بهذه الصورة لوجدناها انبثقت في أوائل التسعينات من القرن المنصرم، والإمام الشيرازي سبق تلك التداولات بهذه الملاحظة قبل أكثر من ثلاثة عقود من الزمن[١٠]، ولم يكتف بالتنظير لها، بل مارسها بنفسه من خلال مسيرته المرجعية.

فقد (ألف - قدّس سره الشريف - (١١٠) كتب في الشأن الثقافي العام، أي ما نسبته ١٠,٣٪ من مجمل المؤلفات، تنوّعت في القضايا الثقافية، والمعالجات المعاصرة، والتأكيد على الهمّ الثقافي عند الأمة الإسلامية. ومن أبرز العناوين: (استمرارية المؤسسات)، (ما هو الإسلام)، (في ظل الإسلام)، (الدين والسعادة ٦ج)، (الكتاب من لوازم الحياة)، (إلى نهضة ثقافية)، (جهاز التفكير)، (القرن الواحد والعشرون وتجديد الحياة)، (الإصلاح)، (ثقافة التحرير)، (إلى الكتّاب الإسلاميين)، (طريق التقدّم)، (سقوط بعد سقوط)، (كيف يمكن نجاة الغرب)، (فنّ الهداية)، (حول التبليغ في الغرب)...[١١]

هذا إضافة لما كتبه في علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والحقوق، ناقش فيها النظريات الحديثة وأعطى رؤى تناسب الحال المعاصر.

ويشهد له آخر كتبه في هذا المجال، وهو (فقه العولمة دراسة إسلامية معاصرة) الذي صدر بعد وفاته في ٣٩٨ صفحة من القطع الكبير، عالج فيه أهم ظاهرة يمر بها العالم اليوم، ويلاحظ من خلاله مدى دقة وسعة إطلاع الإمام الشيرازي على القضايا العصرية، ومقدرته الكبيرة على العلاج والنقد.

٢ - التصدّي ومواجهة الصراع:

يذهب الإمام الشيرازي إلى أن واجب المسلم يحتّم عليه العمل من أجل إقامة الدين في الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها، والمرجع هو الأولى بالتصدّي لهذه المهمة ولِما يتعرض له المسلمون في العالم من تحديات تحتم عليهم الوقوف أمامها، لأن المرجع هو القادر على استنباط الأحكام المعبرة عن الروح الدينية وهو المرجعية التي يرجع إليها الناس، وهو القائد الذي عليه أن يتحمل مسئولية الدفاع وإدارة شؤون الأمة الإسلامية، حيث يؤسس لمسؤولية المرجع بقوله: « إدارة شؤون الأمة دينياً ودنيوياً »[١٢]، خلافاً لبعض الآراء التي تحصر العمل المرجع في التصدّي للشئون الدينية بالمفهوم الفردي.

ينطلق الإمام الشيرازي من سنة (الصراع) كواقع حتمي بين الحق والباطل، لأن « الحياة ساحة ابتلاء لمعرفة مدى طاعة الإنسان وإيمانه، وعلى هذا الأساس، فإن المرجع

باعتباره نائباً عن الإمام المعصوم عليه السلام، فهو يتعرّض إلى حملات عدائية من مختلف القوى، فكان عليه أن يصمد في هذا الصراع ويواجه أعداءه بقوة الإيمان والعزيمة »[١٣].

و « يجب على المرجع أن يكون هو الطرف المدافع ابتداءً، فعليه أن لا يبتدئ بالهجوم، لأنه ليس من صفات المؤمنين العدوان »[١٤].

ويذكر في كتابه (الفقه السياسة): « فالواجب الشرعي على العالم الديني، كوجوب الصلاة والصيام، أن يهتم لأبعاد الحكام الظلمة عن الساحة الإسلامية، ليقبض زمام الأمة العلماء الراشدون، فيسيرون بالأمة، كما أراد الله سبحانه »[١٥].

ومن أجل تحقيق ذلك التصدّي فالإمام الشيرازي يدعوا المرجع لأن يتخذ احتياطياته لتكون حركته في هذا الاتجاه متناسبة مع مستوى التحدي القائم، منها:

أ - لابد « للمرجع من جبهة دفاع قوية، إذ أن أعداء الإسلام، نظموا أنفسهم في جبهة واسعة، وأصبحوا يهاجمون الإسلام بصورة منظمة ومركزّة، وإذا لم يشكل المرجع جبهة في المقابل، فإن عمله سينهار في أول مواجهة بينه وبين جبهة الكفر »[١٦].

ب- « يجب على المرجع أن يكون شديداً في مواجهة الانحرافات، سواء كانت من قبيل الانحرافات العقدية التي يثيرها الملحدون أو الانحرافات الخلقية التي ينشرها المستهزئون أو الانحرافات الناشئة من عدم الالتزام بالشريعة الإسلامية، سواء على صعيد الدولة أو المجتمع »[١٧].

ج- ومن أجل تحقيق ذلك « فلابد للمرجع أولاً أن يكون عالماً بهذه الانحرافات، فالعلم بالمشكلة هو بداية الحل »[١٨].

د- على المرجع المتصدّي (أن يضع قائمة أعماله على أساس الأهم ثم المهم، وعلى أساس هذا الترتيب يقوم المرجع بالتصدّي للأعمال الأهم ويترك الأعمال الأخرى التي تقل أهمية إلى أعوانه، مثل: كتابة الرسائل وأجوبة المسائل، وقبض أجرة العبادة وإعطائها إلى أصحابها والزيارات العامة وحضور المجالس المختلفة إلى غير ذلك.

أما الأعمال الأهم فهي من نصيب المرجع وهي إدارة الأمور، والتخطيط للمستقبل، وتوزيع الأعمال، والقرارات المهمة وما أشبه ذلك فيباشرها بنفسه »[١٩].

يعد الإمام الشيرازي في مسيرته العملية مثالاً في التصدّي وتحمّل المسؤولية والجهاد في سبيل الله، وقد خاطبه كثير من الفقهاء بعد موته بهذه الصفة لمعرفتهم بملازمتها له طيلة حياته، فقد كان يحمل همّ الأمة الإسلامية، حيث عمل من خلال التأليف فـ« قد راقب باهتمام بالغ جميع حركات التحرر، وقضايا البلاد الإسلامية السياسية، والسياسات العالمية، فكتب في ذلك مجموعة من الكتب، موجهاً ومعالجاً بل ومتنبئاً.. وكمثال على هذه الكتب: (النازحون من العراق عام١٣٩١هـ)، (حوار حول تطبيق الإسلام)، (من عوامل الاستقلال في العراق)، (لنحافظ على استقلال أفغانستان)، (إلى إخواني في الهند و باكستان وأفغانستان)، (هل سيبقى الصلح بين

العرب وإسرائيل؟)، (تدويل البلاد الإسلامية)، (ماذا بعد النفط؟)، (مجموعة البيانات ٣ج) وهي مجموعة البيانات التي كان يصدرها الإمام الشيرازي، حول الأحداث السياسية وغيرها، ومن أبرزها: (بيان حول العصيان المدني في الانتفاضة الشعبانية في العراق)، (بيان حول العدوان على الكويت - تنبأ فيه عن رجوعها إلى أهلها، وضرْب العراق ضربة عسكرية قاسية - »[٢٠].

ففي العراق واجه الإمام الشيرازي الحكومات الجائرة المتعاقبة،ابتداء من العهد الملكي وحكومة عبد الكريم قاسم مروراً بأحمد حسن البكر وانتهاءً بحزب البعث، فمارس نشاطه وتصديه، بوسائل كثيرة منها، في العهد الملكي مارس العمل الإعلامي بتأليف الكتب وتأسيس المجلات التي تتابع أحداث الساعة وتنكر على النظام مواقفه كمجلة (الأخلاق والآداب)، ومن خلال الزيارات للمسئولين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصاعدت المواقف مع الحكومات المتتالية إلى أن جاء حزب البعث بأساليبه القاسية، وأراد سجن الإمام الشيرازي وإعدامه، فهاجر إلى الكويت سرياً في عام ١٣٩١ للهجرة، بعد ما مر ببيروت.

كما دعم الثورة الإسلامية في إيران، باستقباله الإمام الخميني الحاشد، ثم واصل دعمها حتى الانتصار، ودعم المجاهدين الفلسطينيين وأفتى بوجوب تحرير القدس من أيدي اليهود[٢١]، وكتب في القضية الفلسطينية مجموعة من الكتب منها (هل سيبقى الصلح بين العرب و إسرائيل)،كما دعم قضية الأكراد في شمال العراق، وساند المسلمين المضطهدين في روسيا مساندة إعلامية، وفي اندونيسيا، وفي جنوب لبنان، والقضية الأفغانية والكشميرية، فضلاً عن متابعته للقضية العراقية في الانتفاضة الشعبانية وبعدها، بل وأعطى أراءً لمستقبل العراق عندما يزول الطاغية.

٣ - القدرة الإدارية:

الإدارة بكل بساطة في تعريف الإمام الشيرازي هي كالتالي: (الإدارة: ١- تأتي بالقدرة ٢- تحفظها ٣- تنميها٤- تأتي بأفضل النتائج ٥- في أقصر وقت ٦- بأقل قدر من المصاعب)[٢٢].

ولمّا كانت المرجعية عملية الحصول على القوة وعلى تنميتها للحصول على نتائج ومقاصد هي مقاصد الدين في الحياة، احتاجت للإدارة، ولمّا كان المرجع هو رأس هذا المشروع، فهو المعني بها أكثر من غيره، يذكر الإمام الشيرازي في كتابه كيف تدير الأمور؟ موضحاً أهمية الإدارة بالنسبة للمرجع الديني ما نصّه: « إن الإمام المجدد الحاج السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي قدس سره قال ذات مرة: (الرئاسة- ويقصد منها المرجعية الدينية تحتاج إلى مائة جزء: جزء علم وجزء عدالة... وثمانية وتسعون جزء (الإدارة) ».

وهذا الكلام صحيح جدا، فإنا نرى توفر العلم والعدالة، في كثير من الأشخاص، ثم لا نراهم مراجع لإدارة أمور المسلمين، فماذا الذي كان ناقصا فيهم، حتى تأخروا؟.

إن النقص كان في ناحية الإدارة.

أما قوله: (ثمانية وتسعون جزء) فهذا من قبل ا لتأكيد على هذه النقطة المهمة.

والاحتياج إلى (الإدارة) ليس خاصا بمرجع التقليد بل هو عام لكل من يناط به أمر، أو يكون في الطريق إلى الإناطة)[٣٣].

فيدعوا الإمام الشيرازي لأن تتوفر حسن الإدارة في المرجعية القيادية، لكي تؤدي دورها بأفضل طريقة، ومن أجل ذلك يذكر مجموعة من البنود الإدارية لابد للمرجع أن يضعها في حسبانه هي كالتالي:

أ - التركيز في العمل في الكم والكيف لكي لا يتحول العمل إلى العمل الشكلي.

ب- السماحة شرط أساسي.

ج - تنظيم المرجعية تنظيماً يضمن لها الاستمرار بالنظام المؤسسي، و إنشاء اللجان المساعدة لأعمال المرجع.

د - استثمار الطاقات المعطّلة، و قبول الناس وعدم التشكيك فيهم.

هـ- تكوين الجمعيات في مختلف الشئون.

و - المحاسبة لصدى الأعمال وانعكاساتها، وأن يتخذ الاحتياطيات اللازمة للمستقبل.

ز - أن يكون له موقف مما يدور.

ح - أن يلتزم بقواعد عريضة لتحركه، كأصول.

ط- العمل في كل الأحوال وبلا انقطاع وبلا كلل، وبذل الجهد من أجل الهدف.

ي- التوسع في الأعمال أفقياً وعمودياً، ونبذ الجمود.

ك- انتهاز الفرص واستثمار المناسبات.

ل- الإعلام عن المرجعية من أجل إقتداء الناس.

م- التقرير العام للإنجازات لتحفيزه للمزيد، ولمعرفة الناس بمدى الأعمال لكي يساهموا فيها.

أما في الجانب العملي التي جادت به سيرة الإمام الشيرازي في إدارة المرجعية الدينية، فيمكننا أن نقيسها بمقدار التوسع الذي توسعته، وعمق التحولات التي أحدثتها في المجتمع وفي مفاهيمه، فقد كّون الإمام الشيرازي مدرسة مرجعية استظل بهديها الكثير من الناس من بلدان مختلفة، ولاقت إنجازاته وأفكاره النجاح والرواج في مختلف تلك المناطق رغم التحديات التي وقفت أمامها من قبل بعض المناوئين، ومن الضغوطات السياسية المتنوعة، إلا أن الجهود والأفكار التي كان يطرحها الإمام الشيرازي راجت بشكل واسع جداً، وإننا نرى آثارها في الكثير من البلدان، وهذا يدل على القدرة الإدارية والاهتمام بالتخطيط والطموح العالي الذي كان يمتلكه، و يتحدث أحد تلاميذ مدرسته وهو الشيخ حسن الصفار عن تلك الروح بقوله: « كان الإمام الشيرازي محلقاً دائماً في طموحاته وتطلعاته، وقد يراه البعض خيالياً مثالياً فيما يطرح من مشاريع ومقترحات، وخطط وبرامج، لكنه يبرهن على إمكانية تحقيق أطروحاته بالإمكان العقلي، وبالتوجيه الديني،

ـ الذي لا يأمر بالمحال ـ وبإنجازات الأمم والعظماء في غابر الزمان وحاضره، كما يقدّم بسيرته العملية وإنجازاته الفعلية دليلاً على إمكانية تحقيق ما كان يُستبعد تحقيقه »[٢٤].

وقد كتب الشيخ محمد العليوات كتاباً بعنوان (مرجعية الإمام الشيرازي) عمق التحولات وآثار النهضة، هو عبارة عن دراسة التحولات التي أحدثتها مدرسة الإمام الشيرازي في منطقة الخليج بشكل عام، يقول في كتابه مبيناً حجم الجهود المبذولة: « الذي يلحظ الأعداد المتزايدة من العلماء والخطباء والكتّاب والقيادات الاجتماعية وأصحاب الكفاءات المختلفة التي تنتمي لهذه المدرسة في هذا الوقت، يكبر ويثمن الجهود المتفانية لهذه المدرسة، ويدرك حجم وسعة التأثير لهذه الثقافة والروح التي تقف وراءها. لقد أصبحت المنطقة تنعم بنخبة من الكفاءات في شتى المجالات الحضارية والقيادية، بعد أن كانت فقيرة جداً يعود الفضل في ذلك لهذه الثقافة، وتوفر القابليات البشرية المتميزة في المنطقة »[٢٥].

و « ذلك الكم الهائل من المؤلفات يكشف عن قدرة إدارية هائلة في استيعاب الوقت وتحقيق الإنجازات في أصعب الظروف »[٢٦].

٤ ـ الجانب المؤسسي:

إن الاجتهاد جهد فردي، حيث يقوم شخص ما ببذل وسعه من أجل الحصول على ملكة الاجتهاد، ليكون مرجع تقليد يرجع إليه الناس في الفتيا، ومهما كان ذلك الجهد الذي يبذله المرجع كبيراً، فإنه سيبقى مؤطراً في إطار قدرته كفرد، وقد استمر أداء المرجعية بهذا الشكل طيلة قرون، إلا أن التحديات الكبيرة التي ازدادت وتوسعت يحتاج الاضطلاع بها جهداً جمعياً تعاونياً، في القوى المادية وفي القدرة الفكرية، ومن المواصفات المهمة التي يراها الإمام الشيرازي للمرجعية القيادية هي الاهتمام بالجانب المؤسسي والانطلاق بالعمل إلى رحاب واسعة ومستمرة وقوية.

يدعو الشيرازي المرجع القيادي لأن يتحرك في الجانب المؤسسي في اتجاهات ثلاثة:

الأول: اتجاه المرجعية المؤسسية: وذلك من أجل ضمان استمرار المرجعية وجهودها لكي لا تبقى محكومة بالعمر الزمني لشخص المرجع، فيقول: « ينبغي تنظيم المرجعية تنظيماً يضمن لها الاستمرار والبقاء لمدة طويلة من بعده.

فإذا أتى المرجع الثاني من بعده استطاع بسهولة تامة إدارة أمور المرجعية، لأنه سيجد وضعاً منظماً لا يكلفه سوى مواصلة الطريق الذي بدأه المرجع الذي سبق »[٢٧].

الثاني: اللجان المساعدة لعمل المرجع: نظراً لتشعب الحياة وخروجها عن البساطة السابقة التي كانت عليها، وبالتالي تعدد احتياجاتها مما يشق على المرجع أداءها بمفرده فإنه يحتاج إلى يد الجماعة والتعاون من أجل الإنجاز « ولمّا كان المرجع هو المسئول عن أمور الناس وحيث أنه يرتبط بمختلف الناس ويؤدي مختلف الأعمال، فإن من الضروري إنشاء لجان لمساعدته وتقوم

كل لجنة بإنجاز عمل ما في حقل خاص، وترفع النتائج إلى المرجع »[٢٨].

الثالث: تأسيس المؤسسات في المجتمع: للمجتمع حاجاته الكثيرة والكبيرة، في مجالات مختلفة،و نظام المؤسسات هو أفضل الأنظمة لأدائه بأفضل طريقة، و « من الأعمال الضرورية التي يجب أن يقوم بها المرجع الديني، إنشاء الجمعيات في مختلف الشؤون والأبعاد »[٢٩].

وفي جانب الممارسة، فإن مرجعية الإمام الشيرازي امتازت بالحركية والحيوية والتنظيم، فبعد وفاته لم تحدث أي مشكلة في أداء أعمالها وخدماتها، كما حدث تأريخياً أن توقفت مرجعيات بعد وفاة المرجع، أو داخلتها المشكلات الإدارية وأدّت بها إلى الزوال، ومرجعية الإمام الشيرازي استمرت وإن جاء بعض المراجع من تلامذته، فإنهم يكملون المسيرة من بعده، مع استمرار طباعة كتبه المخطوطة، وتبني الكثير من المؤسسات التي تروج لفكره، كمؤسسة الإمام الشيرازي العالمية، ومركز الإمام الشيرازي للدراسات والبحوث و غيرهما.

وفي مجال التأسيس سواء اللجان والمؤسسات المرتبطة بالمرجعية أو بالنشاط الثقافي والسياسي والتبليغي، فقد « قام الإمام الشيرازي شخصياً وكذلك تلامذته وطلابه وأتباعه - بتشويقه - بتأسيس العديد من المؤسسات وفي مختلف المجالات، وتعتبر مرجعية الإمام الشيرازي من أنشط المرجعيات المعاصرة في تأسيس المؤسسات، بيد أنك أينما توجّهت بوجهك ستجد أن هناك العديد من المؤسسات التابعة لمرجعية الإمام الشيرازي »[٣٠].

ففي كربلاء أسس مدارس حفّاظ القرآن الكريم، ودار القرآن الكريم، ومكتبات عامة، أصدر مجموعة من المجلات مثل (الأخلاق والآداب)، و (القرآن يهدي)، و(نداء الإسلام)، و (صوت المبلغين) وغيرها، وقد قام ببناء وترميم المساجد والحسينيات، والمدارس والمستوصفات، ولجان الزواج، والنادي الإسلامي، وبعد رحيله للكويت أسّس مدرسة الرسول الأعظم، ومكتبة الرسول الأعظم العامة، ومجموعة من الهيئات العاملة في مجال التبليغ والعمل الإسلامي، وكذلك في إيران له مجموعة من الحوزات والمؤسسات، وفي مختلف البلدان وحتى الغربية منها وفي أمريكا..

٥ - تطوير الحوزات العلمية و تجديد المناهج:

الحوزات العلمية هي التي يتخرّج منها العلماء والفقهاء لكي يتصدوا للمرجعية، وبالتالي فهي تقوم بدور خطير ودقيق، وأداءها يعتمد على إدارتها من جهة وعلى المناهج التي تعتمدها في الدراسة من جهة أخرى، ولعل أبطئ تطوير يحدث هو ما تلاقيه الحوزات العلمية، حيث تعتمد بعض الكتب التي يعود تأليفها إلى حوالي سبعمائة سنة كشرح التجريد للعلامة الحلي قدس سره هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن العلوم الحوزوية محدودة، وهي العلوم التقليدية مثل الفقه وأصول الفقه واللغة والحديث والفلسفة، فالحوزات العلمية بحاجة ماسة للتطوير في الأساليب لتواكب حاجات العصر وتستفيد من معطياته وتقنياته،

وتحتاج إلى التجديد في المناهج بلغة جديدة، وإلى مواد علمية جديدة لتساهم في بناء علماء الدين بأفضل صورة.

وأفضل ما يمكن أن يعطي رؤية في هذا المجال هم أهل التخصص في العلوم الحوزوية والذين قطعوا جميع أشواطها، ثم انفتحوا على العالم ودرسوه بوعي، وهم المراجع القادة والمتميّزون، والإمام الشيرازي الذي رعى الكثير من الحوزات العلمية في كربلاء والكويت وإيران، يرى تلك الضرورة ونحددها في الآتي:

أ- تجديد الكتب القديمة والقيمة والدقيقة في الأسلوب، فالإمام الشيرازي يرى أن هناك كتباً قيمة ودقيقة متداولة كالكفاية، « لكنها كتبت بأسلوب قديم وباتت طريقة التدريس قديمة غير ملائمة للعصر الحاضر، لذا كان من مسئولية المرجع العمل على تغيير أساليب التدريس وإخراج هذه الكتب بثوب جديد » [٣١].

ب- إدخال العلوم المعاصرة ضمن المنهج الحوزوي، « كالسياسة والاقتصاد، فلابد من إدراج هذه العلوم في مناهج الحوزة حتى لا يتأخر طالب العلم عن ركب الحضارة المعاصرة » [٣٢].

ج- « تدريس مادة علوم القرآن الكريم في الحوزات، وجعل تفسير القرآن مادة أساسية في برامج التدريس كالفقه والأصول » [٣٣].

د- تطوير مادة الفقه حسب المستجدات والمتغيرات التي طرأت، سواء في الأساليب الكتابية أو في المادة والمضمون.

هـ- تطوير الرسالة العملية والتي تحوي على الأحكام الشرعية التي يأخذها المكلف من المرجع في أمور العبادات والمعاملات، فيقترح الإمام الشيرازي « أن تتضمن أبواب أخرى من المعارف الإسلامية، فيجب أن تشتمل الرسالة العملية على موضوعات التالية:

-١ أصول الدين. ٢- الأخلاق والآداب. ٣- الواجبات والمحرمات. ٤- المواعظ القصيرة. ٥- تعيين مسؤولية المكلّف إزاء نشر الإسلام ونشر أحكامه ومواجهة عوامل الكفر والضلال. ٦- الاستعانة ببعض الآيات والأحاديث للتشويق والترغيب، ولتوضيح بعض المسائل وللاستدلال لبعض الأحكام » [٣٤].

وفي الجانب العملي للإمام الشيرازي حول تجديد الحوزات والمناهج، فقد « أضاف الإمام الشيرازي إلى الدروس المتعارف عليها في الحوزة مجموعة من الدروس الجديدة مثل: ١- علوم القرآن الكريم. ٢- التاريخ الإسلامي. ٣- الاقتصاد. ٤- السياسة. ٥- العقائد. ٦- نهج البلاغة. ٧- الثقافة الإسلامية. ٨- تعليم اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية.

وقد أحدث إدخال هذه الدروس الجديدة والحديثة إلى مناهج الحوزة تغييراً نوعياً في تأهيل الطلاب علمياً وعملياً، مما يمكنهم من التفاعل مع الطبقات المثقفة في المجتمع، والتفاعل مع الثقافة المعاصرة، والإجابة على مختلف الإشكاليات الجديدة التي تطرح في وقتنا المعاصر » [٣٥].

وكذلك يلاحظ التجديد في الفقه الإسلامي في موسوعته الفقهية وهي أكبر موسوعة من نوعها في الفقه الإسلامي الاستدلالي، فقد استحدث فيها أبواباً جديدة لم تكن معهودة في الفقه بلغت ٢٥ موضوعاً، كان منها (الفقه السياسة)، و (الفقه الحقوق)، و(الفقه الدولة الإسلامية) و (الفقه الاجتماع) و (الفقه البيئة)، و(الفقه المرور) وغيرها.

٦ - الاهتمام الاجتماعي:

لا يمكن أن نتصور مرجعية قيادية من دون أن تولي الاهتمام بالمجتمع بكافة فئاته وشرائحه، لأن المجتمع هو المقود وهو القاعدة التي ينطلق إليها ومنها المرجع، أما إذا تخلّى المرجع عن الناس وانقطع عنهم وكان في منأى عنهم، فلن يكون له التأثير الإيجابي في الناس، بل تنتفي الأبعاد الرسالية للعلم لأن العلم إنما هو لإقامة الصلاح والخير وقيم الدين في الناس.

ويستعرض الإمام الشيرازي المشكلة التي تحاول أن تغذيها القوى المعادية للدين، وهي مشكلة عزل علماء الدين عن المجتمع، وتكريس هذه الحالة ليبتعد الناس عن العلماء، فيدعوا المراجع والعلماء وطلبة العلوم الدينية لأن ينخرطوا في المجتمع لكي لا تنفصل لغتهم عن لغته، ولكي لا يشعروا بغربة عنهم، ليتمكنوا من المساهمة في بناء المجتمع وإصلاحه[٣٦].

واهتمام المرجع بالمجتمع له عدّة جوانب يؤكد عليها الإمام الشيرازي لتكون صفة للمرجع القائد:

أ- تلبية حاجات الناس « والمرجع بما أنه مرتبط بدين الناس ودنياهم ترد عليه مختلف الحوائج والمشاكل والقضايا، فاللازم أن يهيئ نفسه لقضاء الحوائج الصغيرة منها والكبيرة. ومن الجدير أن يعين المرجع أشخاصاً متفرغين لهذه الغاية وعلى شكل لجان »[٣٧].

ب- وضع الرأي العام في الحسبان لأن « المرجع يريد قيادة الناس، فإن عليه ملاحظة الرأي العام لأنه نبض الجماهير، ما لم يخالف الشرع.

فيجب على المرجع ملاحظة هذا الأمر في تخفيف عداوة العدو بالأخلاق الحسنة أو بقضاء حاجته إن كانت مالية »[٣٨].

ج- رعاية أصحاب الحاجات، أمثال المرضى والمساكين وأصحاب العاهات والأرامل والأيتام « فالأفضل للمرجع أن ينشئ لهؤلاء مؤسسات لإيوائهم كدار العجزة ومدرسة للمكفوفين وبيوت للفقراء وما إلى ذلك »[٣٩].

د- الاهتمام بطاقات الشباب وإنشاء لجان لرعايتهم والاهتمام بهم، فهم يشكلون قوة ضاربة في المجتمع.

هـ- رقابة الانحرافات الاجتماعية والعمل على حلها ومكافحتها.

و- معرفة لغة المجتمع وطرق تفكيره واهتماماته.

وفي السيرة العملية للإمام الشيرازي نراه قد اقترب من المجتمع اقتراباً شديداً وأسّس المؤسسات الخيرية التي تقضي حاجاتهم، بل وخصّص له وقتاً لاستقبال الناس من كل الأقطار، وقد مارس الكتابة بأسلوب السهل الممتنع الذي يقترب من فهم الناس، لكي يستوعبوا ما يكتب، وكتب للمجتمع الكثير من الكتب الثقافية والاجتماعية فـ« لقد كتب قدس سره للناشئة (٦٧) كتاباً، بأسلوب مبسّط يفهمه الأطفال، ومن يخطون خطواتهم الأولى على طريق الوعي بالإسلام؛ ومنها: (كيف عرفت الله؟)، (هل تحب معرفة الله)، (القصص الحق.. عدّة أجزاء)، (هل تعرف الصلاة)، (ما هو الصيام)، (كيف نجاهد)، (أيّكم يعطي الخمس)، (العقائد الإسلامية)، (الطفل المسلم ٤ج)..

كما كتب للشباب والمثقفين الكثير - وهي أكثر كتبه - وقد بلغ ما كتبه في هذا المجال (٨٢٤) كتاباً؛ لأن أكثر القرّاء و المحتاجين للقراءة هم من هذه الطبقة. يعلل قدس سره اختياره في أكثر كتبه لهذا الأسلوب، في كتابه (أنفقوا لكي تتقدّموا) كما يلي: (إني في هذا الكتاب كسائر كتبي التي أكتبها للجماهير أختار الأسلوب البسيط، وأجعل الكتاب كالتكلّم في التفاهم والسلاسة، حتى ينفذ إلى الأعماق، ولعل الله ينفع به.. وقد شجعني على هذا الأسلوب.. الإقبال المنقطع النظير الذي لاقيته على كتبي التي أكتبها للجماهير بالإضافة إلى ما ذُكر في علم النفس من: ضرورة تحريك الجماهير بلغتهم، وقد اقتطفت من هذا الأسلوب، سواء في البيان أو القلم ثماراً طيّبة »[٤٠].

٧ - الاهتمام العالمي:

انطلاقاً من الرسالة الإسلامية التي جاءت للعالمين هداية ونجاة، فلابد أن تكون رسالة كل متحمّل لها كذلك، ومراجع الدين باعتبارهم المتصدين لحمل الرسالة الإسلامية، فلا ينبغي أن يكونوا منحصرين في مساحة مكانية صغيرة، بل عليهم أن ينطلقوا للعمل على المستوى العالمي، وخارج البلاد الإسلامية.

الصفة التي يطالب الإمام الشيرازي المرجع القيادي أن تتوفر فيه هي أن يكون عالمياً ومتوسعاً في اهتماماته وفي نشره للإسلام، ويضع هنا مجموعة من المقترحات:

أ- مراقبة التطورات العالمية التي تؤثر على المجتمع الإسلامي عبر تخطيط مجموعة من المؤسسات والدول لذلك، « لو تمعنا.. في العالم الإسلامي لوجدنا أنها ـ الأحداث ـ غير منفصلة عن التأثيرات الغربية، بل هي وليدة أحداث أو قرارات سبق واتخذتها الدول الغربية خارج العالم الإسلامي، لذا كان لابد لمن يريد إصلاح الأوضاع في العالم الإسلامي أن يراقب هذه الأحداث في مناطق نشؤها.. »[٤١].

ب- التأثير في مراكز القوة عبر تشجيع الكفاءات من الكتّاب والخطباء وأساتذة إلى الهجرة، والعمل على جمع شمل المسلمين المبعثر في البلدان الغربية للمساهمة في هذا العمل لأن (أنظمة

الحكم في البلاد الأجنبية ـ تقوم ـ على توازن مراكز القوة ـ واستناداً لنظرية الاستقطاب، يمكن التأثير في هذه المراكز وبالأخص الموجودة في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها من البلاد الغربية. والتأثير بالطبع يحصل من خلال عمل فكري وعلاقاتي في داخل تلك الدول)[٤٢].

ج- إرسال المبلغين إلى البلاد غير الإسلامية، فمن (الضروري أن يهتم المرجع بإرسال مبلغين إلى مختلف بلاد العالم، لنشر الإسلام وهداية الناس إليه).

د- النشر باللغات المختلفة، للكتب ذات المضمون الإسلامي والمسائل الفقهية.

ج- الاهتمام بالفئات غير المسلمة في البلاد الإسلامية، والعمل على هدايتهم.

وعلى مستوى السيرة العملية للإمام الشيرازي فقد كان يراقب التحولات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية على الساحة العالمية والدولية، وقد شهدت له كتبه بهذه المعرفة الدقيقة ففي الجانب الفكري « كان واعياً ومراقباً لمتطلبات الواقع فلجأ لنشر الفكر الإسلامي الأصيل، وردّ بجدارة على الفكر المضاد، تماماً كما كان فعل أهل البيت عليهم السلام في مواجهتهم لحروب التشكيك والهجمات الفكرية المنحرفة.. وأصدق برهان على معاصرة الإمام الشيرازي للواقع الفكري، وخوضه في غماره، هو المؤلفات التي ألّفها في هذا المجال والتي بلغت (٤١) كتاباً، ردّ فيها قدس سره على أصول ما تعتمد عليه كل تلك الحركات، مثل: (ماركس ينهزم)، (نقد نظريات فرويد)، (نقد المادية الديالكتيكية)، (القوميات في خمسين سنة)، (مائة سؤال حول الثالوث)، (الغرب يتغيّر)، (كيف ولماذا أسلموا)، (هؤلاء اليهود)، (ماذا في كتب النصارى)، (الصابئة في عقيدتهم وشريعتهم)، (بين الإنسان وداروِن)، (وقفة مع الوجوديين)، (مباحثات مع الشيوعيين)، (الإنسان والقرد)، (البابية والبهائية)، (كيف يمكن نجاة الغرب..)[٤٣].

ويتّضح من كتابه (فقه العولمة) الذي ناقش فيه أحدث التحولات والإشكاليات العالمية، أنه شديد المتابعة والاهتمام للقضايا العالمية، وكتب كتاب (الغرب يتغيّر) أسّس فيه إلى رأي تغيّر مسار اتجاه الغرب مستقبلاً، ووضع خطط وبرامج لإحداث التغيير في بلاد الغرب ودعوتهم إلى الإسلام في كتابه (كيف يمكن نجاة الغرب)، وكتب لمريديه المغتربين (إلى أبنائنا في البلاد الأجنبية) وهو عبارة عن إرشادات وخطط عمل لتحركهم في بلاد الغرب.

بل لم يكتف بذلك، فقد دأب على تشجيع ودعوة مريديه وطلابه لتأسيس المراكز والمؤسسات في بلاد الغرب، ليقوموا بالدعوة إلى الدين ولكي يخدموا الجاليات المسلمة، وبالفعل فقد أسست مجموعة كبيرة منها، وهي منتشرة باسم مراكز إسلامية أو مدارس ورياض أطفال ولجان خيرية ومجلات وغيرها، كما نشرت مجموعة من كتبه بلغات مختلفة.

وختاماً.. فقد أسّست مدرسة الإمام الشيرازي على المستوى النظري وعلى المستوى العملي والتطبيقي، ملامح هامة وضرورية للمرجعية القيادية التي تصلح لهذا العصر، بمختلف احتياجاته ومتطلباته □

الهوامش:

١ - كلمة الإسلام، الشهيد السيد حسن الشيرازي، ص ١٨٧.
٢ - وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ١٨، ص١٠١، الحديث٩.
٣ - الكافي، ج١، ص٢٦، الحديث ٢٩.
٤ - سورة التوبة، آية ١٢٢.
٥ - المرجعية الإسلامية، ص٢٤.
٦ - نفسه، ص ٦١.
٧ - نفسه، ص ٦١.
٨ - نفسه .
٩ - انظر المرجع والأمة، للإمام الشيرازي.
١٠ - في كتابه المرجعية الإسلامية، وغيره.
١١ - معالم العظمة (دراسة إحصائية في مؤلفات الإمام الشيرازي)، ص ١٦، محمود الموسوي.
١٢ - المرجع والأمة، الإمام الشيرازي.
١٣ - المرجعية الإسلامية، ص ٨٠.
١٤ - المرجعية الإسلامية، ص ٨٠.
١٥ - الفقه السياسة، الإمام الشيرازي، ج ١، ص٤٦.
١٦ - المرجعية الإسلامية، ص٤٢.
١٧ - نفسه، ص ١١٩.
١٨ - نفسه .
١٩ - نفسه، ص ٤٥.
٢٠ - معالم العظمة، محمود الموسوي، ص٢٩.
٢١ - أضواء على حياة الإمام الشيرازي، جماعة من العلماء، ص ٨٧.
٢٢ - كيف تدير الأمور، الإمام الشيرازي .
٢٣ - كيف تدير الأمور، الإمام الشيرازي .
٢٤ - السيد محمد الشيرازي، ملامح الشخصية وسمات الفكر، الشيخ حسن الصفار، مجلة الكلمة، العدد ٣٤، ص ٢١.
٢٥ - مرجعية الإمام الشيرازي، عمق التحولات وآثار النهضة، محمد العليوات، ص٣١.
٢٦ - معالم العظمة، محمود الموسوي، ص ٣٧.
٢٧ - المرجعية الإسلامية، ص ٥٣.
٢٨ - المرجعية الإسلامية، ص ٦٠.
٢٩ - المرجعية الإسلامية، ص ٥٨.
٣٠ - التجديد في فكر السيد محمد الشيرازي، عبد أحمد اليوسف، مجلة الكلمة العدد، ٣٤، ص٨٢.
٣١ - المرجعية الإسلامية، الإمام الشيرازي، ص ٩٢.
٣٢ - المرجعية الإسلامية، الإمام الشيرازي، ص ٩٢.
٣٣ - المرجعية الإسلامية، ص ٩٣.
٣٤ - المرجعية الإسلامية، ص ١٠٤.
٣٥ - التجديد في فكر السيد محمد الشيرازي، عبد أحمد اليوسف مجلة الكلمة، العدد ٣٤، ص ١١٢.
٣٦ - انظر (المرجعية الاسلامية) ص ١٢٣ (رجال العلم والمجتمع).
٣٧ - المرجعية الإسلامية، ص ١٠٩.
٣٨ - المرجعية الإسلامية، ص ١١٢.
٣٩ - المرجعية الإسلامية، ص ١١٣.
٤٠ - معالم العظمة، دراسة احصائية في مؤلفات الإمام الشيرازي، محمود الموسوي، ص ٣٤.
٤١ - المرجعية الإسلامية، ص ١٣١.
٤٢ - المرجعية الإسلامية، ص ١٣٣.
٤٣ - معالم العظمة، ص٢٧.

قراءة التطلعات والرؤى في فكر الإمام الشيرازي

■■ الشيخ ناجي زواد*

هـموم وتطلعـات

قليلون هم الذين نذروا أنفسهم طوال الحقب التاريخية للتصدي لعملية التغيير والإصلاح في تاريخ الأمة، وقد بدلوا كل ما بوسعهم رغم ما يجري عليهم من ظروف قهرية، وأحوال صعبة، لتصحيح مسيرة الأمة وتجديد فاعليتها وفكرها وثقافتها، وعلى ممر التاريخ الإنساني قلما برز من يقوم على صياغة مناهجها وتراثها ضمن نظريات ورؤى تنهض بها من وهدة الضياع والشتات، وتدفع بها إلى ركب الحضارة والانطلاق.

ولقد كان رجال التاريخ الذين مثلوا بجهودهم ومساعيهم أعمق نهضة إنسانية عريقة الذكر، لاستنهاض إمكانيات الأمة وحفظ تراثها وهويتها، تجاه الأخطار التي كانت تهدد شخصيتها ومكانتها من الاستلاب والتجريد من كل ما تملك من مدخرات معرفية وحضارية، وساهموا بشكل كبير في استنبات المناخ الصحي الذي يحقق لها العافية والرفاه، والأمن والاستقرار.

ومن الذين غدوا بإسهاماتهم وعطاءاتهم لإصلاح وتغيير الوضع الداخلي في الأمة، وتجديد فكرها وثقافتها لاستنهاض قدراتها وإمكانياتها الإمام الشيرازي قدس سره وقد طرق الكثير من الأبواب وتعرض لمحاور متعددة، وكان له في هذا الفن خبرة واسعة، حيث أثرى ساحة الأمة بإعماله الأدبية والفكرية والمهنية، واستطاع أن يصل بكثير من المفاهيم والرؤى وعلاقتها بهدي السنة المطهرة وروح الدين الأصيل، وأصل لكثير من العلوم والمعارف بما توفر بين يديه من أدلة شرعية، وأتت استنباطاته سلسة، تفكك الرموز الغامضة، لتصل مفاهيمها إلى سائر العقول وتصلح أن تكون منهجاً علمياً وعملياً.

ولن نضيف كثيراً إذا قلنا أن أعماله المتناثرة بين موسوعات ضخمة، ومؤلفات فريدة، ومؤسسات

---

* عالم دين وكاتب - السعودية.

منتشرة في الأصقاع، تمثل طاقة مشعة حملت من هموم الأمة وقضاياها الشيء الكثير، الأمر الذي استدعى كل هذه التضحيات الجزيلة، والحركة الدائبة، طوال مشوار حياته، ولم يدخر وسعاً لإيصال الكلمة وبث وسائل الوعي والمعرفة، لتحقيق هدفه الأصيل (حكومة ألف مليون مسلم) ناهيك عن التطلع الواسع الذي حلق به عبر أفكاره واستنباطاته الوافرة، وجلها كان يحتضن تلك الأهداف المنشودة.

فقه متحضر

ثم أنه أسبر غوراً في علوم الفقه والأصول فأتقن معانيها ومقاصدها، فعالج بها قضايا العصر وموضوعاته الحساسة، فجاءت لتواكب علوم عصرنا الحديث، فسد النقص في مجالات مختلفة ونواحي متعددة، وفتح أبواباً للحوار والمناقشة في أندية العلم والفقه، وكان حريصاً أن يتناول محاور ملحة، وكانت الضرورة تستدعي الكشف عن مدى علاقة علوم الفقه بوسائل الحياة ومقتضياتها، فكما أسهب في مناقشة القضايا الفقهية والأصولية، وأسبغ لها من الأحكام الشرعية ما تيسر من أدلة وبراهين، فقد توسل بها لتكون مدخلاً على نافذة العلوم الإنسانية، والقضايا الحياتية، فأبدع بحسن فهمه وعراقة معرفته في نظرياته وتطلعاته التي أتت مواكبة لركب الحضارة الإنسانية، فوضع نظريته في الاقتصاد وأزاح كل غموض وخلل يعتري طريقها، وتناول فصولها بدقة متناهية، وكذا الحال في رؤيته للسياسة، وهي من الأبواب الحساسة جداً، ولم تقف تطلعاته عند هذا الحد، بل مضى يؤسس دائرة معرفية واسعة النطاق، فهرعت يراعه الشريفة تتحدث عن نظرية الاجتماع، لما لها من أثر كبير على بناء نسيج الأمة وصياغة شخصيتها وفكرها، وهكذا اقتحم موضوع الإدارة بشيء من الإسهاب والشرح المفصل، ثم أطلق تصوراته في القانون، وما ينبغي قيامه عليه، وناقش نظرياته بدقة علمية وحنكة المتطلع الخبير، وعضد دائرته المعرفية بأبواب مختلفة منها في شأن الحكم الإسلامي، ومنها في علاقة الإنسان بالبيئة، وما يستوجب عليه من حفظها وصيانتها، ومنها فقه المرور، وهي أراء حديثة أفاض عليها من حلة الشريعة وعلوم أهل البيت عليهم السلام الشيء الكثير.

ويمكن لنا أن نلخص تلك الانطلاقة العلمية الرائدة في الأبعاد التالية:

١ - شغفه واهتمامه بالعلوم الشرعية والإنسانية، وكان مولعاً بالمطالعة ومحباً للكتاب، وكانت ثقافته وأفكاره تكشف عن عمق هذه الأبعاد في شخصيته، ولم يفرط بأي حال من الأحوال في أوقات فراغه دون أن يشغلها بالعطاء.

٢ - هضمه للمطالب وسرعة فهمه لمقاصدها، مما كان يعينه على كشف ارتباطها بالمعارف والعلوم الإنسانية، لتتواصل مسيرة الحركة الفكرية المواكبة لقضايا العصر ومفاهيمه.

٣ - الإبداع الراقي في تناوله للأفكار والموضوعات الحساسة التي اقتضت الدقة العلمية والموضوعية الشاملة في التعاطي معها، ولم تنقصه الشواهد والرؤى لعرض مرئياته بوضوح تام يسهل على المتلقي هضمها والانسجام معها.

عنوان للتاريخ

ومهما نسج وقيل من إطراء وثناء في حقه فهو قليل، إذ نذر أن يولد عبر هذه العصور والأجيال المتلاحقة شخصية مشابهة له في العطاء والتطلع، وسعة المعرفة والثقافة، وسبر غور العلم، لتتفتح بين يديه مناهلها، فتتناثر الأفكار والرؤى بوفرتها من بين ثناياه وأنامله، بل لن نعطيه كل حقه مهما خلعنا عليه من أوسمة، فلقد كان رجل تاريخ وتاريخ أمة، ينطلق عبر قنواتها بعنفوان الشباب والمراهقة، فما كان لنشاطه وفاعليته قدر محدود، فسارع مساحات الزمن، وكان طوفانه يخترق أتون المحن، ويبدد الصعوبات المستعصية، ورغم ما عانى من انتقاص لمكانته العلمية، إلا أنه كان يسترسل في عطاءه وجهاده، دون أن يعتريه ضجر أو ملل، ولا يكاد يكلل تضحياته بإنجازات متلاحقة ومتميزة، إلا وتدفقت بين يديه من المفاهيم والرؤى، مآثر نفيسة، ولن نبالغ إذا ما زعمنا أن ما جاشت به نفسه، وصاغته روحه، من علوم ومعارف وثقافة، بحاجة إلى مساحة تاريخية واسعة كيما يستوعب، وتأتي ثماره الخيرة، ولقد كان إيمانه الكبير هو الذي يدفعه لتقديم كل تلك التضحيات والإنجازات، ولطالما شملته عناية السماء فوفقت حركته ومساعيه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت/٦٩.

المدرسة الشيرازية

لقد انحدر المرجع السيد الشيرازي قدس سره من أسرة علمية عريقة الذكر، كان لها الصدارة في مجال الفقه والإصلاح ومقارعة مدّ الاستعمار في الأمة، ولقد ورث عنها الخصال النفيسة، واكتسب منها علمه وجهاده وتضحياته، وظل طوال مسيرته العلمية والجهادية يعنى بإرساء أسس هذه المدرسة وتأسيس كيانها، وكانت عطاءاته الجزيلة تدعم هذا البناء، الذي حمل من التصورات والرؤى ما يطلقها لخدمة المجتمع وإثراء مسيرته، وكان هم هذه المدرسة الإصلاح والتغيير، وتجديد فكر الأمة وثقافتها، لتكون أقدر على مواجهة الأخطار المحدقة بها، ومنذ أضحى المستعمر يعبث بهوية الأمة وشخصيتها وموروثها الحضاري، كان رعيل من أبناء الأمة في مقدمتهم العلماء الأجلاء تتواصل مساعيهم الحثيثة لإعادة ما استلب منها، ولا مناص من أنه طرق مواضيع متعددة تناول فيها ما استخدمه المستعمر واستفاده من وسائل وسبل للسيطرة والتحكم بمقدرات الأمة وواقعها، وبحث في الكثير من تأليفاته عن الحيثيات التي يتخلص فيها عالم المسلمين من تحكم المستعمرين والمستبدين بواقع الأمة.

وصفوة القول إن المرجع الشيرازي أجاد قدس سره مواصلة عطاء هذه المدرسة، ودعم بناءها بأسس متينة، وطور مناهجها ووسائلها بما يجعلها متمكنة من البقاء والاستمرار مدة أطول في عالم العطاء والتضحية، لتكرس جهدها في خدمة المجتمع.

الأخلاق الفاضلة

مع جهد الأنبياء والرسل عليهم السلام وعناءهم الدائم وفي مقدمتهم رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت

السماء تقدر لهم كل ذلك العناء والمشقة، غير أن القرآن الكريم حين أراد الحديث عن تلك الإسهامات العظيمة التي قدمتها الرسالة طوال مراحل الدعوة، كان العنصر الأخلاقي المتميز يتجلى في تحقيق المكاسب، فقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ القلم/٤. وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ عمران/١٥٩. فأضحى العنصر الأخلاقي العامل المؤثر في بناء خط الدعوة، فمضت سيرة الأوصياء والصالحين تقتفي هذا الأثر، وكان العلماء الأجلاء يسطرون صفحات حياتهم بمآثر أخلاقهم، فجاء المرجع الشيرازي قدس سره ليحيي هذه السنة بدماثة أخلاقه، وافقه الواسع في التعامل مع سائر الأطراف والتوجهات، وكان القريب والبعيد يألف فيه الخلق الرفيع، ويلامس هذه الأحاسيس الجياشة بما تحمل من مناقبية وقيم، وكانت هذه الأخلاق تحتضن الصغير والكبير، القريب والبعيد، الصديق والمعادي، وكان يؤثر البساطة في سائر أموره الشخصية، ويوصي المقربين منه بذلك، وطوال مسيرة حياته النضالية أبى أن يعيش إلا متواضعاً، مقتفياً بذلك سيرة الصالحين والأئمة المعصومين عليهم السلام، ورغم ما كان له من المؤيدين والأصدقاء من كافة أبناء المجتمع وتوجهاته، وفيهم الأثرياء والوجهاء، وكانوا يبدون لسماحته عدم ارتياحهم للوضع الذي يعيشه، فيلتمسون منه أن يهيئوا له داراً تتناسب مع وضعه ومنزلته، لكنه كان يرفض ويطلب منهم أن يكون عطاءهم لتأسيس المشاريع الخيرية، ودعم العمل الرسالي، وجاء هذا البعد ليأصل لوناً جديداً من التألق الفكري الذي يتجاوز الأطر الشخصية والمحاور الذاتية التي تعيش الأنانية الفردية، ولا تشارك الآخرين همومهم وقضاياهم.

تألق مرجعي

جهدت الحوزة العلمية طوال حقبها التاريخية لرعاية أمر المسلمين، وأتت مساعيها الخيرة لحفظ تراث الأمة وأصالتها من الاستلاب والضياع، وكانت مشاريعها تقوم على تكريس واقع التدين في المجتمعات المؤمنة، وبقت المرجعية طوال عهودها المحور الذي يلتف الناس حوله، ليستقون عنها مبادئ الدين وتعاليمه الأصيلة، وعنت لنشر العلوم والمعارف لتعضد مسيرة الأمة بالفكر والثقافة، ولم يتوانى العلماء الأعلام من إيصال قبس الهداية إلى سائر الناس، فأضحى الهدف الذي يبتغيه رجالات العلم هو تبصير المجتمعات وتفقيههم بأمور دينهم، ورفدهم بمنطلقاتهم في الحياة، ولقد اكتسب المرجع الشيرازي (من أسلافه العلماء التطلع والطموح، فلم تكن المرجعية بالنسبة إليه تعني العكوف على دروس الفقه والأصول والمنطق والنحو، لتعزله عن هموم وتطلعات الأمة، بل كان يستلهم من روح الشريعة الغراء ما يعينه على خدمة المجتمعات وإثراء واقعهم بالمعارف والعلوم، فيطلق نظره بعيداً ليعالج ما استعصى من أمور ملحة، ولطالما كشف عن مدى تعمقه وانفتاحه على قضايا المجتمعات، ولم يكن مرجعاً يغفل مجريات الحياة وخصوصياتها الملحة، بل كان يواكب مسيرة العصر، فينقدها بسعة تطلعه وخبرته، هذا فضلاً عن أحاطته الواسعة بقضايا الأمة، ورؤيته العميقة بشؤونها، الأمر الذي جعله أكثر إحاطة بقراءة

الواقع ووضع العلاج المناسب لعلاج الظواهر المرضية، وكان مشروعه المرجعي يحمل هموم إصلاحية واسعة النطاق اقتضت تفرغه وانشغاله التام لتأسيس المؤسسات التي تباشر هذه الأدوار، واستدعى ما أمكن من وسائل وآليات لتيسير مسيرتها واستنهاض قدراتها.

ومن سماته المميزة احترامه الكبير لأهل العلم، فمع ما كان يتمتع به من تأهيل علمي راقي ومتقدم، سبق به الكثيرين في مجالات مختلفة، سيما آفاقه وتطلعاته الرحبة التي دفعته لإطلاق حركته وجهاده، إلا أنه لم يكن يقصي أحداً من أهل العلم، بل كان يجلهم ويقدر عطاءهم وجهدهم، وإذا كان دور العلم والعلماء ظل مغيباً أحقاباً متلاحقة في واقع الأمة، فقد كان يبذل جهداً كبيراً في استحضار مآثرهم وسيرهم، دون أن يخفي إعجابه واحترامه الكبير لهم، ورغم ما كان يحضره من أحداث التاريخ ووقائعه، إلا أنه كان يدعم أفكاره وتصوراته بشواهد من تاريخ العلماء، ولقد ابتغى بذلك تكريس دور العلماء وما يتحملونه من مشاق وصعوبات في هذا الطريق، وكان مع ما أنتج من موسعات وكتب تجاوزت الألف كتاب، إلا أنه كان يحترم عطاءهم ويثني على إنجازاتهم مهما كانت، يسيرة أم كبيرة، ولم يكن هذا حض الأموات فحسب، بل كان تعامله مع الأحياء الذين عاصروه.

رسالية التأليف

لقد نهضت رسالة الدين منذ نشأتها الأولى بواقع المسلم لتعتقه من التخلف والانحطاط الذي كان يسيطر على الحياة بكافة ميادينها، وكان ذلك يستدعي الاهتمام بوسائل العلم والمعارف، لإطلاق مسيرة المجتمع، كيما تتقدم وتتطور أموره إلى الأفضل والأحسن، وسعت بكامل قدراتها لتهيئة العقول للاستجابة والانسجام مع المعارف والعلوم، وشجعت لاستخدام كافة الوسائل المتاحة للمحافظة على هذا النتاج المعرفي، بالحفظ والكتابة، فورد في الحديث الشريف: « قيدوا العلم بالكتابة » كيما يتواصل هذا التراث مع الأجيال المسلمة، جيلاً بعد جيل، وجاء عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: « من مات وميراثه الدفاتر والمحابر وجبت له الجنة »[1] ومنذ تلك الدعوة كان المسلمون يتعاقبون على هذا الشأن الذي بعث بهم إلى التقدم والنهوض.

لم تكن الكتابة والتأليف في حياة المرجع الشيرازي قدس سره هواية يتمسك بها، أو موهبة ينميها، وإنما كانت رسالة يبتغي بها نشر الوعي وإيصال الكلمة الصادقة إلى جماهير الأمة، ولذلك لم يراع فيها دقة الصياغة وانتخاب الألفاظ قدر ما كان يهتم بإبراز الرؤى والأفكار، لذلك اعتمد في جل أعماله الأدبية على تسهيل المطالب وتبسيطها قدر الإمكان، لتأتي نافعة لسائر قطاعات المجتمع، ومنذ أن بدأ مشروعه الكتابي انتهج ذات الأسلوب في الطرح والمناقشة، ولطالما كان يكثر من الشواهد التي تقرب لقراءة هضم الرؤى والأفكار التي دأب على نشرها، وغني عن الذكر أن نقول: أنه لم يكن قليل المعرفة بأساليب التعمق في البحوث وإنشاء الطلاسم الغامضة على الإفهام، لكنه كان يتبع سبيل التيسير فيما يدعو ويبشر به، انطلاقاً من الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

« بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا » بل مضى في بعث رسالته إلى براعم الأمة، فأفرد لهم مساحة من عطاءه، فكتب القصص، وطرح الأفكار في تبسيط تام، في الثقافة والعقائد والتاريخ.

ثم أنه خاض محاور مختلفة ليخاطب بها سائر القطاعات والطبقات، ليستنهض القدرات والكفاءات ويدفع مسيرتها في ركب الحضارة والتقدم، وكان عطاءه المعرفي ثروة فكرية رائدة أسهمت في استنبات المناخ الثقافي في الأوساط الإيمانية، ودفعت مسيرة الرؤى والأفكار في عالم المعرفة، فلا يمكن لأي انطلاقة أن تتقدم إلا بتبني الرؤى والأفكار، يقول الإمام علي عليه السلام: « اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة »[٢].

ورغم ما كان يقوم به من دور كبير في الكتابة والتأليف، كان يكثر من إلحاحه على الطلبة والمهتمين بالشأن الثقافي والديني، على امتهان وظيفة الكتابة والتأليف، ولم يتخلى عن توجيهه وتشجيعه الدائم، وببركة مساعيه وتوصياته أهتم جمع من العلماء والمثقفين بالكتابة والتأليف، وأثروا الساحة بموضوعاتهم الهادفة، ولا زالوا يواصلون في هذا الجانب.

ومحصلة الحديث فقد انطلق المرجع الشيرازي قدس سره في عالم الكتابة والتأليف من المحاور التالية:

١ - الهدفية.. وهي تبتغي تذليل المطالب وتسهيلها لتصل إلى عامة الناس بكافة مستوياتهم وتوجهاتهم، وإثراءهم بالعلوم والمعارف، وكشف الحقائق الداعية لخلاصهم من الأمية المعرفية.

٢ - نشر وسائل الوعي في ربوع الأمة، وكانت نشراته المتناثرة في أصقاع العالم تكرس هذا التوجه في أجيال الأمة، سيما الناشئة الذين تفاعلوا وانسجموا مع تطلعاته وأفكاره، ووجدوا فيها السبيل إلى تحقيق الطموحات والأهداف.

٣ - استنهاض الواقع للاندفاع في ميادين العمل، فالساحة لا تتقدم بالنظريات والأفكار فحسب، وإنما هي بحاجة إلى النشاط والفاعلية في المجالات المهنية، بل لا تتكون مسيرة التكامل إلا من خلال انسجامهما وتعاضدهما على هذا الصعيد.

منطلقات المأسسة التوعوية

العظماء في التاريخ لم يتقوقعوا في زوايا ضيقة في الحياة، ولم ينطلقوا من فكر محدود، يقتصر على مرئيات قشرية ومفاهيم لا تتعدى النظم التقليدية، بل كانوا ينفتحون على الحياة بكاملها، وينطلقون في رحاب الفكر والمعرفة ليستلهموا منها العمل والكفاح والنشاط في سبيل الإنسانية المعذبة، فعشقهم للعلم لم يأت في طريقهم ليجعلهم في مصاف العلماء فحسب، وإنما كانت الرسالة التبصيرية التي تكشف لهم السبل الهادية لاختراق مجالات العمل وتكريس النشاط والفاعلية في ميادين الحياة، هي الهدف الأسمى الذي يدفعهم لتحمل المشاق والعناء في سبيل تحصيل وكسب المعارف والعلوم.

وبقدر ما كان المرجع الشيرازي قدس سره مفعماً بالحيوية والفاعلية والنشاط، فإنه أضاف

إلى أعماله ومشاريعه، محاور وأطر متعددة كيما تأتي على تكميل أهدافه ومنطلقاته، فجاءت دعوته الدائمة لإنشاء المراكز والمؤسسات والهيئات التي تدعم سير النهضة، فبادر منذ إطلاق حركته النهضوية إلى تأسيس المشاريع الخيرية، وكانت بمثابة انبعاث تيار الصحوة في الأوساط الجماهيرية، ولم تأت هذه الحركة لتكشف عن مقدرة التوجهات الإسلامية على التنظيم والانبعاث من جديد لتبني هذه الأدوار فحسب، وإنما كانت تحتضن ذلك التطلع الذي يحقق الطموحات والأهداف الكبرى، التي تبتغي الوصول لها، وقد تعددت أطر تلك المؤسسات وأهدافها، وكانت تقوم بأدوار ريادية وتوعوية في الأوساط الإسلامية وغير الإسلامية، ولها من معطيات التأثير في الجوانب الدينية والفكرية والثقافية الشيء الكثير، ونذكر منها:

١ - إنشاء دور لحفظ القرآن الكريم بمختلف المراحل والمستويات.
٢ - بناء المساجد والحسينيات.
٣ - تأسيس الهيئات التوعوية للشباب.
٤ - إنشاء المكتبات العامة للمطالعة.
٥ - إرسال المبلغين في أقطار بلاد العالم.
٦ - بناء المستوصفات الخيرية لعلاج المرضى.
٧ - إصدار النشرات والمجلات الإسلامية.
٨ - افتتاح المراكز الإسلامية في أقطار العالم.
٩ - إنشاء صناديق خيرية.
١٠ - توفير هيئات للتزويج وتيسير أمور الزواج.

إلى غيرها من المشاريع والمؤسسات التي أسست لخدمة المجتمع ودعم تطلعاته وطموحاته، واستقطاب طاقاته وكفاءاته وتفعيلها في حركة نهضة الأمة وانطلاقتها، ومن التصورات التي يشير إليها عبر كتاباته وتوجيهاته، ما جاء في كتاب (الحكم في الإسلام) حيث يقول: المجتمع الإسلامي يجب أن ينقلب إلى ألوف المؤسسات حتى يصبح دولة عصرية آمنة من التزعزع والانهيار والانهزام أمام الأعداء.[٣].

وهكذا يشير في موضع آخر إلى ضرورة إنشاء ودعم المؤسسات الاجتماعية لتتحسن أوضاع الناس، فيقول: من الضروري إيجاد النقابات والتكتلات والهيئات والجمعيات لتحسين أوضاع الناس، وتقديم البلاد إلى الأمام فإن « يد الله مع الجماعة » و« المسلمون كالبدن الواحد إذا اشتكى عضوا اشتكت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »[٤].

تطلعات تغييرية في الواقع المسلم

في ظل الظروف التي يعيشها العالم المسلم، من تراكم الأزمات وانحراف الأيدلوجيات، وتخبط في المسيرة الدينية والحياتية، ظل السيد الشيرازي (منذ حداثة سنه يضع كامل

تصوراته ومرئياته في تغيير هذا الواقع، الذي لن يتم إلا بإرادة جماهيرية واسعة النطاق، والتفافها حول المصلحين والمغيرين من عقلاء الأمة ومثقفيها، ودون في جملة من تأليفاته ملامح نظريته في العمل التغييري، والتي منها: السبيل إلى إنهاض المسلمين، والصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام، وممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين، إلى غيرها كثير.

ومن الضرورة بمكان معرفة أن نظم التغيير لا تتم إلا من خلال إرادة جماهيرية حقيقية تنبعث من رحم الأمة لتمارس دور التغيير والإصلاح في ربوعها، ولكي تتواصل بركة هذه النواة عمقاً وتجدراً ونمواً في حركة النهضة، ينبغي على المصلحين والمخلصين والشرفاء بشتى شرائحهم وتوجهاتهم أن يجتهدوا على تعبئة الجماهير ورفدها بالأفكار والرؤى التي تقدم من وعيها وثقافتها ومعرفتها.

وفي خضم هذه الرؤى والتطلعات كان المرجع الشيرازي قدس سره يبادر في نشر ثقافة الوعي وتصحيح المقاصد والأهداف، ويدعو عبر سائر الوسائل والأدوات الإعلامية إلى التغيير بما أمكن، لإخراج الجماهير من النفق المظلم الذي يسيطر على مقدراتها وإمكانياتها، وأمام ما يواجه الأجيال من أخطار ثقافية تهدد استقامتها وتمسكها بتراثها وأصالتها، كان يباشر في وضع الأسس التي تتبني عليها تطلعات المسلم وعقيدته في غمار الحياة، ومن جملة ما أكد عليه في دفع حركة التغيير الأمور التالية:

أولاً: بناء نهضة ثقافية:

من أولويات ركائز التغيير نشر الثقافة الإسلامية الهادفة بشتى الوسائل المتاحة، بين مرئي ومسموع ومقروء، ولا يخفى ما لها من تأثير كبير على صياغة الأجيال وبلورة أفكارهم ومعتقداتهم، ولقد أضحت النظم القائمة تندفع للاهتمام بهذا العنصر، وباتت تنفق في سبيله الشيء الكثير، من وقتها وجهدها، إضافة إلى تأسيس المعاهد الدراسية والمراكز المتخصصة بتعميم هذه الثقافات والأفكار، وقد نصاب بالدهشة حين تطالعنا الإحصائيات عن الكم الهائل من الإنتاج الثقافي والمعرفي.

ففي دراسة ترجمها مركز الإمارات للدراسات الإستراتيجية في أبو ظبي ظهر أن الإنتاج الإسرائيلي من الكتب يوازي أربعة آلاف كتاب في السنة، في الوقت الذي تنشر في مصر - وهي أكبر منتجة للثقافة العربية - حوالي ٢٨٠ كتاباً في العام.

ليس هذا فحسب وإنما.. أحصيت أخيراً خمسة عشر مركزاً للدراسات الإستراتيجية والسياسية في إسرائيل مهمتها البحث وتقديم الدراسات عن العالم العربي، وهي منتشرة في جامعات تل أبيب، وحيفا، وبن جوربون، والعبرية في القدس، ويرأس هذه المراكز متخصصون في دراسات الشرق الأوسط واللغة والثقافات الشرق أوسطية والعلوم السياسية والاجتماعية[٥].

وتؤكد دراسة علمية نوقشت في كلية الإعلام، في جامعة القاهرة، أن ٢٨٨٠ جريدة ومجلة،

وما يقارب ٤٠٠٠ محطة تلفازية، وما يزيد على ٤٩٠ دار نشر تصدر نحو ٣٠٠٠ كتاب سنوياً بجميع اللغات وأن أكثر من ١١٥٠ محطة إذاعية مملوكة لمراكز وجهات وشركات يهودية؟!! ويذكر أن الإنفاق على البحث العلمي والتطوير بلغ لدى الكيان الصهيوني نحو ١,٨٪ من إجمالي الناتج المحلي بينما لم يتجاوز ٠٢٪ في الدول العربية كافة!؟ ووصل عدد الدوريات العلمية الصادرة من قبل اليهود في فلسطين المحتلة، ٣٧٠ دورية بينما يصل عددها في الوطن العربي ١٧٣ دورية، وبمقارنة دولة صغيرة مثل بلجيكا تبلغ إصداراتها ما يقارب ١٢٠٠٠ ألف سنوياً، بينما عدد السكان في الوطن العربي أصبح ما يقارب ٣٠٠ مليون نسمة، ويبلغ إجمالي ما تنتجه دور النشر العربية ما يقرب ٨٠٠٠ سنوياً في مختلف الميادين العلم والمعرفة أما اليابان فتصدر (٣٥) ألف عنوان سنوياً تقريباً، وهذا ما يمثل ضعفي ما ينشر في الولايات المتحدة.

وخلصت إليه طاولة مستديرة نظمتها أكاديمية العالم الثالث للعلوم في مدينة تريستا الإيطالية، قدم فيها باحثون أرقاماً مقلقة فموازنات البحث العلمي في العالم العربي لا تتجاوز ٠٢٪ من الدخل القومي مقارنة مع ٢٢٪ في اليابان أي أكثر بـ١١٠ أضعاف وفي المقابل موازنات البحث العلمي الضئيلة، يصرف العرب ٧٪ من دخلهم القومي على التسلح أي ٣٥ مرة أكثر مما يصرفون على العلم، أما عدد الباحثين العلميين العرب، لا يتجاوز الـ٢٠ ألفاً من أصل ٢٨٢ مليون شخص يقطنون في الوطن العربي[٦].

ولا غرو أن هذه الثقافات تخترق الآفاق، وتجتاز كل الحواجز والسدود، ونحن اليوم أمام هذه الأخطار لا نأتي إلا بالقليل من النتاج الثقافي، وتكاد تكون في مجالات محدودة جداً، ولا يمكن لثقافتنا أن تنهض بواقعنا وتجابه ذلك السيل الجارف إلا حين تكون بالمستوى المناسب مع متطلبات واحتياجات الواقع، ومن هذا المنطلق يفترض المرجع الشيرازي قدس سره: أننا لو ألفنا ألف مليون كتاب ووزعنا هذه الكتب في كل البلاد الإسلامية فستكون حصة كل فرد مسلم كتاباً واحداً[٧]. بل تجده يدعو إلى تدويل الفكر الإسلامي، إذ لا زالت المراكز الإسلامية المختصة بهذا الشأن ينقصها الكثير، فضلاً عن قلة الدعم الذي تلقاه، وينقل عن بعض المجلات أن الاتحاد السوفيتي طبع ووزع في سنة واحدة فقط، واحد وعشرين ملياراً من الكتب، ويضيف قائلاً: لقد ترجم كتاب ماوتسي تنخ (الكتاب الأحمر) إلى أربعمائة لغة رغم عدم مرور حتى نصف قرن على تاريخ انتشار (الماركسية المادية)[٨]. ففي الوقت الذي تلقى الثقافة كل هذا الاهتمام من العالم الخارجي لا نتعاطاها إلا في أطر محدودة، مع أن دعوة الإسلام الأولى كانت التأكيد على هذه المادة، وندبت المسلم ليتقصى نور الحكمة ومنابعها أينما كانت ليستل منها وعيه وفهمه، لكنه تخلى فأضحى عرضة للأخطار.

ثم أن الثقافة أضحت المعلم المؤثر في عالم الحياة، وهي ركيزة أساسية من ركائز البناء والتطور في التصور الحضاري، ومن مقومات البعث في نهضة الأمم وتقدمها، فلا تجد مجتمعاً ما قد تقدم وتطور في ميادين حياته المهنية والمعرفية، إلا وهو يمتلك رصيداً من المعارف والعلوم تنتهي به إلى الرقي والتقدم، الأمر الذي جعل الغرب والشرق يسارعا في

المبادرة إلى الاهتمام بها، وتكثيف النشاط في مضمار بناءها وتقدمها، ويكشف السيد المرجع قدس سره عن هذا الاهتمام قائلاً: قد أغفل المسلمون أهمية التثقيف وتناسوه في الوقت الذي أدرك الغربيون والشرقيون أهميته وراحوا يعملون بكل طاقاتهم في هذا السبيل.[٩].

ثانياً: الوعي ركيزة التقدم:

قبال ما يعيشه واقعنا الإسلامي من رهانات وتحديات ومخاطر محدقة تكاد تسلب منه كافة ثرواته وقدراته وإمكانياته، وتغيب هويته وشخصيته من ميادين الحياة وحاضرها، نحن بحاجة ماسة إلى امتلاك الوعي، لتتسع آفاقنا وبصائرنا فنكون أقدر على فهم ما يدور حولنا من مستجدات وأحداث، ودون ذلك ستتضاعف الانهزامات، وستتراكم الأزمات.

ولا يكفي بحال من الأحوال الزعم بقدرتنا على العمل والنشاط، فلربما ذهب كل ذلك أدراج الرياح وتلاشى بأسرع مما نتصور، حين نفتقر إلى هذا الأساس، ولقد ورد عن الصادق عليه السلام قال: « العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعدا »[١٠].

ففي ظل المعطيات التي نعيشها والرهانات الحرجة التي تعترض مسيرتنا، لا يسعنا إلا أن نكثف من جهودنا ومساعينا لنكتسب فكراً ووعياً يعيننا على المواجهة وفقه ما يجري علينا من مكائد ودسائس، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: « العالم بزمانه، لا هجم عليه اللوابس »[١١].

ونحن كأمة استطاعت أن تنهض بوسائل العلم والمعرفة وتحقيق تلك الإنجازات الضخمة في فترة وجيزة، وجنت تلك المكتسبات الهائلة عبر مراحل تكوينها، لسنا في معزل عن المكائد والدسائس التي تهدف إلى جعلنا في سبات وضياع وشتات، بل ستبقى تلك المساعي لتغرقنا في مستنقعات الضياع، وما لم نخلص إلى وسائل الوعي بالتطلع والمعرفة فلن نبرح ذلك الواقع المقيت، ومن هذا المنطلق يؤكد المرجع الراحل قدس سره في دراسته المتأنية لظواهر الواقع ومستحدثاته إلى ضرورة تعميم وسائل الوعي الإسلامي العقائدي والاقتصادي والسياسي والشرائعي والاجتماعي والتربوي والعسكري والزراعي والاستقلالي، في كافة البلاد الإسلامية بواسطة الإذاعة والصحف والمجلات والنوادي والكتب والمؤتمرات وغيرها[١٢].

ثم أن الضرورة التي تستدعي المثابرة إلى التسلح بوسائل الوعي والمعرفة، أن العالم الإسلامي برغم ما يتمتع به من كثافة سكانية وبشرية، ومؤهلات جغرافية واستراتيجية، إضافة إلى الكفاءات العلمية والمهنية، إلا أنه لا زال يعيش الأزمات والانقسامات، وتفشي الظواهر المرضية في جل ميادينه ومجالات حياته، ومع ما يؤرقه إزاء كل ذلك، لا يزال يعيش ذات الهموم والقضايا، نتيجة عدم تحول الوعي إلى إرادة فاعلة، تتفاعل مع معطيات الحاضر ومتطلبات الواقع، وقد حذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته مغبة أن تصل بمسيرتها إلى هذه المنعطفات الحرجة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: « يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة إلى قصعتها، (قال: قائل منهم): من قلّة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعنّ الله من عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن »[١٣].

وأمام هذه الحقيقة المرة التي نشهدها يأتي المرجع الشيرازي قدس سره ليبين مكمن الخلل الذي

انتهى بالمسلمين إلى هذا الحال، يقول: يبلغ عدد المسلمين —حسب بعض الإحصاءات- ألف مليون، لكنهم مبعثرون جغرافياً وإقليمياً ولغوياً، ويعيشون تحت سيطرة الاستعمار والاستغلال، أما قوانينهم فقد أصبحت وضعية بعد ما كانت إلهية، وإنما أصابهم هذا التبضع والتشتت لعدم اتخاذهم الإسلام منهجاً علمياً في الحياة، وقد صدق الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ طـه/١٢٤[١٤].

ثالثاً: التنظيم وسيلة الإصلاح:

لقد اعتمد المعسكر الغربي والشرقي على التنظيم كأساس دافع لعجلة تقدمه وحضارته، واستطاع أن يحقق نتائجاً هائلة ضمن نطاقات واسعة من الحياة، فغدا يوظف قدراته وكفاءاته في قنوات هامة ومفيدة للكسب الحضاري، فأتاح المجال لتأسيس الهيئات والمؤسسات والمنظمات، لإطلاق مجتمعاته في ميادين العمل والعطاء، وبذل جهوداً مضنية لإشراك أفراده في هذا السياق.

وبعيداً عما نشهده من تقدم هائل وتطور مستمر لحضارة الغرب والشرق، نحن أمام حقائق قائمة تقر صحة هذه الدعوى، حيث أصبح التنظيم من الركائز الرئيسية واللازمة لحياة العالم المعاصر، وغدا التنافس في هذا المجال بشكل ملحوظ، وتحول إلى سلاح للمواجهة.

ويستشعر المرجع الشيرازي قدس سره مدى الخطر الكبير الذي يواجه الأمة أمام الإحصاءات الضخمة سُبل التنظيم عند الشرق والغرب، فيقول: إن للصهاينة خمسة ملايين منظم، وللصين الشيوعية ما لا يقل عن عشرين مليون منظم، وللبلاد الأوروبية التسعة مع أمريكا: خمسون مليون منظم[١٥].

إن العالم المسلم يعيش اليوم ضمن رهانات حرجة، وفي ظل معطيات قاسية، ليس له القدرة على مواجهتها إلا بتنظيم مؤسساته وقدراته، ولقد أضحى يواجه عدواً منظماً، يبتكر أرقى وسائل التنظيم الحديثة، ليوظفها في سبيل السيطرة على مقدراتنا وثرواتنا.

ولقد حرصت رسالة الإسلام منذ نشأتها على إرساء قواعد التنظيم في أرجاء الحياة، لا اقتصاراً على توظيفها في حركة الدعوة والرسالة فحسب، أو قسرها على الفروض الدينية والعبادية، وإنما إطلاقها لتقنين وتقويم مجريات الحياة، بل أضحت هذه المفاهيم المغيبة في واقعنا وحياتنا الأسس والركائز التي دفعت بمجتمع الرسالة إلى تحقيق نهضة علمية ومهنية واسعة النطاق، وعضدت مسيرتها الجهادية المظفرة، وورد في الحديث عن النعمان قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسوّي صفوفنا حتّى كأنّما يسوي بها القداح حتى رأى أنا قد غفلنا عنه، ثم خرج يوماً فقام حتى كاد أن يكبر فرأى رجلاً بادياً صدره، فقال صلى الله عليه وآله: عباد الله لتسوّن صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم »[١٦].

وفي خضم ذلك ينوه المرجع الشيرازي قدس سره إلى أهمية التنظيم كأساس دافع لنهضة حركة التغيير والإصلاح في ربوع الأمة، فيقول: إننا بدون التنظيم لن نستطيع من مواجهة التحديات المعاصرة، ولن نتمكن من الوقوف أمام الشرق والغرب، وعملائهما[١٧].

قضايا فكرية ساخنة

لقد امتاز المرجع الشيرازي تدثر بسعة تطلعه وقدرته على ابتكار الرؤى والأفكار الهادفة وبلورتها ضمن معطيات الحاضر واستشراف المستقبل، سيما ما يرتبط مع مجريات العصر وأحداثه، وتكاد تلمس من خلال إنجازاته الجزيلة، الأفق الرحب، الذي يستوعب قضايا الساحة وهمومها، وفي خضم تصنيفاته المتناثرة في الأصقاع تطرق إلى الكثير من المحاور التي أنشأها كنتيجة قراءتية لمراحل الواقع الإسلامي، ومن أبرز هذه الرؤى التي استلخصها عبر مشواره الطويل، نظريته في السلم الاجتماعي، القائمة على إتباع وسائل الحوار الهادئة، وقبول الطرف الآخر، واحترام حق الإنسان في الحياة، وفي خضم الشأن السياسي يستعرض قضية التعددية الحزبية في سياق تمثيل النظام الحاكم، وضرورة إشراك كافة أطياف المجتمع وتوجهاته في البناء والتقدم، ثم يتطرق إلى أهمية نظام الشورى بين فقهاء الأمة، إلى غيرها من رؤى وأفكار كانت تستقرئ طبيعة الواقع ومتطلبات مراحله الحرجة التي لا زالت تجري على الأمة.

أولاً: اللاعنف أرضية السلم الاجتماعي:

وانبثقت هذه النظريات في سياق ما يعيشه الواقع المسلم من صراعات ونزاعات داخلية وخارجية، أغرقته في نفق الأزمات التي احتلت مساحة واسعة من جهده وفكره، وأضاعت عليه فرص متاحة في مجالات متعددة، ولذلك جاءت نظريته لتحمل رؤية حضارية واعية، يقرر وفقها نبذ العدوانية بشتى صورها وأشكالها، ليعيش الواقع ضمن منظومة السلم الاجتماعي.

ولا غرو أن مسيرة المجتمع إنما تتقدم وتحقق تطلعاتها وأهدافها، بنشر مفاهيم السلم ومبادئه، ومن هذا المنطلق كان عنوان الرسالة وأساسها المتين، هو نشر الرحمة والطمأنينة والسلام بين الناس، واطلاق المبادئ الإنسانية ليعم الخير والصلاح في أرجاء المعمورة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء/١٠٧، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سبأ/٢٨، ولقد غرست تعاليم الإسلام أبان صدور أحكامها ونظمها، المحبة والوئام بين الناس، واحترمت حق الإنسان وكرامته في الحياة، ونبذت العدوانية بكافة أطيافها وتلوناتها، وشجبت حالة الاستهانة بجهد الآخرين واستنقاص منزلتهم ومكانتهم دون حق، وأكدت على ضبط معايير العدل في التعامل وقياس عمل الإنسان وإنتاجه، ولعل من الأمور التي تكاد أن تكون في عداد المغيبات في واقعنا وحاضرنا وقلما نتعاطاها برحابة صدر وأفق واسع هي حالة الاعتدال والوسطية في النمط السلوكي الاجتماعي، ولقد أكدت الآيات القرآنية على وضع الأسس الضابطة للمعايير التي يقاس عليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة/٨.

ثم أن الدواعي المسببة لانعدام السلم الاجتماعي واتباع طرق العنف قد تكون كثيرة

ومتشعبة، ولا تنحصر في مجال معين أو قضايا مخصوصة، وقد تتفاقم عبر امتدادها الزمني والمكاني لتنتشر عللها إلى سائر قطاعات المجتمع وتوجهاته، فتغرق المجتمع حالة من الفوضى والخروج عن المسار الطبيعي، لذا ينبه السيد المرجع قدس سره إلى ضرورة مسالمة الجميع: من الضروري لممارسي التغيير أن يجعلوا في مقدمة أهدافهم مسالمة الجميع، فكما أن للإنسان الحق في أن يعيش بكرامة وحرية، ورفاه وسلام، عليه أن يترك الآخرين يعيشون كذلك، كما قال الإمام علي عليه السلام: « أحبب لغيرك ما تحبه لنفسك »[١٨].

وفي طور بناء حركة الدعوة وإرساء أسسها ينبغي انتهاج سبل السلم الاجتماعي والتجرد من وسائل العنف بشتى صورها، ومعنى اللاعنف: أن يعالج الإنسان الأشياء سواء كان بناءاً أو هدماً بكل لين ورفق، حتى لا يتأذى أحد من العلاج، فهو بمثابة المخدر الذي يسلب الحس، حتى يعمل المبضع في نكيء القرحة، وشرح اللحم والجلد[١٩].

ويشير الإمام الشيرازي قدس سره إلى أن الحركات الإصلاحية في التاريخ حين انتهجت أسلوب اللاعنف فإنها حققت مكاسب ونجاحات لشعوبها وأممها، بأقل الخسائر في الأرواح والثروات، أما الطريق الآخر الذي قد تقسر الشعوب على استخدامه سيكبدها من الخسائر، حتى مع مشروعيته وأحقيته، وفي سياق المقارنة بين الاتجاهين، يقول: إن الهند تذرعت باللاعنف، فأسفرت حركتها عن تحرير بيضاء، لم يتمكن المستعمر من إراقة الدماء فيها إلا بقدر يسير نسبتها إلى المجموع وهم ينوفون على أربع مائة مليون نسمة الواحد إلى المائتين أو أبعد، بينما أبطال المسلمين في الجزائر رأوا آية السيف، تمسكاً بالجهاد — حسب اجتهادهم طبعاً - فأسفرت الحركة عن قتل مليونين، وسجن مليون بينما نفوس الجزائر لا تزيد على أحد عشر مليوناً، فنسبة الاراقة إلى النفوس: الخمس.

ويضيف الإمام الشيرازي قدس سره قائلاً: وإني لا أريد بذلك أن أخطئ موقف الجزائر الباسل، فلعلي لو كنت هناك ورأيت الظروف والملابسات، لكنت ممن اسهموا في نفس الحركة.. وإنما أريد أن أبين أن اللاعنف أسلم بكثير من الحرب[٢٠].

ثانياً: التعددية صحوة المنطلقات:

من المظاهر المرضية المتفشية في أقطار العالم الإسلامي هي سيطرة أحزاب وتنظيمات محدودة على مقدرات الأمة، والتصرف فيها بما يوافق مصالحها وأهدافها، وإقصاء سائر التوجهات عن المشاركة والإسهام في عملية البناء والتطوير، وقد امتدت هذه الصيغ أحقاباً طويلة جرّت على الأقطار الإسلامية اختناقات وأزمات ألجأتها إلى التبعية والانقياد، وأورثتها عللاً متلاحقة أفسدت بها جميع الحقول المهنية والمعرفية، ولقد جسد الكتاب العزيز مدى الضرر الذي يلحقه تنفذ انفرادية الحزب الواحد على المقدرات الإنسانية، وما يجلب عليها من إخفاقات وخسائر فادحة، وكان النموذج البارز الذي كرس هذا الواقع، هو فرعون الذي كان يزعم قدرته على قراءة الواقع واستشراف قضاياها بوضوح تام، ووضع التصورات والرؤى انطلاقاً من تلك المعتقدات، قال

تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ غافر/٢٩.

وقد تكون الدوافع نحو تشكيل القنوات الحزبية والتنظيمية منبعثة من الإحساس بقضايا المجتمع وحاجاته الضرورية، وقد تكون مندفعة من زوايا أخرى، وفي هذا السياق يشير المرجع الشيرازي قدس سره في بحثه عن الأحزاب عن الدوافع لتكون الأحزاب، فيقول: وأصل تكون الحزب، إنما هو من وجود الفوارق النفسية بين الناس، فكل جماعة وأمة وشعب وقبيلة، لا بد وأن يوجد بينهم أناس لهم صفات نفسية متمايزة وكفاءات خاصة، وتلك الصفات تدعو أولئك الأفراد إلى (الأنانية) تارة وإلى (المشاركة الوجدانية) أخرى، وبذلك يجمع ذلك الإنسان حول نفسه جماعة يصبهم في اتجاهه، أما لإشباع رغبته في السيادة والأنانية، وأما لجعلهم في خدمة الناس بالقيام بحوائجهم لحسه بالمشاركة مع الناس في أحزانهم وآلامهم وآمالهم وهذا ما يصطلح عليه بالمشاركة الوجدانية[٢١].

ولكي تعيش الأمة العافية وتنطلق مسيرتها في ركب التقدم والنهضة، وتستنهض إمكانياتها لمعالجة قضاياها، فإن السبيل الأمثل هو الاستفادة من الكفاءات والقدرات، وإطلاقها المصالحة مع الأحزاب والتنظيمات التي تحمل من هموم الأمة وقضاياها ما يحمله كل فرد، وتربطها قواسم مشتركة في محاور كثيرة، لا تنحصر في مجال معين أو اتجاهات محدودة، وإنما تنسدل على جل الأمور.

وتأتي الفائدة من تعدد القنوات والأحزاب في إطار إنماء بناء حركة الأمة ورفدها بالتطلعات والرؤى أنها تقوم على:

١ - توفير الحريات للناس حيث أن كل حزب يخاف الحزب الآخر فيعمل جهده في إصلاح شأنه، وخدمة الناس، لئلا يتقدم الحزب الآخر عليه وبذلك يعيش الناس أحراراً لا يتمكن أن يكبتهم أحدهم إلا في إطار القانون.

٢ - كما يصل الناس في مثل هذه الأنظمة إلى أهدافهم وحاجاتهم، وذلك لأن الحزب يعمل جاهداً لإعطاء حاجة الناس، لئلا ينفرط منه أحد إلى الحزب الآخر، فهو نوع من تنافس، يسبب ظهور الكفاءات ودرء المظالم والتقديم إلى الأمام، ولذا قال السياسيون: إن الأحزاب السياسية المتعددة تسبب للجماهير تنسم الحريات والتعبير عن آرائها وإبداء رغباتها والوصول إلى أهدافها[٢٢].

ثالثاً: الشورى قنطرة التطور والتكامل:

لقد حفل التاريخ بأمم وحضارات، وأجيال متنوعة، طوال المسيرة البشرية الممتدة عبر القرون، غير أنه لم يشهد عبر عصوره، وأحقابه الزمكانية، أفضل ولا أنبل مما عاصره أبان العهود الإسلامية الأولى، حين كانت حضارة الإسلام ترفل وتنعم بتطبيق شريعة الله، وتعم أرجاء أروقتها ومحافلها نظم الشورى، وتبادل الآراء، الذي حقق لها سبل الرفاهية والعيش بسلام واطمئنان.

ولم تأت الأهمية القصوى لحركة الشورى بغية إقحام المجتمع في أتون الصراعات الفكرية والمعرفية وغيرها، لتنتهي عبر وسائلها وآلياتها لمعرفة آراءه المتنوعة، وتطلعاته الفكرية المختلفة، إنما كانت انطلاقتها للوصول بالأمة إلى المستوى الراقي من الرشد والنضج الفكري، لتكون له الملكة في التعبير عن الآراء والأفكار والمواقف المتنوعة، التي ترقى بقيمه ومفاهيمه إلى مرحلة متقدمة، فالشورى في حقيقة أمرها، إضفاء الشرعية لتهيئة المساحات الحرة الداعمة لإيجاد الفاعلية في المجتمعات.

إن المشورة عبارة عن الاستطلاع على الآراء ليظهر الرأي الأصوب، وهو في باب الحكم واجب، حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾[٢٣].

ولقد أضحت مبادئ الشورى في الإسلام أشبه ما يكون بمؤسسة دراسات تهتدي إلى خير الأمور وأرشدها، إذ أن مبادلة الرأي بعرضه على العقول يستدعي تحريك الرأي وتنشيطه فكرياً، فالشورى في حقيقتها تعميقاً لبناء مأسسة دراساتيه في مظلة المجتمع تقوم على رعاية تنمية الحالة الفكرية والمهنية في حياة الأمة.

ويسهب المرجع الشيرازي قدس سره عند تعرضه لنظرية الشورى من خلال قراءته لملامحها وأهميتها على الواقع المعاش، وما ينبغي أن تكون عليه، فيقول في جملة ما جاء في دراسته (الشورى في الإسلام): ثم إن الاستشارية سواء في الحكومات الزمنية – مما تسمى بالديمقراطية – أو في الحكومات الإسلامية، هي صمام الأمان، وذلك لأن الناس كما يحتاجون إلى ملء بطونهم يحتاجون إلى ملء أذهانهم، فكما أن الجائع يخرج على من أجاعه بالإضراب والمظاهرة، ولذا قال: « عجبت للفقراء كيف لا يخرجون بالسيف على الأغنياء » كذلك من لا يستشار يخرج على من أجاع فكره، مهما فرض نزاهة الحاكم، وكونه مطبقاً لقوانين البلاد، سواء كانت تلك القوانين إسلامية كما في بلد الإسلام أو غير إسلامية، كما في البلاد الديمقراطية.

ولا يكفي للحاكم الإسلامي أن يطبق مبادئ الإسلام وقوانينه، بدون قانون الشورى، لأن الناس يرون أنه لم يطبق قانون الإسلام الذي هو الشورى فينتفضون من حوله ثم يثورون عليه حتى إسقاطه، هذا إذا فرض أنه حسن الاستنباط وحسن التطبيق، وذلك قليل أو عديم، بل الظاهر أنه من غير الممكن الاستنباط وحسن التطبيق من الاستشارية في أصل مجيء الحاكم وفي مدة امتداده بعد المجيء، إذ الاستنباط المحتاج إلى العمل المداوم لا يكون حسناً، فكيف بالتطبيق الخالي عن الاستشارة الدائمة، وفي الحديث « إن العلم ليدعو بالعمل فإن أجابه وألا ارتحل »[٢٤].

ما تقدم أعلاه كان لمحة خاطفة تناولت بعض الجوانب الشخصية والفكرية للمرجع الشيرازي قدس سره وهي لم تأت إلا بنذر يسير من روافد شخصيته العصامية، ولم تقرأ إلا بعض الجوانب العامة من أفكاره ومرئياته، وستبقى شخصيته محوراً فعالاً في نوادي الفكر والثقافة والأدب، إن نصفوه حقه، وستغدو نظرياته وأفكاره واستشرافه لملامح المستقبل محط أنظار المتنورين والمهتمين لمصالح الأمة ونهضتها □

الهوامش:

(١) الديلمي، أبي محمد الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، ص١٧٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

(٢) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، ج٦، ص٤٥٢، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية.

(٣) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الفقه، كتاب الحكم في الإسلام، ج٩٩، ص٧٤، دار العلوم، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

(٤) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الفقه، كتاب الحكم في الإسلام، ج٩٩، ص٨٧، دار العلوم، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

(٥) مجلة (العربي) عدد ٤٤٩، ص١٧،١٨.

(٦) شبكة النبأ المعلوماتية، الخميس ٢/١٠/٢٠٠٣م. ٥/٨/١٤٢٤هـ.

(٧) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص١٩، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٨) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٢٠، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(٩) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٣٧، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٠) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، ص٢٦٦، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(١١) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، ج٤، ص٢٣٤، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية.

(١٢) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص١٩، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٣) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، ج١، ص١٥٣، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية.

(١٤) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص١٤، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٥) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٥٨،٥٩، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٦) الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، ج١٠، ص٩٦، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثانية.

(١٧) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٥٨، مؤسسة البلاغ، لبنان، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٨) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، ممارسة التغيير لانقاد المسلمين، ص١٧٩، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(١٩) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، إلى حكم الإسلام، ص٥٠، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(٢٠) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، إلى حكم الإسلام، ص٥٥،٥٦، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

(٢١) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الفقه، كتاب السياسة، ج١٠٦، ص٩٩، دار العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٢٢) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الفقه، كتاب السياسة، ج١٠٦، ص١١٣، دار العلوم، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٢٣) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الشورى في الإسلام، ص١٣، دار الفردوس، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

(٢٤) الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني، الشورى في الإسلام، ص٢٥،٢٦، دار الفردوس، بيروت، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

الشيرازيُّ بوصفه حداثياً

■■ عباس الجمري*

توطئة ونبذة

انسكاب سلبيتين مشاعريتين في أي عملٍ بحثي نقداً أو توصيفاً يفضي إلى انعدام الدقة على الأغلب، ذينك السلبيتان تتلخصانِ في المدح والقدح للمتناول من مادة بحثية، فكلاهما يثنيان الباحث عن تحري الحياد بشكل دقيق لتأثيرهما عليه ولخلقهما مسبقاتٍ ينظر المرء من خلالها ويأسر تحت سلطتها...

الكثير من التناولات أسرت تحت المديح وكثيرة هي النقاشات أغلت تحت أسر القدح، حينما تتناول موضوع كالسيد آية الله محمد الحسيني الشيرازي، فهو رجل مدرسة وله مصنفات ومشاريع وخصوصية فكرية، ورجل كهذا لا بد من احتشاد رزمات الحذر المعرفية في صرة واحدة عند تناوله موضوعياً.

ولد الشيرازي عام ١٣٤٧هـ في النجف الأشرف، وهاجر إلى كربلاء المقدسة بصحبة أبيه وهو في التاسعة من العمر، وقد تلقى العلوم الدينية على يد كبار العلماء والمراجع في الحوزة العلمية بكربلاء المقدسة حتى بلغ درجة الاجتهاد ولما يبلغ العشرين.

وقد واصل تدريسه للخارج لأكثر من أربعين عاما في كربلاء المقدسة والكويت وقم ومشهد المقدستين، وكان يحضر درسه ما يقارب الخمسمائة من العلماء والفضلاء، حتى عام ١٤١٦هـ حيث عطل التدريس لأسباب معينة، باتت معروفة

كما بدأ بتأليف (موسوعة الفقه) وهو في الخامسة والعشرين... وقد شهد بعض كبار المجتهدين وأهل الخبرة بمرجعيته إرجاعاً أو ترجيحاً أو بنحو الأولوية أو بأعلميته وسعة إطلاعه وقوة باعه منهم:

---

* كاتب - البحرين.

آية الله العظمى السيد الفاطمي الأبهري، آية الله العظمى السيد عبد الله الشبستري، آية الله الشيخ مرتضى الأردكاني، آية الله الحاج ميرزا علي الغروي العلياري، آية الله السيد رضي الدين الشيرازي، آية الله الشيخ حسن سعيد...وغيرهم.

تميزت مدرسته الفكرية بعدة مميزات يمكننا أن نختصر هذه المميزات في التالي:

أولاً، الأصالة التي لا تنحبس في صومعة الماضي، وإنما التي تنطلق في رحاب قيم الإسلام، لكي تستغرق هذه القيم كل مجالات الحياة، ومنها استطاع الراحل، من خلال جهده وأبحاثه العلمية، أن يغطي مساحة هائلة من مجالات الحياة ليبين رأي الإسلام فيها، فكتب فقه القانون والإدارة والسياسة والاقتصاد والبيئة، وهي من المجالات المستجدة.

ثانياً، الواقعية، أي عدم الخضوع لمتطلبات الذات في العطاء الفكري، وإنما ملاحظة، متطلبات الساحة الإسلامية في عموم مناطق الوجود الإسلامي. فحينما كان المد الشيوعي مسيطرا في العراق، وكان الاتهام إلى الإسلام كونه لا يتعاطى الجانب السياسي، كتب الراحل حوار عن تطبيق الإسلام.

ثالثاً، الإيجابية والبناء، ففكر الراحل، لا يقوم على نفي الفكر المضاد، بل يؤسس للبديل الفكري أيضا، كما أنه لا يحارب الآخرين من خلال شعارات مطلقة جوفاء، وإنما يسعى لتأسيس حقائق اجتماعية وسياسية تعكس قيم الإسلام »[١].

لماذا الحداثة؟

قد يتساءل المرء، لمَ تسمية الحداثة لا التجديد؟

واقعا إن الحداثة بما تعني لغة هي بمثابة التجديد أو هي ذاك، أما اصطلاحاً فقد عرفت الحداثة بأنها المستمدة من الغرب[٢]، غير أن هذا المفهوم له من التكيف الكثير مما لا يحرمه عفته الذي فقدت من قبل الكثيرين عند تناوله، فقد ذكر الدكتور طه عبد الرحمن: أن موضوع الحداثة موضوع شائك.. فالمفهوم أولاً: هو مفهوم - كما يقولون - ليس مفهومًا صلبًا، بمعنى أن معناه ليس محددًا تحديدًا نهائيًّا ولا متفقًا عليه اتفاقًا كليًّا، ولا هو مفهوم - كما يقولون أيضًا - رطب بمعنى أنه يجوز أن تعطيه أي معنى تريد، وإنما هو مفهوم مرن أي: مفهوم مجمل[٣].

لذا فإنه من غير الممكن أن يحصر في إطار خروجه، والشيرازي حينما جدد في أكثر من منطقة من مناطق الفكر الإسلامي، فإنه يعد بهذا المعنى حداثياً في الفكر الإسلامي من منطلقات تأصيلية، فيوم أن « كان الفقه يدور حول أبواب محدودة، حيث قسمه الفقهاء إلى العبادات والمعاملات والعبادات قسمت إلى الطهارة ثم الصلاة والصوم...الخ، والمعاملات التي قسمت إلى العقود والإيقاعات »[٤] قد استطاع الشيرازي أن يستحدث أبوابا أخرى وكتب فيها الكثير من المنظور الفقهي والرؤية الإسلامية، إذ « قد أضاف الشيرازي إلى هذه السلسلة

موضوعات جديدة كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والطب والتنمية والقانون والأسرة، أضافها إلى أبواب الفقه السابقة، وصنفها ضمن موسوعته الفقهية، وهذه الأبواب الجديدة بعضها مستحدث لأول مرة كفقه البيئة والمرور وبعضها متناثر في أجزاء الفقه المختلفة »[٥].

بلاءات الشيرازي والتفكير الأعوج

ورغم كل ما يتميز به الشيرازي، ألا أنه قد أصيب ببلاءات كبيرة ربما أنتجها (التفكير الأعوج) ذاك الذي « يخترقنا ويخترق خطاباتنا ومناطقه الواعية وغير الواعية، فيوقعنا في شراكه. إننا نقع في التفكير الأعوج:

١ - حين نحول الكلمات إلى حاويات تتسع لكل شيء.
٢ - حين نستبدل منطق الإقناع بمنطق الاستهواء.
٣ - حين تستبد بنا المجازات بوصفها حقائق أحادية.
٤ - حين نستجيب لتحيزاتنا الفكرية المسبقة.
٥ - حين نقع أسرى لعادتنا الفكرية المألوفة.
٦ - حين تستبد بنا الإكراهات الاجتماعية والسياسية وتوجه خطابنا ليتطابق معها.
٧ - حين لا نضع في الاعتبار السياق العام الذي يتحدَّد بحسبه معنى القول وغرضه ونوعه.

حين تسيطر علينا انفعالاتنا فمتى أدركنا هذا الفرق القائم بين استعمال الكلمات استعمالا واقعياً واستعمالها استعمالا انفعالياً لاحظنا أن الكلمات، التي تنطوي على إيحاء شديد نوعاً ما بوجود مواقف انفعالية، شائعة جدا، وهي تستعمل في مناقشة مشكلات متنازع عليها كمشكلات السياسة والأخلاق والدين. وهذا الوضع هو من الأسباب التي تجعل الناس، مهما طال جدالهم ومباحثهم حول هذه المشكلات، لا يقتربون كثيرا من الوصول إلى حلول معقولة لها »[٦].

حداثة الشيرازي من قراءتين

ولأنه منظومة كبيرة، فإن الحديث المقتضب لا يؤدي إلى نتيجة وافية، آثرت أن أقرأ الشيرازي هنا من خلال قراءتين يمثلان عنصرا تجديدٍ في أطروحاته المتعددة، تلكما القراءتان ينبثقان من كتابيه (فقه العولمة) و(فلسفة التاريخ) واللذان يبرزان الوجه التجديديٍ البارز للشيرازي...

أولاً: فقه العولمة... عولمة إسلامية منفتحة على كل تيارات الحداثة:

بعد الشروع-أي كتاب فقه العولمة-قد بدى أن ثمة طرح يستحث الالتفاته، فهو يشخص وضعية العولمة الحالية بإعطائها قاعدة (السريع يأكل البطيء) على غرار قاعدة (القوي يأكل الضعيف) واصفا بذلك عولمية الرأسمالية والأمركة المعاشة في لبرلة العالم، ويؤسس

-خلافاً للكثيرين- أن للعولمة انجذاباً فطرياً في الإنسان نحوها، مؤصلا من الآية الكريمة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾[٧]، فالآية -حسب الشيرازي- تتجاوز الحدود والقيود لتنطلق في تكسير كل الحواجز المصطنعة بغية التعارف والتثاقف والتجارب، طارحا أن الإسلام هو أول من نادى بالعولمة (الصحيحة)، ذلك بتعميم مفاهيمه وأسسه كـ(التوحيد وغيرها من العقائد) و(النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وغيرها من الأنظمة) بهدفية إرساء قواعد متينة لسعادة والبشرية التي نادى بها النبي محمد ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنا، إذ يؤكد الكاتب أنه « لا يمكن أن يكون الخطاب من الله الحكيم موجها إلى كل أهل الأرض، إلا إذا كان الإسلام الذي أنزله الله تعالى في كتابه، وبعث به رسوله الحبيب محمد ﷺ جامعا لكل أسس العولمة الصحيحة وشاملا لجميع القوانين الصالحة لإدارة العالم كله على نهج عادل وقويم »، وبذلك « سنحصل على ثقافة إسلامية واقعية وأسلوب صحيح لتكوين مجتمع إسلامي قويم على أساس (الفكر الإسلامي المنفتح) و (المتجاوب مع كل تيارات الحداثة » والتطورات الايجابية.

ولم يكتف الشيرازي بطرح العولمة الإسلامية كأطروحة يتيمة التطبيق، إذ يذكر إمكانية تحقيقها مرجعاً ذلك لعدة أسباب، منها:

« أن المسلمين يملكون اقتصادا قويا وعددا كبيرا وموقعا جغرافيا مهما وممتازا فضلا عن أن دينهم (أي الإسلام) مرن وسهل ومنفتح، وبتلك العوامل يسهل تذليل العقبات الأخرى المفروضة من العولمة المأمركة المعاشة حاليا، ويبين مسائل العولمة المجتمعية مبينا فيه عوامل رقيها -أي العولمة- بالمجتمع الصالح وقضاء الحوائج وآداب المعاشرة وحقوق الآخرين وحقوق المرأة و الأسرة، كما يوضح مسائل العولمة الفكرية من طلب العلم وحرية الثقافة وآداب التربية والتعليم وما إلى ذلك، ويشير للعولمة السياسية التي تستحث النهضة، بادئا بالشورى والتعددية السياسية والحريات، مركزا على اللاءات المهمة في السياسة الإسلامية التي يجب عولمتها:

لا للعنف، لا للإرهاب، لا للتجسس، لا للتعذيب، كما يلمح للعولمة الاقتصادية بما لا يتنافى مع الشريعة وذلك بتحريم أهم الأسس التي تقوم وتبتني عليها عولمة اليوم، من احتكار وربا، داعيا لتأصيل عولمة اقتصادية عبر عنها بـ(النظيفة) ».

إذن نحن أمام (شبح حضاري) يستنزف كل شيء بوسائله الماكرة المراوغه في اختراقها للذات الدولية والذات الجماعية والذات الفردية، والكتاب رغم أنه فقهي ومعدود من الموسوعة الفقهية للشيرازي ألا أنه يمكن عده من الكتب الثقافية بجدارة وبامتياز يستحث التساؤل المستفز للواقع.

وما يدعم نقودات الشيرازي أن هذه الأمركة المسماة بالعولمة قال فيها أحد الخبراء الأمريكيين: « أننا أمام معركة سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن-أي الأمريكيين-قوة ثورية خطره، وأولئك الذين يخشوننا على حق، إن صندوق النقد الدولي

قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة » وذلك ما أكده بوش الأب في أجواء احتفالية بالنصر في حرب الخليج الثانية: « إن القرن القادم سيشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي ».

لذا يعزو الشيرازي أن ثمة خمس ثورات تلخص الخط العولمي المعاش:

الأولى: الثورة الفكرية الثقافية المروجة لفكرة المادية البحتة الخالية من الأخلاق والمعنويات، والداعية لثقافة الاستيراد والاستهلاك والمشجعة على فكرة: أن ينتج الآخرون، ونحن نستريح ونستفيد. (إشارة لخمول الدول المهيمن عليها).

الثانية: - الثورة الثانية كما يشير لها السيد الشيرازي هي - الثورة الديمقراطية السياسية الداعية للانفتاح على ثقافة العولمة بما فيها من سلبيات.

الثالثة: الثورة الثالثة تكمن في التقنية السريعة في تغيير أسلوب الإنتاج ونوعية المنتجات، من دون ملاحظة الأخلاقيات فيها.

الرابعة: كما يوضحها المؤلف هي ثورة التكتلات الاقتصادية للاستفادة من التطورات التقنية الهائلة وبصورة خاصة العملاقة منها، للتحصيل على الربح الأكثر.

أما الخامسة: والأخيرة فتتلخص في ثروة اقتصاد السوق، وحرية التبادل التجاري، ورفع الحواجز الحدودية، ورفع الرسوم الجمركية وما أشبه ذلك.

وهذه الأخيرة هي الأهم بين أخواتها إذ أن الشركات متعددة الجنسية تعتبر اليوم من أهم الأدوات التي تستخدمها الرأسمالية الغربية وخاصة الأمريكية لدفع الاقتصاد العالمي باتجاه العولمة.

وبذلك يقدم الكاتب نقوداته للعولمة الأمريكية، طارحا لبديل متمثل في العولمة الإسلامية، وقد يقرأ المحبط من الوضع الراهن إن تلك الدعوة كدعوة أفلاطون للمدينة الفاضلة، غير أن الشيرازي يؤكد حتمية وجودها إذا ما قام المسلمون بالأخذ بالأسباب مطلقاً عبارته الشهيرة: وليس ذلك على الله بعزيز[٨].

ثانياً: فلسفة التاريخ... نظرة ثقافية من منظور فقهي:

يبدو أن كتاب (فلسفة التاريخ) له دلالاته الموضوعية والفلسفية في آن، إذا ما عرفنا أن صاحبه له من المؤلفات الكثير والتي تتسم بتبايناتها الواسعة في المستوى والتناول، فالمائزة التي أثراها الشيرازي في كتابه المذكور ليست مائزة مضافة على الكثير من كتبه بما فيها تلك المتضمنة بـ(الموسوعة الفقهية)، فالكاتب هنا قفز في أسلوبه وتناوله لمنطقة تبتعد عن الزي الفقاهاتي نوعا ما، إذ يفلسف التاريخ ويؤرخ دلالات فلسفته من منظور تأصيلي/ ثقافي يستحث فيه شهادات موضوعية حياله لوجود مساحة ليست بالهينة في تناوله عن المتباينات والفوارق/الفواصل في الجنبات العديدة لـ(التاريخ) كعلم له عناصره المتشعبة والمتصلة بكل العلوم وظروفاتها المتعددة.

يتناول السيد في بداية الكتاب علاقة الفقه(التشريع) بـ(التاريخ) الواقع وكيف للأول من تأثر بالأخير فالعلاقة تلك « تكشف لنا الظروف الطارئة والعوامل المؤثرة في مراحل التشريع في الحكم

الواحد المر الذي يجعلنا -كما يذهب الشيرازي- قادرين على الأخذ بها في المستقبل إذا كانت الظروف الحاضرة لا تتناسب مع الأخذ بها، مبيناً أن ثمة فرق بين (علم التاريخ) و(فلسفته) محيلا إلى تعاريف لمفكرين بزغوا في سماء التنظير الأنثربولوجي بشكل كبير كـ (لورد بولينغبروك، أنطونيو لابديولا، وأد كزينوبول، ودركهايم والذي يعرف فلسفة التاريخ بأنها الباحثة في تحديد الاتجاه العام لتطور الأنانية، وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية في خطوط دائرية أو مستقيمة ».

علم التاريخ كما يذهب له الشيرازي عبارة عن المفردات أو المجموعات السطحية الظاهرة من اقتصادية أوسياسية أو اجتماعية أو تربوية... أما الفلسفة فهي عبارة عن الروح العامة الدارجة في كل ذلك في أي بعد من أبعاد الحياة.

ويتطرق لعلاقة التاريخ بالأخلاق ونوعية الربط الوثيق بينهما فلكل شيء موازين محددة وأطر تحدد نسق التعاطي.

يتناول الشيرازي أيضا منحى الاستقراء وأهميته البالغة للبحث التاريخي والذي يمثل أداة قياسية للوقائع بشكل صحيح، و « الهدف من ذلك تزويد الإنسان بأحكام تمكنه من أن يفهم معنى الأحداث الحاضرة أو المستقبلية في ضوء خبرته بالماضي، وإنه كيف يمكن استمداد المستقبل من الماضي والحاضر ».

وينتقد المؤلف (فولتير) المفكر المعروف حينما تطرق لأدوار التاريخ، فالتاريخ له مطافات تصب جميع قنواتها في المسار الصحيح كما يؤكد الكاتب، وفولتير حينما صار خبيرا في ألوف الحروب والمعارك يقول أنه لم يكتشف شيء البته وقد لاقى عناء الإطلاع لشيء لا يستحق الإطلاع، إذ يعزو الشيرازي سبب ذلك أن فولتير لم يكتشف في إطلاعاته شيء ولم يزدد حكمة حسب تصريح فولتير نفسه لأنه لم ينظر للأمور بمنظور إسلامي ذي معايير للأحداث والوقائع.

يلحظ أن ثمة نقطة مهمة جدا في طرح الكتاب لمسألة (التحليل الدقيق للتاريخ)، إذ يقول كاتبه يلزم على من يريد الوصول إلى فلسفة التاريخ أن يتأنى في قبول التفسيرات العصرية للنصوص القديمة، وهكذا التفسيرات في العصور السابقة... أو التفسيرات في العصور اللاحقة، لأن لكل زمان اصطلاحاته ومفاهيمه الخاصة، وهذا يمثل رداً من داخل الجو الحوزوي على بعض المتشددين بدعوتهم عدم دراسة المصطلحات الحديثة والتي تمثل نظريات ومدارسة فكرية مختلفة، والتي يعتبرها بعض أولئك بأنها نوع من الترف الفكري غير المفيد في سيرورة بناء الثقافة الإسلامية، بينما الشيرازي يعتبر ذلك من الأسس المنهجية المهمة في قراءة وتحليل التاريخ بشكل دقيق.

كما ويتناول الكثير من الموضوعات الأخرى حول التاريخ قراءة وإنتاجا، وحول الباحث التاريخي، وكيف أن للبيئة من تأثيراً كبيراً وواضحاً على الشخصيات وبالتالي الوقائع، وعلاقة الجبر والاختيار بالتاريخ وغير ذلك من موضوعات كثيرة تنطلق من صلب دراسة المنهج والسلوك التاريخيين وفلسفتهما[٩].

ملاحظتان نقديتان

ما يلحظ في أطروحات الشيرازي المتعددة أنها بسيطة سهلة ومتشعبة في جوانب ٍ كثيرة، ويبدو أن ذلك قد جعل الشيرازي يقع في سلبيتين في مسيرته الكتابية:

الأولى: أنه تناول موضوعات ٍ قد تُنولت من قبل، وهذا ما يجعل تناولها تبديداً للجهد والوقت مع عدم إضافة شيء.

الثانية: أن ثمة أفكاراً بل ونظرات بدرجة (نظريات) في بطون ِ الكتب مغيبة، وبطبيعة الحال ستضيع على القارئ العادي بلا شك، مما قد يجعلها مسجونَة للغفلة إذا ما انطلقت النباهة لدى الباحثين في عتقها من سياقها المغيب □

الهوامش:

(١) مقتطع من حوار أجراه حسن المصطفى مع محمد محفوظ في موقع إيلاف..

(٢) هي ظاهرة غربية انطلقت من أوربا مع الثورة الفرنسية (١٧٨٩) و عنت بالتغيير في النظام السياسي من النظام الملكي إلى الديمقراطي الذي يقوم على سلطة الشعب و المجالس الممثلة للشعب. و اعتماد الليبرالية نظاما اقتصاديا و المساواة بين الجنسين على الصعيد الاجتماعي وإلزامية التعليم للأطفال و الانتقال من نموذج الجماعات و الطوائف الدينية المُتحاربة إلى المواطن لا ابن الطائفة أو الدين. و تذويب الطوائف و الأديان في بوتقة مدنية علمانية واحدة لا تمييز فيها على أساس عرقي أو ديني أو عملي و بهذا تكون علاقة المواطن بالدولة لا بسلطة أخرى وأدت هذه الأفكار إلى تطور على الصعيد الصناعي و التكنولوجي في البلاد التي تبنتها.

(٣) الأربعاء ١٤٢١/٩/١٧ه الموافق ٢٠٠٠/١٢/١٣م، برنامج الشريعة والحياة « الحداثة في فهم الدين » ، قناة الجزيرة.

(٤) الدكتور ساعد الجابري، النبأ، عدد ٦٩، الإمام الشيرازي وآفاق الانفتاح المعاصر، ص ٥٢

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) ورقة للناقد علي الديري بعنوان "الخطاب السياسي والتفكير الأعوج" مقدمة في ندوة بجمعية العمل الوطني/البحرين، بتاريخ: ٢٩أكتوبر٢٠٠٣.

(٧) سورة الحجرات، آية/١٣

(٧) قراءة للكاتب في كتاب فقه العولمة، آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢، مؤسسة الفكر الإسلامي

(٨) قراءة مقتضبة للكاتب في كتاب فلسفة التاريخ، آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، مؤسسة الوعي الإسلامي.

المدرسة الشيرازية بين الذهاب والإياب

■■ الشيخ فيصل العوامي*

إرادات ثلاث أضفت على لحظتها طابعاً مميزاً، شغلت الساحة العلمية والاجتماعية بالكثير من الهموم، استطاعت أن تنقل الهم العام من مرحلة ماضية إلى مرحلة أكثر تقدّماً، وتُحدث تحولاً في الذهنية الاجتماعية والثقافية: الآيات العظام (الخوئي، الخميني، والشيرازي) قدس الله أسرارهم، مع ما بينهم من فوارق في المنهجية العلمية والاجتماعية.

لذلك فهي تستحق القراءة، للوقوف على عناصر القوة عندها، وتشخيص موارد تميزها، وللنظر في إمكانية التفاعل مع مشروعها بالرغم من الفاصل الزمكاني الذي يفصل بين القارئ والمقروء، فبين من يعيش في عالم الغيب (المقروء = الآيات العظام)، ومن يعيش في العالم المادي (القارئ).

ولعل الإشارة الأخيرة هي النقطة المهمة التي تتمحور حولها هذه القراءة السريعة، بلحاظ أحد هذه الإرادات التي يمر علينا في هذه الأيام نسيم ذكراه المفعم بالكثير من الخصال الحميدة، حيث الحيوية والنشاط والإبداع والأخلاق الواسعة والإرادة الفولاذية، ألا هو آية الله العظمى الإمام السيد محمد مهدي الحسيني الشيرازي قدس سره.

عند هذه الشخصية الفذة نقف متسائلين:

* هل هناك ثمة داع للتوقف المستمر عند هذه الشخصية، والنظر في تجربتها العملية والاجتماعية..؟.

* هل هناك من المميزات المهمة التي تحلت بها هذه الشخصية، حتى تحظى بهذا المستوى من الاهتمام..؟.

---

* عالم دين وباحث - السعودية.

* ألا يعد الإصرار على المناداة بأقوال وتصورات هذه الشخصية بالرغم من رحيلها نوعاً من التعصب والتقليد الأعمى..؟.

* أليس التمسك بالإمدادات المنسجمة مع أطروحات هذه الشخصية لا يقود إلا إلى الاعتزال المتعمد عن الساحة العريضة المزدحمة بالكثير من الأطروحات المغايرة..؟.

* بالخلاصة: لماذا الإصرار على الطرح الشيرازي..؟.

في البين عدة عناصر تحفزنا على التمسك بهذا النمط من الطرح، ولولاها لأضحت التجربة الشيرازية تجربة فردية محدودة تضمحل مع الزمن خصوصاً مع تصاعد التجارب الأكثر حداثة، من بين هذه العناصر:

١. إن التجربة الشيرازية تمخضت عن مدرسة اجتماعية ثقافية.. ففي حين توصلت تجربة الإمام الخوئي قدس سره إلى تشكيل مدرسة علمية لها مميزاتها وامتداداتها، وفي حين تولّد عن تجربة الإمام الخميني قدس سره مدرسة سياسية لها أطروحاتها وأساليبها المتميزة، فإن تجربة الإمام الشيرازي قدس سره أفرزت بعد سنوات طويلة من العمل والنشاط والتحدي مدرسة اجتماعية ثقافية لها ما يميزها في الوسط الشيعي.

فالكم الهائل من الإنتاج الثقافي الذي طال الكثير من الأبواب والموضوعات، والمشاريع الاجتماعية والحركية المتعددة المشارب والاهتمام التي انطلقت ومازالت على مستوى العالم الإسلامي، والعدد الكبير من الكفاءات المتعددة على مستوى الاختصاص، والتجارب المتعددة الوجوه والأشكال، كل ذلك نتج عنه نوع خاص من الرؤى والتصورات الناضجة في حقل الثوابت - بشكل نسبي لا أقل، مما يعني إمكانية انتقالها يوماً إلى حقل المتغيرات-، وهو ما أعنيه بالمدرسة.

٢. إن هذه التجربة نقلتنا من مرحلة إلى مرحلة مغايرة.. فقد اصطبغت المرحلة السابقة بالبدائية الثقافية على المستوى الاجتماعي، وبتخلف المشروع السياسي بل لم يكن هناك ثمة أفق لمثل هذا المشروع في الذهنية الاجتماعية والثقافية، والفردية في العمل الإسلامي، والكلاسيكية في الطرح الفقهي مع ما فيه من عمق، وكان للمساهمة الشيرازية بمختلف برامجها دور فاعل في الانتقال بالساحة الاجتماعية والذهنية الثقافية من هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر تقدماً، فالبدائية الثقافية أصبحت بسبب الضخ الهائل من الإنتاج الثقافي حداثة ثقافية حيث تنامى مستوى الوعي وتصاعدت وتيرة التفكير على المستوى العام والخاص، وتبلورت في الساحة مشاريع سياسية عملية عديدة، وانتقلت مسيرة العمل الإسلامي إلى الحالة الجمعية حيث تكوّنت العديد من التجمعات السياسية والثقافية والاجتماعية على مستوى المنطقة، والطرح الفقهي قطع شوطاً في خط العصرنة.. ومادامت هذه المدرسة قد نقلتنا من مرحلة بدائية إلى مرحلة أكثر تطوّراً، فلا يمكن لنا العودة إلى نقطة الصفر، وإنما لابد من التواصل والاستمرار من حيث انتهينا.

٣. إن هذه التجربة لم تكتمل بعد، فهي تحتاج إلى زمن أطول وفرص أكثر وتطبيقات أوسع وتنظيرات متعددة حتى تقترب أكثر من أهدافها ويتضح مستوى الجداوئية فيها.. فنظرية شورى الفقهاء مثلاً إن سلّمنا بتكامل الحديث حولها من الجهة النظرية والتأسيسية، لكنها تحتاج إلى تطبيق عملي على المستوى الخارجي، لتتضح قدراتها الفعلية على إدارة الواقع السياسي والاجتماعي للدولة الإسلامية، أي لابد من دولة عصرية تُطبَّق في وسطها الإداري هذه النظرية لتأخذ طريقها نحو الواقعية لا المثالية، كما هو الحال بالنسبة لنظرية ولاية الفقيه الواحد عند الإمام الخميني، فقد لقيت لها مجالاً مناسباً للتطبيق بعد أن تصدى المنظِّر لها لإدارة الدولة في إيران، ومن المناسب جداً الآن وبعد مرور ربع قرن على تطبيق هذه النظرية يمكن استكشاف مستوى الجدوائية فيها وهل تشكو من وجود بعض الثغرات أم لا.. أما نظرية الشورى فتحتاج إلى فرص عملية واقعية تطبق فيها لتكتمل صورتها، وفي نظري فإن هذه النظرية تحتاج أيضاً إلى بحث نظري موسع يتسم بشيء من النقد لتحريكها علمياً أيضاً.

وهكذا سائر الأطروحات السياسية والاجتماعية بل وحتى الثقافية التي نظّر لها الإمام الشيرازي طوال خمسين سنة، فإنها تحتاج إلى زمن وفرص واقعية ومراجعات نقدية لتكتمل صورها ولتتحول إلى نظريات متكاملة.

لذلك ينبغي التمسك بهذه المدرسة على أساس أنها خيار مواز لسائر الخيارات القائمة، والاستمرار من حيث انتهت، والدفع باتجاه تطويرها تنظيراً وتطبيقاً □

نقاط الضعف والقوة في مؤسساتنا الاجتماعية والثقافية

■■ آية الله السيد عباس المدرسي*

قبل أن نتحدث عن دور المؤسسات الاجتماعية والثقافية عندنا، ينبغي أن نسجل ملاحظة هامة وهي أن معظم المشاريع والأعمال الثقافية والاجتماعية في بلادنا -حيث الكثافة السكانية للمسلمين- قائمة على أكتاف (الإفراد) وليس (المؤسسات) وكلما اقتربنا إلى المجتمعات الأخرى -وأقصد بذلك الغربية بالذات- وجدنا أن الأمر ينعكس حيث تقوم معظم المشاريع على أكتاف المؤسسات وذلك تبعاً لتاثر الناس في ظل الأنظمة الغربية بالجو العام الذي يشجع الأعمال الجمعية، وبعضها يفرض ذلك على النشاطات الدينية والاجتماعية الرسمية ومع أننا لسنا بصدد النقد للأعمال الفردية، ولا التنقيص منها إلاّ أننا نرى لزوم قيام توازن بين النشاطات الفردية والاجتماعية، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر -دون أن أدعو شخصياً إلى إلغاء المبادرات الفردية على الإطلاق، ذلك أن (الخير) مطلوب كله ولا يجوز حصره في الإطار الجمعي، خصوصاً وإن بلادنا غير منظمة في إطارات جمعية في معظم الأنشطة والأنظمة، فكيف يجوز أن نطلب من أعمال الخير وحدها أن تنتظم، ولو فعلنا ذلك -فرضاً- فهذا يعني تعطيل معظم أعمال الخير.

بعد هذه الملاحظة أرى أن من الضروري أن نفرق بين المؤسسات الاجتماعية -والتي يغلب عليها الطابع الاجتماعي- وبين المؤسسات الثقافية البحتة.

في المؤسسات الاجتماعية وهي في الواقع قليلة إذا نظرنا إلى حجم المجتمع، ومبلغ الاحتياج، بل إنه في ظل بعض الأنظمة تكاد تنعدم المؤسسات الاجتماعية خوفاً من النظام القائم من أن تتطور هذه المؤسسات في المستقبل إلى بؤر شعبية مضادة للحاكم.

غير أن هذه الحالة تعتبر شاذة في أكثر المجتمعات الإسلامية اليوم، ففي ظل معظم

---

* عالم دين ومفكر إسلامي - العراق.

الأنظمة المستقرة يباح للناس تأسيس الجمعيات الخيرية التي تعنى بمساعدة الضعفاء والفقراء وتقوم ببناء المساجد أو تؤدي سائر أعمال الخير.

وأهم ما يلاحظ في هذه المؤسسات أمران:

الأول: إن الكثير من هذه المؤسسات تعمل في إطار ضيق، ففيما يفترض في المؤسسة الاجتماعية الدينية أن تكون انعكاساً للمفاهيم الدينية وللروح الإسلامية، نجد أن ٩٩٪ منها تتمحور حول الإطار الإقليمي أو القومي -أو حتى تتمحور حول قبيلة أو مدينة، ومع أن الاهتمام بجماعة خاصة أمر مقبول، غير منافٍ للإسلام قطعاً، ولكن بشرط أن تكون ثمة مؤسسات عامة تملأ الفراغ الذي تتركه المؤسسات الخاصة.

وفي هذا الإطار يأتي الإشكال، ففي مجتمع إسلامي يعيش فيه شتى القوميات والجنسيات من العيب أن تهتم بعض المؤسسات الاجتماعية بمساعدة المواطنين فقط، لأن ذلك يشبه أن تخصص المساجد للمواطنين فقط، وتمنع غيرهم عن دخولها (بالمعنى الضيق للمواطنة والتي تعني صاحب جنسية البلد الذي يعيش فيه الشخص).

ففي الإسلام « لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى » وهذا من أعظم امتيازات هذا الدين، ومن أهم أسباب انتشار الإسلام في مختلف بقاع الأرض.

الثاني: ندرة المؤسسات الاجتماعية الدينية العالمية.. ففي مثل دين الإسلام الأممي العالمي الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ لجميع البشرية.. لا نجد المؤسسات الاجتماعية العالمية.. لماذا؟ هل ثمة نقص إيماني؟ أم ثمة فعالية مانعة؟ أم مجموعة هذه الأمور؟

على أي حال يجب تسجيل هذا النقص خصوصاً وأننا نعيش عصر العولمة ومشاريع أممية مختلفة. لماذا لا ينبري المؤمنون بالإسلام بتأسيس جمعيات عالمية تشترك فيها جميع الجنسيات والقوميات؟ ولماذا تنحصر الأهداف في جماعة أو طائفة، أو أمة بعينها، أليس الإسلام ذا هدف عالمي؟ أليس قد جاء لإنقاذ البشرية؟ ألم يكن الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام ذوي روح إنسانية؟ أليس الناس في منطق الإمام علي عليه السلام: « أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق ».

فلماذا لا تؤسس الجمعيات الخيرية العالمية -أو ليس في الغرب- جمعية أطباء بلا حدود، ومنظمة العفو الدولية، وهيومن رايت، ووج الأمريكية؟ يجب أن ننطلق من الإسلام باتجاه الإنسان كله، ولا ننحصر في الإطارات الضيقة.

وأما المؤسسات الثقافية فهي على نوعين:

الأول: المؤسسات الثقافية التبشيرية.

الثاني: المؤسسات الثقافية العامة.

وفي كلا الحقلين نعاني من نقص كبير يكاد يصل في بعض المناطق إلى حدود الفقر التام، غير أن ما يهمنا هنا في هذا المقال هو المؤسسات الثقافية التبشيرية؟

إذا اعتبرنا (الحسينيات) مؤسسات ثقافية تبشيرية فهي تكاد تخرج عن حد الإحصاء، فمن حدود نيوزلندا واستراليا إلى أعماق الصين، مروراً بجبال همالايا وحتى آخر نقطة في بلاد كندا وأمريكا، تنتشر الحسينيات التي تتحول إلى بؤرة للنشاط الديني والخيري في شهري محرم وصفر وشهر رمضان المبارك.

وهذه الحسينيات بحق (مدرسة تربوية كبرى) وإذا كان لجميع المسلمين مناسبة واحدة يتجهون فيها إلى الله وتعميق الإيمان به، فإن لأتباع أهل البيت عليهم السلام بالخصوص مناسبتان، شهر رمضان المبارك وشهر محرم وصفر.

وليس أدل على أهمية الدور الذي تؤديه الحسينيات في مجتمعاتنا.. إن (الأجرام) في خلال هذين الشهرين يصل إلى حدوده الدنيا وفي يوم عاشوراء يصل إلى الصفر، كما أن أعمال الخير في هذين الشهرين مع شهر رمضان المبارك أكثر من جميع الأشهر في السنة. غير أن هذا لا يعني أن هذه المؤسسات التربوية هي فوق النقد وأنها وصلت إلى حد الكمال المطلق.. فللحديث عن تطوير عمل هذه الحسينيات، وتفعيل نشاطاتها، ورفع مستوى الخطباء فيها، ومن ثم تعميق تاثيرها الفكري.. مجال كبير.. غير أننا في هذه المقالة لا نريد أن نفتح هذا الموضوع لأنه بحاجة إلى بحث مستقل ومفصل. غير أننا نسجل هنا كلمة مهمة وهي: أنه كما لا يجوز في عصر الإنترنت والستلايت أن يقتصر التبشير الديني على ما يبثه خطباء المساجد من وعظ وإرشاد، كذلك لا يجوز الاقتصار على الحسينيات على أنه لا يمكن الاستغناء عنهما في أي زمان ومكان، غير أن وسائل الإعلام قد تطورت، وتنوعت وتفننت، وقد استطاعت هذه الوسائل أن تجذب وتكسب العقول والقلوب.. وتخطت وسائل الإعلام هذه الحدود الزمان والمكان، وأصبحت ذا تأثير واسع على الجيل الصاعد، فهل يقتصر المتدينون على الوسائل القديمة؟

غير أننا ومع الأسف لا نجد المواكبة اللازمة لتطور العصر من قبل المؤمنين، لا من جهة التجار وأصحاب المال، ولا من جهة الطبقة المثقفة!

بل إننا نلاحظ الجمود الغريب حتى في تطوير ما هو أقل من مستوى الستلايت.. فمثلاً: في مستوى المجلات التوعوية والثقافية والتبشرية ثمة فراغ كبير، مع أن العصر قد تجاوز حتى مستوى المجلات والجرائد.. فهذه من إبداعات القرن الماضي، أما اليوم فقد استخدمت وسائل أكثر تطوراً وتأثيراً على العقول والأفكار.

وعلى سبيل المثال فقط نذكر ما حصل لبعض المجلات المتخصصة كمجلة (أهل البيت) مثلاً، والتي لم تستمر في الصدور إلا لمدة عام.

ترى: ما هو سبب هذا الضمور - أو قل: الانغلاق عن وسائل العصر؟

إن قضية عاشوراء - ليست قضية طائفية، لأن الإسلام ليس طائفياً.

بل هي قضية إنسانية إسلامية.. وذات بعد عالمي، ولهذا السبب انتشرت الحسينيات في كل مكان، وكسبت القضية عواطف حتى غير المسلمين أيضاً.

صحيح أن الإسلام هو الدين الأكمل الذي لا بديل عنه، ولكن هذا لا يعني أننا لا يجوز أن نمتلك مبرراً عالمياً لمخاطبة عقول وعواطف غير المسلمين أيضاً لكسبهم إلى جانب القيم والمثل الإسلامية العليا؟.. وعاشوراء.. هو ذلك المنبر العالمي المغفول عنه، ففي أية أمة -ترى- يمكن أن نجد هذه الملحمة الإنسانية الكبرى التي تتجلى في أبطالها، حب الله وإيثار الحق، والوفاء والنبل والتضحية وكل ما تشتاقه الفطرة الإنسانية السليمة؟ وفي أية مدرسة يمكن أن يتعلم البشر: التخلي عن الشهوات الحيوانية الرخيصة، والأهواء الأنانية في سبيل نشر الخير والعدل في المجتمع؟

ليس ثمة مدرسة تربوية يمكن أن ترقى إلى مستوى (مدرسة عاشوراء) في صياغة النفوس المؤمنة الصادقة الوفية الطاهرة!

فإذا كان الإسلام أعظم الأديان، وكان الرسول الأعظم ﷺ أعظم الأنبياء، فإن حفيده الإمام الحسين عليه السلام هو أعظم المضحين في سبيل الله، وأكبر قربان لقيم السماء، ومدرسته أكبر مدرسة في الإيمان والتقوى والصلاح.

أجل.. فليس بالكلمة وحدها يتأثر الناس، بل بالمصداق الحي الذي يطبق الكلمة، وكما أن العرب في الجاهلية لم يميلوا نحو الإسلام لمجرد سماعهم لصوت القرآن.. بل لأنهم رأوا بأم أعينهم نموذج الرسول عليه السلام بأخلاقه العظيمة، وسيرته الطاهرة، وبأمانته الشهيرة، ووفائه التام فانصاعوا للإسلام، خضعوا لتعاليمه، كذلك لم يستمر هذا الدين ولم ينتشر إلاّ عندما وجدت الشعوب هذه التضحيات من أهل البيت الكرام عليهم السلام في سبيل قيم العدل والحق في الإسلام.

والشعوب غير العربية كانت -لولا سيرة أهل البيت عليهم السلام- ستخرج عن إطار الإسلام بسبب التصرفات العنصرية لحكام بني أمية الذين مثلوا بحق كل عيوب الجاهلية الأولى للعرب.

غير أن واقع الإسلام، وتضحيات أبطاله شيء.. وواقع المسلمين اليوم شيء آخر.. وعلينا دائماً - أن نعقد المقارنة بينهما لنعرف كم نحن بعيدون عن ذلك الواقع الجميل. فلماذا يبقى الحسين عليه السلام قضية خاصة بأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام؟ ولماذا تنحصر (عاشوراء) في حدود طائفة بعينها؟ أوليس الحسين عليه السلام بإجماع المسلمين سيد شباب أهل الجنة؟ أوليس قتله واستشهاده كان أكبر حدث مروع وأعظم حادثة مأساوية في تاريخ الإسلام بل وفي تاريخ الإنسانية؟

إننا مقصرون جداً تجاه قضية عاشوراء، فلا تنتهي مسؤولية الواحد منا بمجرد ذروف الدموع الساخنة على مآسي العترة الطاهرة من آل الرسول عليهم السلام على يد أعداء الإسلام في الجاهلية وفي الإسلام، بل إنها تبدأ من هنا.

وإذا كان ثمة نفوس أموية حاقدة وقلوب مريضة فإن معظم المسلمين مع أهل البيت عليهم السلام وقضيتهم! كما أن النفوس الخيّرة في كل مكان تقف إلى جانب المظلوم المجاهد الشجاع ضد ظالميه، فلماذا لا ننطلق من قضية عاشوراء لنشر الإسلام في الأرض؟، ولتعميق الإيمان

بالله في النفوس، وتعميم القيم العليا والمثل الأخلاقية في جميع المجتمعات.

فهل أن استشهاد الحسين عليه السلام أقل من صلب المسيح المزعوم؟ أوليس القرآن الكريم يتخذ من استشهاد المؤمنين في واقعة الأخدود وسيلة تبليغ لدين الله؟ ومن قضية الشهداء، في سبيل الله منبراً للدعوة إلى التضحية والفداء في سبيل الله وقيم السماء؟ فلماذا لا نفعل اليوم ذلك، ونجعل عاشوراء منطلقاً للإسلام ولتجديد روح الدعوة إليه، وتعميق الإيمان به.

وفي هذه المقالة -وبخصوص الحديث عن المؤسسات الثقافية وتشخيصاً لموقع النقص والإشكال في واقعنا الإسلامي المتخلف عن الإسلام والعصر معاً- ولا بخيرات العصر، إن لم نقم بثورة ثقافية في عقولنا.. إذ كيف يجوز لأمة تمتلك هذا الكنز التاريخي في عاشوراء وتعيش كل أنواع الذل والهوان وعلى جميع الأصعدة؟

وكيف يجوز لأمة ترى بعينها كيف تتسابق الأمم على امتلاك وسائل القوة والتطور.. وتبقى هي على موروثاتها القديمة في العمل، كمن لا يزال يعيش في العصر الحجري؟!

ثمة نقص في طريقة التفكير، وثمة حاجة إلى صدمة في الثقافة.

هناك عيب ما في نفوس وعقول أصحاب التوجيه والتأثير في الأمة، فمتى ومن أين يأتي التغيير؟

إن مؤسساتنا التبشيرية والثقافية بالقياس إلى ما لدى أعداء الإسلام يصل إلى مستوى الصفر، فهي أولاً لا تمتلك مقومات (المؤسسة الجمعية) وإن امتلكت ذلك فسرعان ما تنزوي وتتلاشى لتكون الغلبة في النهاية للمبادرات الفردية التي تموت عادة بموت أصحابها!

وكمثال على ذلك ما حصل لمؤسسة (رابطة النشر الإسلامي) التي كانت تقوم بتوزيع الكتاب الإسلامي في أوسع رقعة في الأرض مجاناً، وكانت تقوم بوجه خاص بتزويد من يريد الاطّلاع على مذهب أهل البيت عليهم السلام بالكتب المفيدة في هذا المجال.. وقد قامت بنشر ملايين النسخ من مختلف الكتب، وكان لها التأثير الجيد على مدى نصف قرن من الزمان!

ولكن أين هي المؤسسة الآن؟ لقد تعطلت ومع الأسف! لقد توفي مؤسسها المرحوم آية الله القزويني، وماتت المؤسسة من بعده.

فهل يحصل مثل هذا للمؤسسات التبشيرية المسيحية أيضاً؟ أم إننا نشاهد العكس، حيث تتزايد مؤسساتهم الثقافية وتتكاثر حتى في عقر بلاد الإسلام.

نسأل الله تعالى أن يقيّض لهذه الأمة ولأهل البيت عليهم السلام ومدرستهم التربوية والعالمية رجالاً ينذرون أنفسهم لله، فيرتفعون إلى مستوى المسؤولية وحجمها الكبير، فيدفعون لبناء المؤسسات الثقافية التبشيرية وغير التبشيرية لنشر معارف الدين ومعالم الإسلام الذي تم على يد أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتعريف بمدرستهم الأخلاقية والسلوكية في المجتمع، ليمهدوا بذلك طريق ظهور الإمام المهدي المنتظر، ويفتحوا الطريق أمام مسيرته الظافرة المنتصرة □

الأكراد الفيلية.. القضية المغيبة

■■ جلال سليمان*

عانى الشعب العراقي على مدى تاريخه السياسي كثيراً، من الظلم والاضطهاد وكبت الحريات، وقد تركزت المعاناة على الأكثرية التي مثلت أتباع أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، فقد مارست الدولة العثمانية الكثير من المجازر والمذابح، كما في حادثة نجيب باشا التي وقعت ليلة الحادي عشر من ذي الحجة عام ١٢٥٨هـ ـ ١٣ كانون الأول ١٨٤٢م، عندما دخل مدينة كربلاء المقدسة فقتل جيشه كل من لاقاه في الأزقة والشوارع والبيوت والمخابئ، وقدر عدد القتلى بأكثر من ١٢ ألف شهيد، وحتى عندما جاءت الحكومة الملكية لم يتغير وضع الأغلبية التي عانت من القتل والتشريد، وهكذا يتوالى مسلسل القتل والكبت والاستبداد، ويصل إلى الذروة في عهد حزب البعث العراقي، حيث مارس عملية منظمة تستهدف العقيدة والنفس والوجود، وكان الشعب العراقي كله ضحية للسياسات العنصرية والطائفية والمذهبية، لكن الضرر الأشد والأقسى كان من نصيب الغالبية التي كان جرمها الوحيد هو موالاتها لآل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد تتبع هذه الفئة في كل الأعراق، فالشيعة العرب والأكراد والتركمان كانوا هدفاً دائماً لسياسة الكبت والإرهاب والقتل والتشريد، وقضية الأكراد الفيلية من أهم تلك القضايا التي غابت عن تسليط الضوء عليها مع كونهم يمثلون ثلث الشعب الكردي في العراق.

من هم الأكراد الفيلية

الأكراد شعب عريق من الأمة الإسلامية، عانى من التجزأة والغبن، ويعود تاريخ هذا الشعب إلى أكثر من ٥ آلاف سنة، عاشوا في وطن سمي بأرض الكرد أو كردستان، وقد ورد أسم هذا الشعب قديماً تحت عنوان (الميديون)، حيث ذكرتهم الكتب القديمة مثل التوراة

* كاتب وباحث كردي - العراق.

(العهد القديم)، أو الإلياذة لهوميروس، وورد ذكرهم في الكثير من الكتب التاريخية التي تعرضت لذكر الشعوب القديمة، ويعد وجود الشعب الكردي في غرب إيران وجنوب تركيا حتى سنجار وجبال حمرين، من الأمور الثابتة تاريخياً، وبهذا يمكننا القول أن وجود الأكراد على أرض الجبال (ميديا) هو أقدم وأسبق من الشعوب الأخرى، وقد تم تجزأة هذه المنطقة بعد سيطرة الاستعمار وسقوط الدولة العثمانية، حيث توزع الأكراد بين كردستان العراق وغرب إيران وكردستان الشمالية في تركيا وسوريا، كما هاجرت أعداد كبيرة إلى لبنان والأردن وخصوصاً عند اشتداد الصراعات الداخلية أو الخارجية التي تفقدهم الأمان في أرضهم.

وينقسم الأكراد إلى طوائف عديدة، أهمها الفيلية التي تضاعف الضيم والقهر عليها لسببن هما:

١ - أنهم جزء من الشعب الكردي.

٢ - لأنهم يوالون أهل بيت النبي الأكرم ﷺ.

الفيليون جزء من الشعب الكردي، وقد ذكر المؤرخ نجم الدين سليمان مهدي الفيلي في كتابه « الفيليون » تبعاً للعديد من المؤرخين أن الفيليين هم بقايا العلاميين أو الكوتيين الذين عاشوا في وسط العراق وجنوبه كـ « بدرة وخانقين ومندلي وكركوك وجصان وبغداد » وغيرها من المدن العراقية والمدن الإيرانية كخوزستان الذين انحدروا منها، وقد توطنوا قرب المياه وخاصة شرق دجلة التي نمت فيها أقدم الحضارات البشرية.

وقد اندمج الفيليون أكثر من باقي الأعراق في المجتمعات التي عاشوا فيها، ففي العراق سكن العديد منهم المدن المقدسة كالنجف الأشرف وكربلاء، وامتهنوا العديد من الحرف كالزراعة والصناعة والتجارة وبالأخص في بغداد، وكان لهم دور بارز في الثورات التي حدثت في التاريخ العراقي كثورة التنباك وثورة العشرين (١٩٢٠م)، وقد تزعم قادة منهم جيشاً قوامه أكثر من ٥ آلاف شخص لمناصرة المجدد الشيرازي في محاربة الاستعمار البريطاني، بخلاف قسم كبير من الأكراد السنة الذين انضموا للمستعمر البريطاني وعملوا في المؤسسات المدنية والعسكرية التي أنشأها.

وقد كان الفيليون خط الدفاع الأول عن قضايا الأمة وكانت مشاركاتهم في صنع التاريخ السياسي العراقي واضحاً وكبيراً، لكنهم كانوا الضحية الأولى كذلك كما في الحروب الطاحنة التي اندلعت بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية، حيث قام العثمانيون بإبادة كبيرة للفيلية لكونهم شيعة لآل محمد ﷺ، حيث اعتبرهم العثمانيون عملاء للدولة الصفوية الشيعية، وتواصلت الإبادة والتشريد للفيليين على يد القوات الغازية البريطانية لميولهم المعادية للإستعمار ونصرتهم لقائد ثورة العشرين المجدد الشيرازي، واستمرت المأساة مع ما سُمي « عهد الاستقلال » حيث قامت حكومة رشيد عالي الكيلاني بمذابح عديدة كالمذبحة التي ارتكبها جيشه في مدينة الكاظمية في ١٩٣٥/٣/٢٣م.

الفيليون وثورة العشرين

أحدثت ثورة العشرين على يد الحوزة العلمية بقيادة المجدد الشيرازي انعطافة واضحة في حركة التحرر العراقية، وفي تنامي الوعي السياسي لدى غالبية الشعب العراقي بجميع طوائفه وفئاته وبالأخص الشيعة التي تمثل الغالبية، وكان الأكراد الفيليون الشيعة أحد تلك القطاعات الشعبية التي حركتها المرجعية الرسالية بقيادة المجدد الشيرازي كي تتواصل مع باقي الفئات في الجنوب في تسديد الضربات والمواجهة مع المستعمر وخصوصاً في منطقتي خانقين وجبل شيرين فقد ذكر تشمال مهام شيرة في مقابلة صحفية في عام ١٩٥٥م، كما جاء في كتاب للدكتور هادي ملك حول الأكراد الفيلية لم ينشر بعد، حول مشاركة الأكراد الفيلية في ثورة العشرين ما يلي: « بدأنا منذ عام ١٩١٧م والسنوات التي تلتها وبشكل خاص في صيف عام ١٩٢٠م، بدأنا تحت قيادة تشمال حاجي فيلمرز وابن أخته ملك، باعتبارهم رؤساء عشيرة آل خميس، مع عشيرة رسول وند بقيادة حسن عزيز وعشيرة قيتول وند بقيادة تشمال حاج صفر، بخوض حرب أنصار ضد الإنكليز في منطقة قصر شيرين وخانقين دامت عدة أشهر من عام ١٩٢٠م. فعندما بدأ أخوتنا في الجنوب الانتفاضة ضد الإنكليز، تسلمنا نحن خبراً عبر السيد محمد (الذي أصبح فيما بعد إمام جامع الخلاني في بغداد)، بضرورة قيامنا بهجمات على مواقع القوات البريطانية في منطقة خانقين و نفطخانة التي كنا ندخل في بعض الأحيان في العمق حتى بعقوبة. فعندما أغمض عيني أحياناً أرى صورة تلك الأحداث مجسدة أمام ناظري. لقد أنزلنا بالأعداء ضربات قاسية. وتوجهت تلك الضربات بشكل خاص ضد شركة النفط انكلو-إيرانية في منطقة نفطخانة، إذ أنها كانت منطقة تحت حراسة القوات البريطانية التي كان يقودها الكابتن مور.

لقد كنا نقوم بهجمات سريعة ببنادق « مارتن هنري ». وفي ساعات الخطر كنا ننسحب إلى الجبال، وكان هدفنا في الرماية تلك الرؤوس التي كانت تحمل قبعة إنكليزية أو عمامة سوداء لمجند هندي، وغالباً ما كنا نصيب الهدف، وغالباً ما كنا نوجه نيراننا إلى أولئك الذين يرتدون ملابس الخاكي، إذ كنا نعتبرهم وبشكل أعمى وبشكل ميكانيكي على أنهم من الجنود البريطانيين أو الهنود، علماً بأن غالبية المجندين في القوات البريطانية كانت من الهنود، وكنا نحصل على المواد الغذائية الضرورية من أخوتنا العشائر في زرباطية وبدرة وملك شاه، وليس أخيراً من أخوتنا في منطقة قصر شيرين ومن عشائر بعيدة عنا نسبياً مثل عشيرة علي شيروان بايرايو بشكل خاص من منطقة اركواز. كما حصلنا على دعم معنوي ومتطوعين منهم. ولعدة مرات استطعنا تعطيل سكك الحديد بعقوبة - خانقين. في خريف عام ١٩٢٠ أشعلنا النيران في القاعدة العسكرية في خانقين. وبعد كفاح مرير أجبرنا على الانسحاب. إذ فوجئنا بحصار فرضته علينا القوات البريطانية القادمة من كرمنشاه. كان الإنكليز يمتلكون قاعدة عسكرية في إيران البلد المجاور، وكانت هذه القاعدة تمدهم بالمساعدات. وبسبب هذا الحصار والمقاومة قتل وجرح لنا ٣٥ مناضلاً من مجموع ١١٠ مقاتلاً، رغم أننا كنا نخوض حرب أنصار تتمتع بقدرة على الحركة السريعة عند القيام بعملياتنا الأنصارية والانسحاب بعدها إلى المناطق الجبلية. ولكن أجبرنا على إيقاف حرب الأنصار بعد أن وقعت خيانة

من جانب بعض الجماعات التي كانت تعمل في صفوفنا (عشيرة كلهور)، وقعت الخيانة بأمل الحصول على نقود وأسلحة وأرض تعود لنا بعد التحاقهم بالقوات البريطانية.

إن مثل هذه النضالات الأنصارية كانت قد حصلت أيضاً في مناطق أخرى في وسط وجنوب عراق اليوم، ووفق المعلومات التي لدي مشاركة الأكراد في معارك عام ١٩١٥ في كوت العمارة، حيث شارك الأكراد والعرب، الشيعة والسنة سوية في هذه المعارك ضد الإنكليز. لقد عملنا معاً وعشنا معاً وناضلنا سوية. وهناك الكثير من الوثائق والأحداث التاريخية التي تؤكد ذلك بالنسبة لأولئك الذين، بغض النظر عن السبب القومي الذي يكمن وراء ذلك، ينكرون هذه الحقيقة. لقد ساهمنا، نحن الأكراد، بقصد غير قليل ليس في مجال بناء الاقتصاد وفي المجالات الثقافية والسياسية فحسب، بل وكذلك في بناء الدولة العراقية الجديدة.

الفيليون ونظام صدام

قام نظام صدام بالعديد من الجرائم التي لم يرتكب عشرها حتى الحزب النازي الهتلري، وعندما نبحث تاريخ الطغيان والجرائم التي مارسها الحكام بحق شعوبهم عبر التاريخ البشري، بدءاً من جلجامش مروراً بالحجاج والرشيد، لانجد بينهم مثل الطاغية صدام الذي لم يدخر ممارسة غير إنسانية بحق الشعب العراقي إلا ومارسها، رغم أن الإعلام العربي كان يخفي تلك الجرائم لأسباب عديدة أحدها طائفية هذه القنوات، إلا أن تلك الجرائم البشعة بدأت تتضح وتظهر كما شهدنا ذلك في أنواع التعذيب والقتل التي مورست في سجونه، والمقابر الجماعية، وقد وصل عدد الذين قتلهم نظام صدام بأكثر من ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف إنسان، وكان من أساليب الاضطهاد هو التشريد والتهجير للكثير من فئات الشعب العراقي، وكان الفيليون جزءاً من تراجيديا المأساة للشعب العراقي..

يقول الدكتور كمال قيتولي في رسالته عن محنة الكرد الفيلية ما يلي: بدأت عمليات تهجير هؤلاء المواطنين بتاريخ ١٩٨٠/٤/٤ حيث تم تهجير العوائل بعد مصادرة كل ممتلكاتهم ووثائقهم الشخصية (الجنسية العراقية، هوية الأحوال المدنية، شهادة الجنسية العراقية، دفتر الخدمة العسكرية، رخصة القيادة، هوية غرفة التجارة بالنسبة للتجار، هوية اتحاد الصناعات العراقي بالنسبة لأصحاب المشاريع الصناعية، وثائق الممتلكات، الشهادات المدرسية والجامعية، والخ).

ثم يقول: إن القيادة العراقية العليا وبأمر من صدام حسين اتخذت هذا القرار السري واعتبرت شرائح معينة من المجتمع العراقي (الأكراد الفيليين والفرس وبعض العرب) تبعية إيرانية أو ذوي أصول إيرانية وذلك بالرغم من إن هؤلاء مولودين هم وإباؤهم وأجدادهم في ارض العراق والبعض منهم تمتد أصولهم إلى فترة ما قبل ظهور الإسلام. وكان الغرض من هذه السياسة هو التحضير للحرب العراقية — الإيرانية التي بدأت أيلول من عام ١٩٨٠. لقد بلغ مجموع العراقيين المهجرين إلى إيران خلال الفترة من ١٩٨٠/٤/٤ لغاية ١٩٩٠/٥/١٩ حوالي مليون فرد حسب إحصائيات الصليب الأحمر الدولي والهلال الأحمر بعد اتهامهم بالتبعية لإيران.

الأزمــة...والمخــرج

تكمن الأزمات التي تعيشها امتنا الإسلامية في تنامي القيم والمبادئ المخالفة للدين في عقلية الأمة، وأهم تلك القيم السلبية التي مزقت الأمة هي سوء الظن والتوجس والريبة دائماً في النظر للمختلف ثقافياً أو عقائدياً، ومن ثم التعصب للذات بغض النظر عن ايجابيات الآخر أو صوابيته في الفكر أو السلوك والعقيدة، وقد لعب الاستعمار على هذه المفردة وكرسها بين فئات الأمة.

لكن عندما نرجع للفكر الإسلامي وللقرآن الكريم فإنه يقرر مجموعة من الأمور التي تحدث عند مراعاتها حالة التوافق والانسجام بين فئات الأمة، ويمكن حل الأزمة العامة في الأمة والقضية الكردية من خلال الالتزام بها وأهمها:

١ - اعتبار التمايز بين القوميات والأعراق والمذاهب أمر طبيعي ولا يمكن تجاوزه، وينبغي أن يوظف لزيادة الرصيد المعرفي والثقافي بين فئات الأمة وذلك انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[١].

٢ - احترام الآخر المختلف في العقيدة أو المذهب أو العرق أو القومية كما يقرر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ.. ﴾[٢].

٣ - التواصل مع الآخر المختلف وفهم منطلقاته الفكرية والعقيدية وغيرها انطلاقاً من قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء ﴾[٣].

٤ - تطبيق قاعدة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الحكم والتعامل مع الناس وهي أن الناس إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق[٤].

٥ - تطبيق الأخوة الإسلامية انطلاقاً من قول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٥].

٦ - تطبيق العدالة بكل جوانبها وعدم سلب الناس حقوقهم لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾[٦].

٧ - جعل الميزان في النظر لقضايانا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[٧] □

الهوامش:

(١) القرآن الكريم، سورة الحجرات آية١٣.
(٢) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١١.
(٣) القرآن الكريم، سورة آل عمران آية ٦٤.
(٤) الري شهري، محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب في الكتاب والسنة والتاريخ، ج٤ ص٢٣٤، رواية رقم ١٥٩٥.
(٥) القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية ١٠.
(٦) القرآن الكريم، سورة النساء، آية ٥٨.
(٧) القرآن الكريم، سورة الأنبياء، آية ٩٢.

في بلادي*

■■ آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي

الاستعمار والشر والكفر

في بلادي في بلادي حيث مأوى للشرور ... يسرح الإثم وفيها مَرِحٌ كلُّ كفور
في بلادي في بلادي يطأ الكفرُ الأراضي ... عوض الإسلام، والمسلم فيها غير راضي
في بلادي في بلادي عارضوا نصّ الكتاب ... قد أباحوا كل ما حرّمه دون ارتياب
في بلادي في بلادي حفلات للسلام! ... عملاء الشرق قد أبدوا لها كل اهتمام
في بلادي في بلادي كمّموا الأفواه جهرا ... ولمنْ طالب حقاً هيؤوا سجناً وقبرا
في بلادي في بلادي حيثما السلطةُ صِدفه ... فترى الثورات تأتي برجال الحكم خِلفه

الحكومات الإسلامية وقوانينها

في بلادي في بلادي حيث للقانون جولة ... أوجد المستعمر الآثم للقانون دولة
في بلادي في بلادي مَلِكٌ معصوم يوجد ... كلما قال يُنفّذ، أمره وحي يُسدد
في بلادي في بلادي برلمانٌ برلمان! ... لنظام الغرب فيها مهرجانٌ مهرجان
في بلادي في بلادي مجلسُ الأعيان بادي ... تحكمُ الأعيان ما يحلو لديها في بلادي!
في بلادي في بلادي للديمقراط حكومه ... ولقد أعفى الديمقراط عن الدين رسُومَه
في بلادي في بلادي بُلْشفيك يتحكّم ... وعلى الإسلام والقرآن والدين تهَكّم
في بلادي في بلادي حيثما الأَحزاب توجد ... كلّ حزب خنجراً في منحر الإسلام سدّد
في بلادي في بلادي يأخذون الجند جبرا ... ويُزَجُّ الجيش في الثورات -للتيجان- قسرا
في بلادي في بلادي حيثما الغربي راعي ... حرموا تزويج مثنى أو ثلاث أو رباع

* جزء من قصيدة « في بلادي » طبعت لأول مرة عام ١٣٨٢هـ عن دار الكتب - بيروت.

في بلادي في بلادي كل من شاء الزياره عرقلوا سفرته إلا إذا جاءت إشاره
في بلادي في بلادي لغة القرآن تُرفَضْ بلغات بائدات لغة الدين تُعَوّضْ
في بلادي في بلادي يرسف السلم قسرا في عهود أبْرمتْها دول الكفار جهرا
في بلادي في بلادي نبذوا وقت الكتاب جعلوا تاريخ ميلاد أساساً للحساب
في بلادي في بلادي كلّ أمر متناقض من ديمراط واستبداد؛ من هاو وناهض
في بلادي في بلادي حيثما الأديان تُهْمَل مكتب الإسلام غافٍ، مكتب الإلحاد يَعْمَل
في بلادي في بلادي إذ نظام الدين يُهْدَمْ يرفع الصوم عن العمّال، مأفون مُحكّم
في بلادي في بلادي حيث أعياد جديده خنقوا الإسلام حتى في مسرات عيتده!

من أنظمة الحكومات

في بلادي في بلادي يُترك القرآن جهرا حيث للأنظمة الغربية الدولة طرّا!
في بلادي في بلادي تَحكم الناسَ دوائر دائر السوء عليها (إنها إحدى الكبائر!)
في بلادي في بلادي شبكات للنظام ترضع السلطة مخّ الناس من غير فِطام
في بلادي في بلادي حدّ الإسلام معطّل وحدود الشرق والغرب لدينا تتخطّل
في بلادي في بلادي سفر ثم إقامه وهويات وجنسيات للذلّ دعامهَ
في بلادي في بلادي انتخاب للكراسي والكراسي هي للغرب وللشرق مراسي
في بلادي في بلادي حيثما الفوضى تسود يَحْجُز القانون في الأبيات من فيه صمود
في بلادي في بلادي فتح السجنُ ذراعه يتلقّى كلّ من عارض أو فيه مَناعه
في بلادي في بلادي حيث للأمن دوائر يتجسّس عن الناس لتكبيل المشاعر
في بلادي في بلادي فتح القانون بابا سامت السلطة من خالف قانوناً عذابا
في بلادي في بلادي حاكم، قاضٍ، محامي وجميع عن نظام الغرب والشرق يُحامي
في بلادي في بلادي للتجارات كمارك كلُّ إيراد وإصدار تصدته معَارك
في بلادي في بلادي كلّ من خالف يُحبس أبدلوا بالحد والتعزير والتغريم محبس
في بلادي في بلادي فتح البنك المُرابي بستار الغرب قد لاذ، ومن شاء يُرابي
في بلادي في بلادي جعلوا للعمر قدرا يبغ السنّ الحكومي من أتى تسعاً وعشرا
في بلادي في بلادي حيث مَرْعى للكفور جعلوا أنصبة الأنثى كأمثال الذكور
في بلادي في بلادي حيثما رمزُ الشهامه جنديٌّ مجهول مأخوذُ من الغرب علامه
في بلادي في بلادي مسلمونَ كالأجانب وبها الكفار أهلونَ لهم كلّ الرغائب

في الوطن الإسلامي الكبير!

في بلادي في بلادي كلّ أميالٍ دويله ... حَكَّم المستعمر الكافرُ في التبضيع مَيْلَه
في بلادي في بلادي هَوّدوا شطراً، وشطرا ... نصّروا، وانقلبوا في شطرها الثالث كفرا
في بلادي في بلادي لفلسطين نياحه ... قائلاً: هَوَّدني الغرب، أقيموا لي مناحه!
في بلادي في بلادي عَلَم التفتيش يُرْكز ... وعلى الإسلام في أندلس البيضا يُجهز
في بلادي في بلادي يَنْدبُ القفقاز حظّه ... يشتكي الإلحاد، حيث بالأنياب عضه
في بلادي في بلادي عَجَبٌ حَرْبُ العَواهر ... ففرنسا تَنْثُر القتلى على أرض الجزائر!
في بلادي في بلادي من حدود دُوَليَه ... أحدث المجرم لورانس تقاطيع جَليّه
في بلادي في بلادي حيث لا دين مُحقّق ... إنما الإسلام للدولة دين يُتمَشدق
في بلادي في بلادي دولٌ للعلم تُنْسب ... عَجَباً! حتى من اسم الدين والإسلام تهربْ!
في بلادي في بلادي أغربوا قسم، وقسمُ ... أشرقوا، أما من الإسلام للمسلم فاسمُ

معطيات السلام*

■■ آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي

إن السلام يصل بصاحبه إلى أحسن النتائج، والمسالمون يبقون مهما كان لهم من الأعداء وحتى إذا عثر بهم الزمان وسقطوا فإن السقوط يكون وقتياً، فالقائمون بالحركة إذا أحاطوا أنفسهم بجو من السلام كفوا أعدائهم أولاً، فلا يتمكنون من القضاء عليهم، وثانياً إذا تمكن الأعداء منهم فسيكون تمكنم وقتياً وينتهي الأمر بتقدم المسالمين.

ولذا نرى أن الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام كانوا يجنحون دائماً إلى السلام. وهذا رسول الله ﷺ كان يسالم أعداءه حتى عندما كان في أعلى درجات قدرته. وحروب رسول الله ﷺ كانت دفاعية كما ثبت في التاريخ ولم يبتدأ الرسول بالحرب أبداً، وكان إذا حارب اتصفت حربه بالسلام في أغلب شؤونها إلاّ القدر المضطر إليه. ولذا تقدم رسول الله ﷺ ذلك التقدم الهائل وإلى اليوم لازال ﷺ في تقدم مطرد، وما من يوم إلا ويزداد فيه عدد المسلمين بالرغم مما واجهته الدولة الإسلامية من اليوم الذي أقامها رسول الله ﷺ وإلى هذا اليوم، من الكيد والمكر وما أشبه.

وكذلك علي عليه السلام فإنه قد جنح إلى أكبر قدر من السلام وهو لم يحارب أهل الجمل وإنما هي حاربوه، وبمجرد أن انتهت الحرب عامل الإمام عليه السلام البقية معاملة الأصدقاء والإخوة وكأنه لم يكن شيء، وهكذا حرب النهروان، فالخوارج هم الذين حاربوا الإمام وأشاعوا هذه الدعايات، وواجهوه بالسب حتى أن الإمام قال كلمة جميلة بمناسبة (وردت في نهج البلاغة) وكان حول الإمام أصحابه، وهنالك خارجي يسمع كلام الإمام فعلّق على كلام الإمام بقوله: « قاتله الله من كافر ما أفقهه » يعني: علي كافر لكنه كثير الفقه! فأراد أصحاب الإمام تأديب الخارجي فقال الإمام: « دعوه، فإنما هو سب بسب أو عفو

* كتاب « السبيل إلى إنهاض المسلمين » ص٢١٨ - ٢٢٢.

عن ذنب وأنا أولى بالعفو » يعني إنه سبني فجاز أن أسبه أو أعفو عنه لكني أولى بالثاني، وعفا عنه.

وقد تمكن الإمام عليه السلام أن يسيطر على حركة الخوارج التي كانت حركة انحرافية، بلينه ومرونته.

وورد في التاريخ أن الإمام عليه السلام حين انتهت حرب الخوارج عفا عن بقيتهم فلم يسجنهم ولم يجازهم بأي جزاء آخر، وإنما كانوا في الكوفة وغير الكوفة وينتقصون من الإمام والإمام ساكت عنهم، فقد كان يعلم أن المسالم هو الذي يتقدم، وفي قضايا متعددة كانوا يضغطون على الإمام بمختلف أنواع الضغوط، مثلاً يحضرون المسجد ولا يصلون معه جماعة، وقد قرأ خارجي هذه الآية أمام الإمام معرضاً به والإمام في صلاته: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ يريد ذلك أن الإمام مشرك وقد حبط عمله ولكن الإمام عفا عنه.

وهكذا كان الإمام: كان يصبر على النقد، حتى النقد الظالم وكان يصبر على الضغط حتى إذا كان الضغط من أناس منحرفين لأنه كان يعرف أن السلام أحمد عاقبة، وأن المسالم هو الذي يبقى كما نرى ذلك بالفعل حيث بقي الإمام عليه السلام منذ ألف وأربعمائة سنة، وسيبقى على طول التاريخ عَلَماً هادياً مهما تطورت الظروف.

وفي حرب صفين وهي أشد الحروب ضد الإمام عليه السلام ورد في التاريخ أنه عليه السلام كان إذا ظفر بجندي من جنود معاوية استحلفه أن لا يساعد معاوية، ثم يتركه وشأنه! وهل يوجد مثل هذا الشيء في التاريخ -إلا في تاريخ الأئمة والأنبياء والمصلحين العظام الذي اتبعوا آثارهم- ؟

ولكل ذلك نرى أن الإمام ظل كالطود الشامخ رغم أن بني أمية ضغطوا عليه ولعنوه على سبعين ألف منبر ما يقارب مئة سنة، ورغم أن بني العباس وجهوا إليه ضغوطاً ظالمة، من جملتها قصة المتوكل الذي كان يحارب الإمام ويسبه ويقتل أولاده ويسجنهم، وقد كرب المتوكل قبر الحسين عليه السلام وهدم كربلاء مرتين كما في التاريخ، وكان يأتي برجل يسمى (عبادة المخنث) فكان يدخل الوسادة بين ثوبه وبطنه ثم كان يمشي في المجلس ويشبه نفسه بعلي عليه السلام ويقول: « أنا الأنزع البطين، أنا أمير المؤمنين » ساخراً من الإمام عليه السلام والحاضرون في المجلس يضحكون.

ولكن ماذا كانت العاقبة؟ إن هؤلاء أساؤوا إلى أنفسهم ولم يسيئوا إلى الإمام -إلا في الظاهر- وقد قال الإمام عليه السلام ذات مرة: « ما أحسنتُ إلى أحد ولم يسئ إليَّ أحد » !

قيل يا أمير المؤمنين: قد أحسنت كثيراً وأساؤوا إليك كثيراً.

قال عليه السلام: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾. فإني أحسنت إلى نفسي بإحساني إلى غيري، والناس أساؤوا إلى أنفسهم بإساءتهم إليَّ.

وعلى أي حال فإن هؤلاء الذين ضغطوا على الإمام عليه السلام من بني أمية ومن بني العباس وأضرابهم إنما أساؤوا إلى أنفسهم، فقد قتل المتوكل ووزيره (الفتح بن خاقان) إرباً إرباً من جرّاء أمثال هذه الأعمال وكذلك بالنسبة إلى من سبقه ومن لحقه والإمام باقٍ كالجبل الراسخ، وكالشمس المضيئة يستنير بنوره أكثر من ألف مليون إنسان في العالم.

إن كل ذلك كان بسبب طبيعة حركة الإمام، وسلمه الذي اتخذه شعاراً في حياته الشخصية وحياته العائلية وحياته الاجتماعية.

وفي الحديث أن ابن ملجم لما ضرب الإمام عليه السلام قال له الإمام عليه السلام: « ألم أحسن إليك، ألم أزد في عطائك » ؟ فهو عليه السلام مع علمه بأن ابن ملجم يقتله -لإخبار رسول الله إياه بذلك- كان قد زاد في عطائه وأحسن إليه.

وبعد أن ضربه ابن ملجم كان الإمام يأمر بمداراته وكان إذا شرب اللبن أبقى شيئاً منه وقال: « أعطوا أسيركم » وقد قال الإمام عليه السلام لأولاده: « إن شفيت من ضربته هذه فأنا أعفو عنه، وإن لم أشف فلكم حق القصاص ولا تمثلوا بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تمثلوا ولو بالكلب العقور » لكنه عليه السلام حبذ إليهم العفو عنه.

وهكذا ذهب معاوية.. واندثر الخوارج.. وانتهى أصحاب الجمل.. وسقط هارون والمتوكل والمأمون وأمثالهم الذين كانوا يعادون الإمام عليه السلام ذهبوا كلهم وبقي الإمام عليه السلام منارة مشعة للسائرين.

إذن فالحركة الإسلامية التي تريد النهوض لإجل إقامة حكومة ألف مليون مسلم عليها أن تتخذ السلام شعاراً عملياً حتى تتمكن من استقطاب الناس ومن دفع الأعداء، ولو فرض أن الحركة سقطت أو عثرت فلابد أن تقوم بعد عثرتها، ولأن من طبيعة الناس الانتصار للمسالمين، والانتقام من المحاربين، فإذا جعلت الحركة الإسلامية السلام شعاراً واقعياً -لا دعائياً فقط- في القول والعمل والفكر والتأليف والخطابة والاجتماع، فإنها تتمكن من التوسع حتى تشمل كافة بلاد الإسلام وتكون مقدمة إقامة حكومة ألف مليون مسلم بإذن الله تعالى وما ذلك على الله بعزيز □

طريق النجاة

■■ بدر الشبيب*

المؤلف: آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي قدس سره
الناشر: هيئة محمد الأمين صلى الله عليه وآله
تاريخ الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
الحجم: ٥٥١ من الحجم الكبير

يأتي هذا الكتاب ضمن المشروع الكبير لسماحة الإمام الشيرازي الذي يستهدف إقامة حكم الإسلام في كل أرجاء المعمورة حتى ينعم الإنسان في الشرق والغرب بالرفاه والحرية والسلام.

والكتاب مشروع في المشروع الحركي الإنهاضي الإسلامي، في محاولة لفقهنته فكرا وممارسة كي يصل العاملون فيه إلى أهدافهم سالكين طريق النجاة. ويتألف الكتاب من مقدمة وأربعة فصول.

في المقدمة يبين سماحة السيد الهدف من تأليفه « لعله يكون سبباً لنجاة المسلمين من هذا المهوى السحيق الذي وقعوا فيه، فأخر دنياهم وأودى بدينهم إلا من عصمه الله تعالى ».

ومن خلال إدراك سماحته أن التغيير يبدأ من الفكر خصص الفصل الأول للبحث عن طريق النجاة في الشؤون الفكرية، ويستغرق هذا الفصل أكثر من نصف الكتاب الذي يقع في ٥٥١ صفحة. وفي المسألة الأولى يستدل سماحته عقلا وشرعا على لزوم سلوك طريق النجاة، ثم يشير إلى أن ذلك لا يمكن أن يكون كاملا إلا إذا كان الحكم بيد المسلمين الذين يطبقون الإسلام. بعدها تتوالى المسائل تباعا مبتدئة من المبدأ إذ « على الذين يريدون

* كاتب وشاعر - السعودية.

إقامة حكم الإسلام التوكل على الله وطلب النصر منه » « وترك اليأس والامتلاء بروح الرجاء من الله سبحانه »، وهناك أمر ثالث مرتبط بالتوكل والتفاؤل ومكمل لهما، وهو أن يعي المسلمون قوتهم فالمسلمون أقوى من الغرب ومن الشرق، لكن قوتهم غير فاعلة، وقوة الغرب والشرق الصغيرة فاعلة، فإذا وعى المسلمون هذين الأمرين أولا، ثم عملوا في فاعلية القوة الإسلامية من جانب وإبطال فاعلية القوة الأجنبية من جانب آخر ثانيا قام الإسلام من جديد بإذن الله، وأنقذ العالم لا العالم الإسلامي فحسب. ثم ينتقل سماحته إلى الممارسات التطبيقية التي يجب على المنتمين للتيار الإسلامي أن يهتموا بها مشدداً على:

أولاً: إحياء الشعائر الإسلامية:

وهي عبارة عن القرآن الكريم والمسجد والصَّلاة والزكاة والحج والصوم، وليس القصد في هذه المسألة بيان فلسفة هذه الأمور، بل القصد أن التيار الإسلامي المتنامي يجب أن يتبنى أفراده إقامة هذه الشعائر بكل قوة، وكذلك يلزم عليه أن ينشر في المجتمع هذه الأمور حسب المقدور.، وقد تحدث مفصلا عن أهمية كل واحدة من هذه الشعائر بالإضافة للخمس، وعطف حديثه موضحا أن اللازم على التيار الإسلامي أن يلتزم بالإسلام من ألفه إلى يائه، هذا من ناحية الواجبات، أما الناحية الأخرى فاللازم الابتعاد والإبعاد عن الحرام، ولو بالقدر المستطاع قبل الوصول إلى الحكم، فإذا وصلوا لزم عليهم منع المنكرات جميعا بالأسلوب المناسب.

ثانيا: إحياء المفاهيم الإسلامية:

وينطلق سماحته في ذلك من فهم عميق للمفاهيم فإن المفهوم من وجهة نظره ليس صرف ألفاظ، بل حقائق مرتبطة بالأمة، ففي إحيائها إحياء الأمة، وفي إماتتها إماتة الأمة، هذا بالإضافة إلى ربط الأحكام الشرعية ببعض تلك المفاهيم.، ويقصد بالمفاهيم الإسلامية ما ذكرها الإسلام أو كانت عادة المسلمين قبل دخول الغرب إلى بلاد المسلمين.

بعد ذلك يتوجه سماحته للحركة الإسلامية باحثا عن مقوماتها الذاتية التي تجعلها تصل إلى هدفها المنشود، فعلى هذه الحركة أن تراعي ثلاثة أمور: السلامة أولاً، والصعود ثانياً، والبقاء ثالثاً، وهذه المقومات تحتاج إلى خمسة أمور على الأقل لتحقيقها وهي:

الأول: إعطاء الحريات للناس غير الحركيين من قبل الحركيين بمعنى عدم المساس بحرياتهم.

الثاني: المداراة.

الثالث: التزام السلم الصعودي التدريجي.

الرابع: التواضع، بمعناه العام.

الخامس: سعة القاعدة حتى تتمكن القاعدة من تحمل البناء.

ويمضي سماحته في رسم طريق النجاة الموصل لحكم الإسلام متفهما ومستوعبا كافة المدخلات التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار حتى تنتج المخرجات المطلوبة، فالله تعالى جعل الدنيا دنيا أسباب ولا بد من الأخذ بالأسباب الموصلة إلى إقامة الحكم الإسلامي بخاصة في الظروف الصعبة الراهنة، ومن تلك الأسباب المباشرة: ملاحظة المعادلات الدولية العالمية التي لا تسمح بإقامة الإسلام حتى في جزء من بلاد المسلمين، وفهم الحكومة فهما كاملا، وصلاح الأفراد القائمين على المشروع المؤمنين بأهدافه الساعين بصدق لتطبيقه، وتوعية الناس بقوانين الإسلام الصحيحة المستقاة من الأدلة الأربعة، وسبل تطبيقها في كل أبعاد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والفكرية والعسكرية والأمنية وغيرها. ونلاحظ هنا أن السيد الشيرازي ينطلق في تشخيصه من تجاربه وملاحظاته العميقة لمسيرة الحركة الإسلامية التي عايشها، ولا يخفي تألمه من الانحرافات التي أصابتها، يقول سماحته: لقد رأيت بنفسي شيوخاً كبار السن ابتدأوا قبل نصف قرن بهذا التفكير الرفيع وانتهوا إلى أن صاورا أئمة في مساجد متباعدة بمأمومين قليلين أو خطباء من الدرجة الثالثة أو ما أشبه، وذلك لأن طريقهم لم يكن طريق الحكم، بل رأيت بعضهم صاروا موظفين لحكومات كانوا هم أشد المناوئين لتلك الحكومات، يقول سعدي في شعر له وهذا ترجمته:

أخاف أن لا تصل إلى الكعبة أيها الأعرابي

فإن طريقك ذاهب إلى تركستان

فالمسألة ليست أماني، فإذا أُريد الوصول إلى الحكم في بلاد الإسلام كان الأمر بحاجة إلى مليارات من الساعات من العمل الجاد ليل نهار، عملاً بالمستوى كماً وكيفاً، وما بعد الوصول أصعب فعلى الواصل أن يكون رجل دولة أي رجل إدارة من الطراز الأول، والإدارة ليست وليدة الساعة، بل تحتاج إلى أسس ومقومات، من بينها البرنامج العملي القابل للتطبيق ووجود الكوادر البشرية المهيأة لتلك المرحلة. ولأن الأمر بهذه الصعوبة فإنه يحتاج إلى تكاتف القوى الإسلامية من مرجعية وتنظيمية وثقافية ومصرفية وصحية وغيرها، فالأمور الجزئية كهداية شخص وتأليف كتاب - أو ألف شخص أو ألف كتاب - لا يكفي إطلاقا، بل الأمر بحاجة إلى مليارات من النشاطات.

والتيار الإسلامي بصفته طليعيا فعليه أن يلتزم بالصفات الواردة في الروايات لمن يتولى شؤون المسلمين كي يستطيع عند استلامه زمام الحكم أن يطبق البنود التي تحتم مبادئ الإسلام على الحاكمين تطبيقها، وقد شخص سماحته خمسين بندا شملت كافة مجالات الحياة، وهي ترسم صورة مثالية لما يجب أن يكون عليه المجتمع حين يحكم الإسلام.

ويرى سماحته أن ضمان الإجراء والتطبيق لما يعد به الناهضون من حكم الإسلام هو أمران:

الأول: الوعي المتزايد عند المسلمين حتى لا يتمكن أحد من استغلالهم وتحريفهم.
الثاني: المؤسسات الدستورية الحافظة للانتخابات الحرة.

أما الوحدة الإسلامية التي يسعى لها الناهضون فهي لا تعني أن ترفع جماعة يدها عن معتقداتها، أو لا تستعد للدفاع عنها، بل معناها أن يكون المسلمون صفاً واحداً أمام الشرق والغرب وتطبيق المتفق عليه في الإسلام، وفي سبيل تحقيقها يلزم على الناهضين أن يلاحظوا الأمور الصغيرة ويعطوها حقها، كما يعطوا الأمور الكبيرة حقها، كما يلزم فتح باب الفكر والنقاش والنقد الحر والبناء. والمناقشة التي نجدها في الرسائل، والمكاسب، والكفاية، والجواهر، والحدائق، والمستند، وسائر الكتب الفقهية والأصولية يلزم أن تجد سبيلها إلى سائر حقول الحياة الحاضرة.

وعلى النقيض من حرية النقاش والنقد يأتي الاستبداد الذي ينبغي مقارعته لأنه حرام شرعاً، قبيح عقلاً، منبوذ عرفاً، معاقب عليه آخرة،...فعلى التيار الإسلامي الذي يريد إنهاض المسلمين وإعادة دولتهم أن لا يقع هو بنفسه في هذه الرذيلة، وأن يعمل جاهداً ليل نهار لإخراج الاستبداد عن الميدان. وإمعانا من سماحته في تركيز أهمية هذا المفهوم في أذهان الناهضين يعدد مائة من مضرات ومفاسد الاستبداد، موزعة حصصا متساوية بين طوائف خمس: الدين والعقيدة، والأخلاق والآداب، والاقتصاد والمال، والسياسة والإدارة، والاجتماع والمدينة.

ولرب قائل يقول: إن الواقع الفعلي للعالم الإسلامي لا ينبئ عن قدرة مبادئهم على تحقيق ما تحدثتم عنه من مجتمع مثالي، فيجيبه السيد: إن الواقع الفعلي لا يدل على سقم المبادئ، إذ إن الإسلام لا يطبق كلاً من ألفه إلى يائه، لا في النظافة، ولا في النظام، ولا في الأمة الواحدة، ولا في الأخوة الصادقة، ولا في الألفة، ولا في الاكتفاء الذاتي، ولا في النشاط، ولا في العلو حسب (الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه) ولا في عدم اتخاذ الوليجة، ولا في زواج بنيهم وبناتهم حسب السن الإسلامي والمهر الإسلامي ولا في الحج الجماهيري، ولا في الأخلاقيات، ولا في الآداب، ولا في الاستفادة من خيرات الأرض، ولا في العلم، ولا في ألف شيء وشيء، والحاصل لا يطبق الإسلام في القانون وإنما يطبق في الذهن والعبادة غالباً فقط، أليست هذه حالة الدروشة؟

وفي نهاية الفصل يحاول جاهدا أن يغرس الثقة في نفوس القائمين على المشروع الإسلامي، فيقارن بين قوة المسلمين الحقيقية وقوة المستعمرين، ويستدعي تاريخ المقاومة المشرق في سائر البلاد الإسلامية من مثل تركيا وإيران وأفغانستان وباكستان والهند واندونيسيا وأفريقيا والعراق ومصر مختتما له ببيان آثار الاستعمار التي أحدثها في العالم الإسلامي من اصطناع للحدود الجغرافية، ومن فقدان الأخوة الإسلامية، ومن تطبيق قوانين مضادة للإسلام، ومن انعدام الحريات الإسلامية.

أما الفصل الثاني فيرسم طريق النجاة في الشؤون الاقتصادية، ويشدد سماحته في هذا الفصل على أمور منها:

١ - احترام أموال الناس ودماءهم وأعراضهم.

٢ - الاهتمام بقضاء حوائج الناس.

٣ - الاهتمام بالصناعات الوطنية مهما كانت صغيرة، وإحياؤها وتعميمها في كل أجزاء الحياة.

٤ - الأرض لله ولمن عمرها.

٥ - حرية التجارة الداخلية والخارجية.

٦ - العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي

٧ - الاقتصار على الوسائل البدائية إذا توقف الأمر في نجاة المسلمين على ذلك.

ويستدرك قائلاً:

ثم انه ربما يحمل ما ذكرناه من أقسام الاكتفاء الذاتي على أنه نكوص عن الحاضر المؤلم إلى الماضي المشرق على ما يقرره علم النفس، فإن علماء النفس قرروا بأن من عادة الفاشلين الذين كان لهم سابق زاهر النكوص للماضي، والاحتماء بأمجاده وأيامه السعيدة، فالشيخ الهرم الذي لم يعد له حاضر أو لم يبق له أمل في الغد يهرب من واقعه المؤلم في الحال الحاضر إلى ماضيه المشرق، حيث يستعيد ذكريات الشباب بأمجاده وقوته ونشاطه ومكانته الاجتماعية وما إلى ذلك.

ويرد على ذلك بأنه وكما يلزم على الفرد تحمل الحاضر المؤلم لمستقبل يحفه اليسر والهناء كذلك بالنسبة إلى الأمة. ولا شك في أن العالم الإسلامي تأخر تأخراً فظيعاً، بحيث كان في مقدمة الركب فصار في ذيل القافلة، بل تأخره يزداد يوماً بعد يوم، فإذا أردنا تقديم الأمة إلى الأمام يلزم علينا الرجوع إلى الماضي، وتحمل الصعوبة حتى تنقلع جذور الاستعمار عن بلاد الإسلام ... وترجع إلى المسلمين صحتهم المفقودة...

٨ - تربية النفس على التقشف.

٩ - الاقتصاد في استخدام النفط حيث هو حق الأجيال، ولأن استخراجه وتكريره مرتبط بالآلات والخبرات الأجنبية.

١٠ - الاهتمام بالأوقاف فهي من مراكز الإشعاع ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وعبادياً واجتماعياً وصحياً وما إلى ذلك. ولذا ينبغي على العاملين إحياء الوصايا والأثلاث والأوقاف والتشجيع عليها.

١١ - تعميم صناديق الاقتراض الخيري لسد البنوك الربوية.

١٢ - إحياء الزراعة الوطنية.

١٣ - تربية الحيوانات كخطوة اقتصادية نحو الاستقلالية.

ويشكل الفصل الثالث الإطار الأخلاقي للشؤون الفكرية والاقتصادية، فالقائمون بالنجاة إذا لم يتحلوا بمكارم الأخلاق فإنهم لا يتمكنون من تحريك الناس إلى المكارم، وأخيراً يكون نصيبهم الفشل، وعليه فاللازم عليهم أن يتصفوا بأرقى الأخلاق، والأخلاق لا تأتي من دون الإيمان، فإن الإيمان يعطي الواقعية، والواقعية تأتي بالأخلاق.

وتأصيلاً لموضوع الأخلاق في الإسلام يحشد طائفة من الروايات في أخلاق المؤمن وطائفة أخرى في سوء الخلق، ثم يردفها بالدعوة إلى مجموعة من الفضائل كصيانة البنين والبنات عبر الزواج المبكر، وتجنب الكذب والغرور والمادية فإنها تمنع من الوصول إلى الهدف، والالتزام بالرفق وترك العنف القولي والعملي، واحترام الكبار، وإسعاف المضطر، وغيرها.

وأخيرا نصل إلى الفصل الرابع تحت عنوان: في الشؤون المتفرقة، وهو يضم مجموعة مسائل متفرقة في طريق النجاة، ومن ذلك التخصص والتركيز في طريق الإنقاذ. إن الذين يريدون إنقاذ بلاد الإسلام يلزم عليهم الاهتمام بالتخصص والتركيز، فإن حال الإنسان حال سائر ما في الطبيعة من الطاقات التي جعلها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، فإن العدسة اللامة التي هي بقدر راحة كف تحرق بسبب الأشعة الشمسية المجتمعة فيها بما لا تفعل مثله عشرات الفراسخ من أشعة الشمس غير المركزة.

ومن ذلك عدم الجنوح إلى التجمل والتنعم والتلهي والاشتغال بالأشياء التافهة لأنها تهدر الوقت والمال وتصرف البال عن الأمور الهامة، ولعل هذا مستمد من قول الإمام السجاد عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: « واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غدا عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له ».

ومن ذلك إحياء الطب القديم كالحجامة والتداوي بالأعشاب، وقد أخذ الاتجاه يتزايد حاليا في المجتمعات الصناعية لما يسمى بالطب البديل.

ومن ذلك أيضا لزوم تعميم القراءة والكتابة لتشملا كل المسلمين. فهما لازمان إما وجوباً أو استحباباً في غير ما استثني كتعلم السحر وتعليمه وما أشبه ذلك.

خاتمة

كانت هذه جولة سريعة في كتاب هام حري بكل مشتغل بالشأن الإسلامي أن يطالعه وينهل من معينه، فكاتبه فقيه عالم بأحوال زمانه، وصاحب تجربة كبيرة في الميدان الإنهاضي، بالإضافة لسعة اطلاعه على التجارب التاريخية معايشة أو قراءة، واستيعابه لفلسفتها □

إعداد هيئة التحرير

أحكام المعاملات

المؤلف: آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
الناشر: دار محبي الحسين (عليه السلام).
الطبعة: الأولى، الصفحات: ٤٦٠.

هذا الكتاب هو الجزء الثاني والمكمل للرسالة العملية التي تعرض آراء سماحة السيد المدرسي في المسائل الفقهية، وهو قسم المعاملات، الذي يتناول أحكام العقود، والإيقاعات، والأحكام، وفق رؤية سماحته لها.

تناول في الفصل الأول:

- فقه الحياة الطيبة:

التي يضم تحته الصحة، الأمن، العدل، السلام، الحق، الزرق، الطعام والشراب.

وفي الفصل الثاني:

- فقه العقود، أصول عامة، وفي الفصل الثالث: أحكام العقود والعهود، وفي الفصل الرابع: أحكام الزواج والأسرة.

كتاب عاشوراء

كتاب توثيقي حول عاشوراء البحرين ١٤٢٤هـ
هيئة التحرير: فاضل عنان، علي الديري، عباس المرشد، محمد ميرزا، رباب النجار.
الناشر: مجمع البحرين الثقافي للدراسات والبحوث (البحرين).
الطبعة: الأولى، الصفحات: ٥٤٥

كتاب عاشوراء هو إصدار سنوي يضم فعاليات عاشوارء في البحرين، والإصدار هو الأول من نوعه لسنة ١٤٢٤هـ، حيث يضم جميع فعاليات عاشوراء باختلاف الإحياءات، والتفاعلات، والتيارات، بما في ذلك من توافقات واختلافات وتناولات.

واشتمل الباب الأول على خطب الجمعة وكلمات ألقيت في المناسبة، اقتصرت على عدد محدود من العلماء والمثقفين هم الشيخ عيسى قاسم، والشيخ علي سلمان، والأستاذ عبد الوهاب حسين، أما الباب الثاني فقد تناول المجالس الحسينية، عبر تغطية عدد

منها، وهي مجالس الشيخ حميد المبارك، و الشيخ محمد علي المحفوظ، والسيد هادي الموسوي، الشيخ منير المعتوق، الشيخ حبيب المقداد.

وفي الباب الثالث تم تناول المسرح الحسني، كتب فيه حبيب علي أحمد عن الظواهر المسرحية بموسم عاشوراء البحرين، وكتب حبيب حيدر (الفضاء المسرحي وقضية الحسين) تناول فيه تجربة أحد الحسينيات مسرحية _الحسين ثاراً الحسين شهيداً) من تأليف عبد الرحمن الشرقاوي.

واحتوى الباب الرابع على التقارير عن الأنشطة والمواسم المتنوعة، كتب عباس الجمري (سيرة التطبير) بين فيه التجاذبات الفقهية والمجتمعية والثقافية للنظرة لموكب التطبير، كما احتوى على تغطية لموسم قرية توبلي الثقافي، وفعاليات منطقة المحرق بتنوعاته، والملتقى الإعلامي لجمعية الرسالة الإسلامية، وشعارات عاشوراء، وتقرير عن إعلاميات عاشوراء.

وتناول الباب الخامس من الكتاب المواكب العزائية، بالتوصيف والتحليل (مواكب المنامة أنموذجا)، كتبه حسين التتان، ودراسة في مدارات القصيدة العزائية الحديثة، لعيسى العصفور، وعن أثر الإصلاحات السياسية في البحرين على القصيدة العزائية للمواكب، كتبه محمد فاضل.

واهتم الباب السادس بالحلقات الحوارية التي أجريت في موسم عاشوراء، وكان منها: (حلقة نقاشية حول أدب الطف والنزعة القبلية)، و خطاب المنبر الحسيني وقيم المجتمع المدني)، و (حلقة حوارية مع رواديد المواكب العزائية)، حلقة حوارية مع النشطاء في العمل السياسي حول هموم وقضايا عاشوراء، وحوار مع الشيخ المهتدي البحراني.

وفي الباب السابع مجموعة من المقالات والقراءات حول عاشوراء وخطابه في البحرين، والباب الثامن حول إعلاميات عاشوراء و تغطية النشرات التي صدرت في الموسم، وفي الباب التاسع: خصص لعرض البيانات الصادرة عن الجمعيات والعلماء بالمناسبة، والباب العاشر والأخير: اهتم بالخطاب النسوي في عاشوراء، عرض فيه مقالات لعرض النشاط النسائي في البحرين عن طريق نماذج من الخطيبات الحسينيات، وحوار مع إحداهن وهي كريمة الموسوي، وتغطية لفعاليات الجمعية النسائية في بني جمرة، وحوار مع الناشطة رملة جواد.

العولمة والمجتمع

التحديات الجديدة وبرنامج المهام

المؤلف: محمود الموسوي.

الناشر: دار الثقافة (البحرين) و (دار الهادي) بيروت.

الطبعة: الأولى، الصفحات: ٦٤

يناقش القسم الأول من الكتاب مسألة العولمة كمفهوم كوكبي يطمح مؤيدوه للهيمنة على العالم، وما هو إلا تعبير جديد عن سياسات الاستعمار القديمة، فنبغي إعادة التساؤلات الملحة التي أفرزتها مقولة العولمة من تحديات تواجه العالم الإسلامي،

حيث أن الاشتغال المعرفي بالعولمة يعتبر متأخراً عن اهتمام الشعوب الأخرى به، وقد تناولت الدراسة تأثيرات العولمة على البعد الاجتماعي، وجعلت الاهتمام بالأسرة من أولويات الاهتمامات التي ينبغي أن يتصدى لها وينطلق منها، باعتبارها الأمر الأبرز من عوامل قوة المجتمع الإسلامي الذي ما زال يحافظ على أسسه، خلافاً للمجتمعات الأخرى تبددت فيها الأسرة.

القسم الثاني من الكتاب يناقش جدلية الثقافة الفردية ودورها في التحديات الكبرى التي تمليها أجواء العولمة، التي خلقت ضرورة المشاركة، حيث أن أي رهان سيكون خاسراً في ظل المراهنة بما ستقدمه الثقافة الفردية والجهد الفردي، فلا بد من توظيفها في قوالب مؤسساتية فاعلة تواكب مقدار التحدي.

القسم الثالث حول الخصوصية في عصر العولمة، وكيف نفهم الخصوصية و (الصبغة) في ظل التحديات الراهنة، حيث أن الخصوصية عامل من عوامل إصلاح المجتمع نفسه، وهي قاعدة للانطلاق نحو الانفتاح على الآخر، لضمان الثبات على العقيدة.

الإمام علي عليه السلام محراب السياسة

المؤلف: ضياء ضياء الدين.

الناشر: معهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للدراسات والأبحاث - الكويت.

الحجم: ١٩٢ من الحجم الكبير.

يبين الكاتب أهم الثوابت السياسية التي اتخذها الإمام عليه السلام في مساره السياسي، وهي تشكل في مجملها أساسيات المنظومة الفكرية للسياسي الإسلامي، من سيادة القانون ووحدة الأمة والالتزام بالمواثيق والعهود وتكريس الحريات والعدل والمساواة، ويفرق بين الخداع والنفاق والتزلف والمؤامرة والجريمة والخطيئة وبين القيم والمبادئ والطهارة والنظافة والحنكة والفطنة: يقول الإمام عليه السلام لولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس - كما يقول لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر العرب... هكذا جسد الإمام (عليه السلام) بحق محراب السياسة.

ويحتوي الكتاب على مدخل وأربعة فصول وهي: الفصل الأول: من بدأ بالتشكيك، والفصل الثاني: انتقادات، والفصل الثالث: ثوابت ومتغيرات، و الفصل الرابع: واقعية إسلامية، ويحتوي كل فصل مجموعة من العناوين الفرعية التي تبين نظرة الكاتب حول تلك الموضوعات.

نظام الحوزات العلمية

المؤلف: آية الله العظمى السيد محمد مهدي الحسيني الشيرازي قدس سره

الناشر: دار العلوم - مؤسسة - بيروت

الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م - الصفحات: ٤٨

يستشرف المستقبل كعادته، فقد بحث موضوعه (نظام الحوزات العلمية) سنة ١٤١٥هـ ولم يطبع الكتاب إلا بعد رحيله بسنتين، وبهذا يكون عمر البحث عشر سنوات.

فقد جاء في مقدمة الكتاب « نظام الحوزات العلمية، اسم هذا الكتاب الذي كتب لأجل بيان ما نتصوره من النظام في هذا الجانب من العراق في المستقبل بإذنه سبحانه.. » .

وكونه أستاذ حوزة، ومرجع دين، وقائد رسالي، يستعرض سماحته قدس سره، رؤاه في بلورة واقع حوزوي قادر على مواكبة التطور والعصرنة، فبعد أن يبحث عدة موضوعات مثل:

- الحوزة وعلاقتها بالعلوم.
- الدراسة المنتظمة والدراسة الحرة.
- التدين والأخلاق.
- طلبة من كل الجنسيات.

يستطرد سماحته للحديث حول جملة من الأمور التي بها يمكن للحوزة مواكبة حركة التطور العلمي والعالمي، ففي حديثه حول (الاستفادة من الوسائل) يشير سماحته: « ومن الوسائل التي يمكن الاستفادة منها، المذياع والتلفاز، والكاسيت والفيديو، والجريدة والمجلة، والأقمار الصناعية، أخيراً الإنترنت، حيث يمكن نشر العلوم الدينية وإجراء الاتصال عبر هذه الشبكة من الوسائل المتاحة » .

كما يدعو سماحته بضرورة إدخال الدروس السياسية في الحوزة العلمية، فقد جاء تحت عنوان (بين الحوزة والسياسة) قوله: « من الضروري تدريس علوم الدولة المرتبطة بإدارة المجتمع، وهي علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع، فقد كتب علماؤنا في هذه العلوم منذ ألف عام جنباً إلى جنب العلوم الفقهية التي كتبوها، وكتبوا في السياسة عند البحث في الإمامة، والبحث عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المكر والقضاء، وكلها موضوعات مرتبطة بالسياسة » .

محاضرات فكرية وتربوية وروحية

المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الشيرازي.

الناشر: الهيئة العلمية في حوزة الرسول الأعظم- الكويت.

الحجم: ٢٨٩ من الحجم الكبير.

يحتوي الكتاب خمسة وعشرين محاضرة ألقاها سماحته خلال فترات مختلفة، وقد تضمنت مواضيع فكرية روحية وتربوية متنوعة أفاض بها سماحته تلبية للحاجة الملحة لبث الروح الإسلامية الفعالة والمتمثلة في المنهجية المتكاملة لفكر أهل البيت عليهم السلام التي أضحت ضرورة حياتية لا غنى عنها، ومن العناوين التي احتواها الكتاب، ما يلي: قضية الإمام الحسين عليه السلام قضية الأرض كلها، والإمام الحسين عليه السلام أقام الدين، والحجة المنتظر (عجل الله فرجه) منة الله على المستضعفين في الأرض، ولنعرف أمامنا ووظيفتنا بصورة أفضل، وما أعظم أهل البيت عليهم السلام وما أحلى العيش في ظلهم!، وكيف نذلل المشكلات في طريق طلب العلم، وعلماء الدين مسؤوليتهم مضاعفة، وأحكام الله فوق كل شيء، والحرية في الإسلام، وحقوق المرأة في الإسلام، والإصلاح الزراعي في الإسلام، وغيرها من العناوين المهمة والتي بحثها الكاتب بصورة رائعة تبرز عظمة الفكر

الإسلامي لدى فقهاء أهل البيت عليهم السلام.

قراءات فقهية معاصرة في الحقوق والقضاء

المؤلف: آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي.

الناشر: دار الغدير - بيروت

الحجم: ٤٤٨ من الحجم الكبير.

ثمة ضغوطات وتحولات كثيفة تطرأ على حياتنا المعاصرة، إن لم نستجب لها كنا شيئا من الماضي، وعلى هامش الزمن لا متنه، وإن انهزمنا أمامها ذبنا كما تذوب حبة الملح في المحيط، وهنا نلجأ إلى الخيار الثالث، خيار التحدي، الذي يفرض علينا الانفتاح على متغيرات العصر لكن بروح أصلية، وعقل دقيق محقق.

ولان العملية بهذا التعقيد فهي تفرض على أهل الاختصاص التصدي لها. فالكتاب الذي بين أيدينا هو نوع من هذه الاستجابة، من شخصية هي في عمق الحوزة (الأصالة)، وفي جو العصر (الانفتاح).

يقدم السيد الهاشمي مجموعة من البحوث الفقهية المعاصرة، في مجالي الحقوق والقضاء، وهي كالتالي: حكم التخدير عند إجراء العقوبات الجسدية، حكم إلصاق العضو المقطوع في القصاص، كفاية تكرار اليمين وعدمها في القسامة على القتل، استقلال بعض الأولياء في القصاص، دية الذمي والمستأمن من الكفار، إرث المسلم من الكافر وحجبه لورثته الكفّار، حول أصناف الدية الستة، عفو الحاكم في العقوبات، حكم القاضي بعلمه، تحديد موضوع حدّ المحارب.

الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والتفكير العالمي

المؤلف: آية الله السيد محمد رضا الشيرازي.

الناشر: مؤسسة ربيع القلوب الثقافية- قم المقدسة- إيران.

الحجم: ٧٢ من الحجم الوسط.

يتضمن الكتاب مجموعة من المحاضرات التي ألقاها آية الله السيد محمد رضا الشيرازي وتناول فيها قضية الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وقد احتوى الكتاب العناوين التالية: في الباب الأول: التفكير العالمي، مقدمة: تأثير الفكر في حياة الإنسان، الفصل الأول: الاختلاف في مديات التفكير.. تأثير الفكر في حركة الإنسان، الفصل الثاني: مظاهر التفكير العالمي... التشيع في الهند وتايلاند والفلبين.. وخاتمة، وفي الباب الثاني: الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، الفصل الأول: دور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، الفصل الثاني: كيف نستفيد من وجود الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، نموذجان للاستفادة من وجود الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

١ - السيد محمد باقر الدامغاني رحمه الله.

٢ - الحاج السيد آقا حسين القمي رحمه الله.

إعداد هيئة التحرير

البيان الختامي لفعاليات

مؤتمر الإمام الشيرازي الثاني

« العراق في فكر و مسيرة الإمام الشيرازي »

الذي أقامته جمعية الرسالة الإسلامية

خلال الفترة بين ١٦- ١٧ شوال ١٤٢٤هـ

الموافق ١٠- ١١ ديسمبر ٢٠٠٣م

برعاية سماحة حجة الإسلام و المسلمين العلامة السيد جعفر الشيرازي، و سماحة العلامة السيد محمد العلوي، عقدت جمعية الرسالة الإسلامية مؤتمر الإمام الشيرازي الثاني « العراق في فكر و مسيرة الإمام الشيرازي » في مبنى الجمعية بالماحوز، خلال ١٦- ١٧ شوال ١٤٢٤هـ، الموافق ١٠- ١١ ديسمبر ٢٠٠٣م.

و هدف المؤتمر التعرّف على رؤية الإمام الشيرازي للعراق ماضياً و حاضراً و مستقبلا، و هو ما يتحقق من خلال التساؤلات الآتية:

- كيف كان ينظر الإمام الشيرازي لتاريخ العراق (الأنظمة والمجتمع) وما هو الأثر الذي أثّر في مسيرته، وما هي القواعد التي استنتجها، لكي تكون ثوابت لتحركه؟

- ما هي المعالم الأساسية لحركة الإمام الشيرازي الثقافية والسياسية والمرجعية والعلمية والمجتمعية في العراق ومن أجل العراق؟

- كيف كان الإمام الشيرازي ينظر لمستقبل العراق (الذي لم يشهده)، وما هي التطلعات التي كان يصبوا إليها لبناء عراق الغد؟

وقد عبرت النشرة الخاصة الصادرة في المؤتمر عن دوافع إقامته بقولها: عندما يفتقد التعاطي مع ذكرى موت العظماء من العلماء،إلى التخطيط ويسلّم قياده للارتجالية والعفوية، لن يحقق ما جاء من أجله أولئك العلماء ولن يدفع باتجاه إكمال المسيرة التي آمنوا بها وعملوا بها، و لن يكون ذلك التعاطي مهما بلغ من فائدة بالمستوى الدقي و المطلوب.

إن أحوج ما نحتاج إليه في تعاملنا مع شخصية عظيمة، تميّزت بغزارة العلم، وسعة في الجهاد كالإمام الشيرازي (رحمه الله) هو أن نفكّر في الأسلوب الأمثل والطريق الأنسب الذي يتفق مع روح وماهية المادة التي نتعامل معها، وإن كانت أساليب وطرق متعددة، فالمهم أن نتعاطى

بقدر العطـــاء، وأن نمارس التعاطي بقدر الإيمان بأهميته.

ومؤتمر الإمام الشـــيرازي هو تطلّع أكثر من أن يكون واقعاً، ونأمل أن نحقّق الواقع بقدر التطلع، فرســـالته هي الحفر في معطيات السيرة العلميـــة والعملية التي اســـتمرت لعدّة عقود من الزمن بأســـلوب علمي جاد، يعطي لتلك المسيرة المتميّـــزة حقها، بل ويعطي للنـــاس (من عرفه ومن لم يعـــرف) حقوقهم في التعرّف على ذلك النتاج العلمي الضخـــم، وتلك الرؤى والنظريات التي أراد لها صانعها أن تتبوأ مكانها من الواقع، قاصداً إصلاحه ورأب صدعه.

نحن بحاجة إلى مشروعات عملية لإنقاذ العراق:

دعا سماحة العلامة السيد جعفر الحسيني الشيرازي في كلمته الافتتاحية المثقفين والباحثين إلى الخـــروج بتصورات عملية تســـاهم في إنقاذ العراق وشـــعبه من الأزمات التي يعيشها. وقال العلامة الشـــيرازي في اليـــوم الأول للمؤتمر إن "النظام البائد خلف مشـــاكل عظيمة ســـواء مع دول الجوار أو داخل العراق، ولا بد أن يســـاهم جميع المســـلمين في إيجاد مشـــاريع لتجاوز هذه المشـــاكل" وحذر من « مضاعفات تلك المشاكل التي قد تؤدي إلى تفاقم الأوضاع سواء السياسية أو الاقتصادية أو الإنسانية ». واستعرض بعض رؤى وتصـــورات الإمـــام الراحل فيمـــا يرتبط بالعراق التي سجلها في مؤلفات عدة، مؤكداً على ضرورة الســـعي لتطبيق تلـــك الرؤى من خلال تضافر الجهود. وأشـــاد السيد جعفر الشيرازي في ختام كلمته بجهود الإخوة في جمعية الرسالة الإسلامية وشكرهم على مساعيهم الخيرة.

ملامح من مدرسة الإمام الراحل:

كما ألقى الرئيس الفخري للجمعية سماحة العلامة الســـيد محمد العلوي كلمة باسم الجمعية أكـــد فيها علـــى الأبعـــاد الرســـالية والنهضوية والحضارية في مســـيرة الإمام الراحل. معتبراً أن الخشـــية من الله كانت وراء الإنجـــازات العظيمة التي خلفها الإمام الشـــيرازي من خلفه. وتحدث العلـــوي عن علو همة الراحل بقوله « عندما كان الإمام الشيرازي يطرح أفكاره ويسعى لإنجازها في بداية مسيرته، كانت تلك الأفكار في نظر البعض مستحيلة ». ويضيف « إلا أن الإمام كان يراها قريبة ». وبالفعل استطاع هذا الرجل العظيم أن يحقق جملة من مشروعاته وعدداً من طموحاته. كما تحدث الرئيس الفخـــري للجمعية عن المنهج التربـــوي في منهـــج الإمام الشـــيرازي وصناعة الكفاءات وبناء المؤسســـات. وخلص إلى القول في نهايـــة المطاف إن الإمام الراحـــل كان طوال تلك المسيرة يواجه الصعوبات بالإيمان والصبر ويقابل الإســـاءة بالإحســـان، ولذا فإنه استطاع أن يبني تياراً يحمل أفكاره من بعده ويبقى وفياً لها.

مرتكزات البنى السياسية في فكر الإمام:

وبعد ذلك عرض سماحة العلامة الشـــيخ زكريا الداوود القطيفي لورقته التي شـــارك بها المؤتمـــر، وكانت بعنوان « الشـــيرازي والتعاطي مع النظم السياســـية.. العراق مثالاً - قراءة في المقدمـــات ». وتناولت الورقـــة خمس مرتكزات افتـــرض الباحـــث أنهـــا البنى الأساســـية لمنهج الإمام الشـــيرازي السياسي، وهي — كما أوردها

العلامة الداوود – الأمة الإسلامية الواحدة، وحدة المصير والمسير والمسار، اللاعنف منهجاً وسلوكاً، ضرورة الحريات، محورية شورى الفقهاء. واعتبر العلامة الداوود أن « أية قراءة لا تصدر عن إدراك هذه المباني المنهجية لا يمكن أن تقدم رؤية صحيحة لفكر المجدد الشيرازي الثاني » وأضاف موضحاً « لأنها تُعد مدخلاً ليس في النظرة السياسية فحسب، بل ألقت بظلالها حتى في العمل الفقهي، والفكري والثقافي وغيرها من الحقول المعرفية ». واستعرض الباحث في ورقته لكل مرتكز قراءته مقارباً له بالقضية العراقية ومستشهداً بقطع أخذها من بعض مؤلفات الإمام الراحل حول العراق. وعقب كل من الشيخ أبو الحسن الصالح والشيخ عبد المجيد العصفور على ورقة العلامة الداوود وأتبع التعقيب بسؤال للشيخ حبيب الجمري بشأن الكفاح المسلح في فكر الراحل وأسئلة أخرى من قبل جمهور الحاضرين.

كل بقعة في العراق تحمل آثاراً للإمام الشيرازي:

في اتصال هاتفي من كربلاء المقدسة في الليلة الثانية للمؤتمر دعا المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) محبي الإمام الشيرازي الراحل إلى العمل والتكاتف والتوحد حفاظاً على المسيرة الإسلامية التي قادها الإمام الراحل. وقال المرجع المدرسي: « لقد رحل الإمام الشيرازي في وقت نحن أحوج ما نكون إليه وإلى القيادات التاريخية الفذة في عراق المقدسات ». وأضاف المرجع المدرسي « غير أن ما يخفف عنا ألم فراقه هو حينما نجد أن مسيرته ونضاله مستمر في أبنائه ومريديه، وأن خطه الرسالي يعمل جاهداً لإخراج العراق من زاويته الحرجة ». وقال المرجع المدرسي إن الوضع في العراق « يستعيد عافيته ونشاطه يوماً بعد يوم » وأشار إلى أنه متفائل وأن « علينا بذل المزيد من الجهود لإكمال مسيرة الإمام الراحل حتى الانتصار الذي سيعم العراق ودول الجوار ولربما حتى الدول العربية والإسلامية ». وفي وقت عبر المرجع المدرسي عن عظيم أسفه لرحيل الإمام قبل أن يشارك العراقيين تلك التحولات- التي مهد لها وبشر بها مشيراً إلى أن كل بقعة في العراق ولا سيما أرض كربلاء تحمل آثاره - زف إليه « أسمى آيات الإعظام » وهنئه « في عالم الخلد لما يجري في عراق المقدسات ».

الإمام الشيرازي.. قصة جهاد:

وقدمت في الليلة الثانية للمؤتمر ورقتان بحثيتان الأولى لسماحة الشيخ عبد الله الصالح بعنوان « الإمام الشيرازي.. قصة جهاد » والثانية للسيد جعفر العلوي بعنوان « استراتيجية الإمام الشيرازي لمستقل العراق الجديد ». وتناول الشيخ الصالح في ورقته البحثية مسيرة الإمام الراحل التي يمكن أن توصف بكل الكلمات والنعوت « لكن كلمة الجهاد هي أصدقها عليه، وهي انسبها إلى ما قام به خلال فترة حياته الحافلة بالعطاء ». وضمن البحث عرض لثلاثة محاور رئيسية وهي بناء المؤسسات الدينية والثقافية والاجتماعية، ومقاومة الأفكار الطاغوتية والصنمية الهدامة ورموزها وأخيراً إرساء ملامح عراق المستقبل. وتحدث عن هذه

المحاور مستشهداً بمشاريع ومواقف وكتابات الإمام الراحل. مؤكداً على بعد الجهاد في شخصية الإمام الذي كان شجاعاً لا يخاف في الله لومة لائم كما ذكر تلميذه المرجع المدرسي (دامت بركاته). وأشار الصالح إلى أن الإمام الشيرازي كان ينظر إلى المستقبل، فما بدأ مشروعاً إلا فكر في استمراره، ولذا هيأ للمرجعية من بعده تلاميذاً نجباء كان في طليعتهم المرجع الديني السيد صادق الشيرازي والمرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي (دام ظلهما). وعقب على كلمة الشيخ الصالح سماحة العلامة الشيخ محمد علي المحفوظ (دام عزه) الذي أكد على أهمية أن يعيش أتباع هذا الخط الرسالي متواصلين مع تراث المرجعية الدينية للإمام الشيرازي من خلال الحضور الحقيقي في سوح العمل والتضحية. محذراً من الفجوة بين المرجعية وأتباعها مع تقادم الوقت ومرور الزمن.

استراتيجية الإمام الشيرازي في العراق الجديد:

أما سماحة السيد جعفر العلوي - الذي تحدث عن استراتيجية الإمام الراحل لمستقبل العراق بعد سقوط نظام الطاغوت- فأكد أن العراق في مسيرة الإمام الشيرازي لم يكن مفصولا عن تطلعاته في إنهاض الأمة الإسلامية وإقامة الحكومة العالمية غير أنه أولاه عناية خاصة لعميق تجربته وارتباطه بتلك الأرض وكونها أرض المقدسات والحوزات الشريفة. وشدد العلوي على أن الإمام الراحل تميز باستيعاب عميق للتاريخ من خلال اطلاعه والتفكر فيه ما جعله يستقرأ الحالة العراقية ويضع لها حلولاً واضحة. ومن معالم الاستراتيجية المستقبلية للعراق الجديد في فكر سماحته -بحسب العلوي الذي ذكرها في أربعة عشر نقطة - الانتخابات العامة، وإقامة حكومة شعبية، على أن تتولى زمامها الأكثرية الشيعية، وتحكمها القوانين الإسلامية ضمن سلطات مستقلة. بالإضافة إلى سيادة سياسة العفو والسلم، وإطلاق الحريات للجميع بمن فيهم الأقليات. إلى جانب توفير الأمن للناس مقتصرين على وظائف رئيسية في أجهزة الدولة وتقدير الكفاءات وصولاً للاكتفاء الذاتي والتطوير المدني، وأخيراً إقامة علاقات دولية متوازنة.

وبادر للتعقيب على كلمة العلوي سماحة العلامة الشيخ عبد العظيم المهتدي البحراني الذي ركز على أهمية الانفتاح، والتسامح في سيرة الإمام الراحل. وقال المهتدي « نحن مدعوون إلى الخروج بالإمام الشيرازي من أطرنا الضيقة لنعرفه لكل العالم ». وأضاف « إنني ومن خلال تجربتي أعتقد أنه يمكن ذلك ». وأشار المهتدي إلى أنه كما كان في كل زمان ومكان فإن للعظماء دائماً أعداء يجهدون في تطويق حركتهم، ومنعهم من الانطلاق فإنَّ السيد الشيرازي أبتلي بأولئك، ولكنهم لم ينالوا من عزيمته في حياته. ودعا إلى الاستمرار في منهج الإمام الراحل بأن « لا نطوقه في أطرنا بعد مماته ».

البيان الختامي:

وفي نهاية المؤتمر ألقي البيان الختامي الذي لخص مجمل البحوث والمداخلات، وأكد على توصيات أربع هي كالتالي:

١ - العمل على طباعة أوراق المؤتمر

الحـــالي والســـابق في كتاب مســـتقل لتعميم الفائدة.

٢ - الاستمرار في الندوات و المحاضرات حول رؤية الإمام الشـــيرازي للعـــراق ماضياً وحاضراً و مستقبلا.

٣ - السعي نحو إيجاد المؤسسات و اللجان الداعمة للشعب العراقي تبرعا واستثماراً.

٤ - الاهتمـــام بالبحـــوث التي تتناول فكر الإمام الشـــيرازي في مختلف المجالات نشراً و تطبيقاً.

□ □ □

منتدى القرآن الكريم يواصل مؤتمر

القرآن الكريم وتحديات العصر

في سنته السادسة

الإعلام الإسلامي.. تقييم واستشراف:

ضمـــن الفعاليات الســـنوية لمنتدى القرآن الكـــريم (الكويـــت) أقـــام وعلى مـــدى يومين متتاليـــين مؤتمره الســـنوي الســـادس (مؤتمر القرآن الكريم وتحديـــات العصر) تحت عنوان « الإعلام الإسلامي.. تقييم واستشراف » حيث شـــارك فيها عدد من رجال الدين والمختصين في المجال الإعلامي من داخـــل الكويت وخارجها.. فقد شـــارك في اليوم الأول كل من الشـــيخ عبد الله الصـــالح من البحرين والأســـتاذ د. المنصف الشنوفي أستاذ قســـم الإعلام في جامعة الكويت والأستاذ عبد الهادي الصالح الكاتب الصحفي في جريدة الأنباء الكويتيـــة، وأما اليوم الثاني فكان لورقتي الأســـتاذ أزهـــر الخفاجي المديـــر العام لإذاعة صوت العراق ونائب المدير العام لتلفزيون المنار في لبنان الأستاذ ناصر اخضر.

الشيخ الصالح: الشفافية في الإعلام الإسلامي:

أوضح الشيخ عبد الله الصالح من البحرين في ورقته التي جاءت تحت عنوان (الإعلام الرسالي رؤية قرآنية) إلى أن الأسلوب الذي اتبعه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغ الرسالة إلى الناس حسب الآيات القرآنية فكان التبليغ بالحقيقة الصادقة عبر وسائل إثارة العقل وتثبيت حالة الاطمئنان وإعطاء الإنسان حالة اليقين ومطالبة الإنسان التغيير ويطالبه بالفعل والكلمات وخلق المجتمع المؤمن المتلاحم.

كما انه تطرق إلى مواصفات الإعلام الإسلامي والذي يجب أن يكون فيه الصدق والحق والشفافية والوضوح واليقين والحكمة كذلك الإنصاف والكلمة الطيبة إضافة إلى اللين والمجادلة بالتي هي احسن والبلاغة والجمال الخطابي.

د. الشنوفي: مجلة (الكويت) منارة إسلامية:

أشار الأستاذ د. الشنوفي أستاذ الإعلام في جامعة الكويت في ورقته التي كانت بعنوان (نشأة الإعلام الإسلامي وتطوره) إلى أن الإعلام الإسلامي كان له الريادة في التصدي للمتغيرات فتم ذلك في فرنسا عبر مجلة العروة الوثقى على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة. التي كانت تنادي بالجامعة الإسلامية وكانت هذه بمثابة المنارة الأولى أما الثانية هي مجلة المنار والتي أسسها محمود رشيد رضا وانطلقت المجلة من القرآن الكريم وتجديد الخطاب الديني، أما النموذج الثالث فكانت مجلة

(الكويت) التي كانت بحق منارة إسلامية قامت بأدوار كثيرة في نمو الوعي الديني والفكري.

الصالح: لابد من خروج الإعلام الإسلامي من الوعظ الفوقي:

ومن جهته أكد الأستاذ عبد الهادي الصالح في ورقته التي كانت بعنوان (الإعلام الإسلامي وأثره في صياغة مستقبل الأمة) أهمية الإعلام في حياة الإنسان وإلا اصبح الإنسان غريبا عن الواقع أشار إلى أن هناك عناصر تساهم في نجاح الإعلام الإسلامي وهي الجانب العلمي والفني والأخلاقي.

وطالب الصالح تعديل الخطاب الإسلامي والخروج من الوعظ الفوقي والخطاب الكلي بدل الدخول إلى التفاصيل وضرورة الشفافية الأكبر وكسر الحواجز والحوار مع الجميع.

الخفاجي: إعلامنا حكومي سلطوي:

أكد الأستاذ أزهر الخفاجي المدير العام لإذاعة صوت العراق في حديثه عن الإعلام الإسلامي.. الواقع والطموح أن الأديان السماوية أولت عناية كبيرة للإعلام، فصار سمة عمل المرسلين لإبلاغ رسالات ربهم بعناوين البشارة والإنذار.

وأضاف بالقول أن « الإسلام اعتنى بموضوع الإعلام وأهميته بشكل لم تصل إليه نظم سياسية متطورة، بل ذهب إلى اعتباره واجبا من واجبات الفرد المسلم. مشيرا إلى أن اكثر ملامح الإعلام القائم في العالم الإسلامي اليوم، هو إعلام السلطة والحكومات، وهذا يؤدي إلى غياب المساحة الحقيقية للحرية وأداء العمل الإسلامي، وإصرار على أن تكون مشيئة الحاكم وإرادته هي النافذة، وإذا وجدت مساحات من الحرية فإن مجال تطبيقات العمل الإعلامي الإسلامي محصورة في نشرات أسبوعية أو شهرية لا ترقى إلى أن تحمل أعباء هذه الرسالة ».

وذكر الخفاجي أن « الإعلام الإسلامي دوره غائب في الغرب، وان كان حاضرا فان أداءه محصورا على دور لبعض المراكز الإسلامية والمساجد، وهذا ما يعرف بوكالة الأنباء الإسلامية. مطالبا بإلغائها افضل من استمرارها ».

أكد في حديثه أن « العمل الإعلامي مسؤولية دينية قبل أن يكون مسؤولية إنسانية، والكل موعود لإثراء وتنمية وتطوير أداء العمل الإعلامي الإسلامي، خدمة لقضايا الأوطان ولتحقيق كم إعلامي بمقدوره أن يتفاعل مع تطورات الأحداث العالمية ».

وأوضح الخفاجي بأنه قادم من العراق الذي عانى الكثير بسبب دكتاتورية نظام صدام البائد والذي كان يحمل سلاحين المال والإعلام حيث استطاع أن يقلب الموازين ويقلب الصديق والأخ وإيجاد المفردات في الشارع العراقي وأقربها تلك الوسائل الإعلامية التي أطلقها النظام ضد انتفاضة ١٩٩١ بأنها كانت غوغائية، فإضافة إلى ديكتاتورية النظام كان يود إلغاء الإسلام.

وأوضح انه خلال الظروف الحالية وفي ظل وجود القوات الأمريكية تم تأسيس إذاعة مستقلة تستند على مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتعمل الإذاعة ١٢ ساعة يوميا وتغطي ١٢ مليون نسمة وتعتمد معظم البرامج على تعرفة الإسلام والأئمة الأطهار والعراق والبلدان الإسلامية.

اخضر: إعلام عربي متناقض:

ثم تحدث نائب المدير العام لشؤون الإنتاج في فضائية المنار اللبنانية الأستاذ ناصر اخضر بالقـــول « انه لم يعد هناك مجتمع دون نظام اتصال، ولم يعد الإعـــلام في عصر المعلومات مجرد وســـيط إلكتروني، وإنما اصبح محورا أساســـيا في منظومة المجتمع، وبذلك أصبحت العلاقة بين الدين والإعلام علاقة تبادلية نظرا لحاجـــة التبليغ الديني إلى الوســـائط المؤثرة، فالدين هو المكون الثقافي للرأي العام والإعلام يأخذ الوعي الديني لإعادة تشكيله وتصحيحه أو تكوينه لخدمة الرأي العام ».

وأشار اخضر إلى أن الفضائيات لها دور في نشر وتطوير الوعي الديني عن طريق المجال السياسي المرتبط بإرادة وإمكانية العمل والتقني والفني المرتبط بالكيفيات والآليات والأساليب ثم الإطار النظري المعتمد على الأسس والمنطلقات وأخيرا الواقع العملي ومعوقاته.

وأضاف: رغم انطـــلاق الفضائيات منذ العـــام ١٩٩٠م، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق ما تصبو أليه بل على العكس لعبت دورا ســـلبيا في إشـــاعة الثقافة الوافدة، فنحن نملك ٩٠ محطة فضائية عربية وإســـلامية، وتبلغ حاجتها اكثر من ٧٨٨٤٠٠ ألف ســـاعة سنويا، نستورد منها ٧٥٪ وننتـــج فقط ٢٥٪ و٩٠٪ مما يســـتورد - عنف وإدمان وجنس، وحجم إنتاجنا من إنتاج العـــالم ١٪ - « ٤٠ وكالة عالمية تحتكر ٨٠٪ من فيض المعلومات وما ينفق على صناعة الإعلام لا يعادل ٢٪ من حجم الإنفاق العام العربي ».

أضاف بالقول أن « إعلامنا يشكو تناقضا جوهريا بسبب التخلي عن مهامه التنموية، إعلام يسوده الترفيه والتسلية على حساب المهام الثقافية والترابط الاجتماعي، وهو ضائع بين مصالح الحكام ومصالح المحكومين، بين غايات التنمية ومطامع القوى الاقتصادية، وهو قائم على تجميل صورة السلطة الحاكمة وإخفاء الرأي العام، وهذا الإعلام لم يتمكن من تصحيح صورة العرب والمسلمين المشوهة، أما الفضائيات التي تهتم بنشر وتطوير الوعي الديني فتكاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ».

ودعا في ختام حديثه إلى « توصيات عدة منها ضرورة إفساح المجال اكثر أمام إنشاء محطات فضائية دينية إسلامية، واعتماد خطاب ديني يجمع ولا يفرق، يقرب ولا يبعد، ويقدم الإسلام كدين عالمي متسامح يدعو للسلام، وأيضا إعداد استراتيجية إعلامية تتضمن الاعتماد على الأركان الإعلامية الثلاثة: « الأخبار، الترفيه التثقيف »

□ □ □

الملتقى القرآني الأول

التحولات الاجتماعية على ضوء القرآن الكريم

تحت شعار: « التحولات الاجتماعية على ضوء القرآن الكريم » ، انطلقت فعاليات الملتقى القرآني الأول في مدينة ســـيهات شرق المملكة العربية الســـعودية، وذلك في شـــهر رمضان، حيث تواصلـــت الفعاليات ليلـــتي ١٧و ١٨ من عام ١٤٢٤هـ، فقد شـــارك في هذا المؤتمر نخبة من علمـــاء ومفكري المنطقة المهتمين بالشـــأن القرآني، و قدم المشاركون أوراقاً، ناقشوا فيها التحولات الاجتماعية مـــن وجهة نظر قرآنية انطلاقـــاً من كون القرآن الكـــريم هو مصدر البصائر والرؤى الربانيـــة الرفيعة، وتعد هذه الفعالية الثقافية الفكرية الأولى من نوعها التي

تشـهدها المنطقة من حيث الشكل والمضمون، وتعتبر امتداداً لملتقيات قرآنية مثيلة.

وقـد بـدأت الفعاليـات القرآنية لهذا الملتقى بعد كلمة افتتاحية تحدث فيها سماحة الشيخ علي الصيود عن أهمية الفهم القرآني في حل مشكلات الأمة، وعن أهمية وضرورة تحويل القـرآن إلى ثقافة تقود حركة الأمة، وأعتبر أن هذا الملتقى يمثل مدخلاً لمشـروع ثقـافي كبير يهدف إعـادة الأمـة إلى ثقافة القرآن واستلهام البصائر والرؤى منه، وهو كذلك استمرار لنشاطات قرآنية مماثلة.

بعدها بـدأ الباحثـون والمفكرون في طـرح أوراقهم التي تعلقـت بعنوان الملتقى (التحولات الاجتماعيـة على ضوء القرآن الكريم)، وقـد طرحت في الليلة الأولى من بدء الفعاليات ثلاث مشاركات وهي:

١ - (التحولات الاجتماعية في القرآن الكريم... الأصول والنماذج، ألقاها سماحة الشيخ محمد العليوات.

٢ - القيم والتحولات الاجتماعية.. رؤية قرآنية. ألقاها سماحة الشيخ زكريا داوود.

٣ - قراءة في التحولات الحضارية عند بني اسرائيل، ألقاها سماحة الشيخ علي الصيود.

وقد بدأ الشيخ العليوات مشاركته قائلاً: بالرغم مـن أن القرآن الكـريم ليس كتاباً في الطـب، ولا في الفلك، ولا في علم التاريخ، بل لا ينبغي أن نتوقع أن يتحول إلى كتاب مدرسي في علم من العلوم.. بالرغم من ذلك كله فعطاءات القرآن الكريم واسعة جداً وثرية ومتجددة، فهو كمـا في الأثر « شمس تطلـع كل يوم » حيث يشير القرآن الكريم إلى جملة من المعطيات في حقول علمية شـتى، ويرشد إلى قوانين عامة، في التاريـخ، وأحوال المجتمع البشـري، ويمكن للإنسـان المتأمل لآياته والمتلمذ على بصائره، أن يختـرق حجـب الزمان والمـكان التي تقيد العقل البشري وتحجب عنه الرؤية الصافية.

ثم تحدث الشيخ العليوات عن كون التحول سـنة الله الثابتة، واستعرض آيات عديدة في هذا الجانـب، بعدها تحدث عن تحـولات الأجيال، واسـتعرض آيات قرآنية قام باستخراج بصائر لواقعنا المعاصر منهـا، ثم تحدث عن العناوين التالية: دعوات الأنبياء وتحولات المجتمع، وذكر مثالاً قرآنيـاً صاحب الجنتين، والتنبؤ بالتحول، وأهمية دراسة التحولات، وضرورة وعي التحول وحكمـة التحـول، ومقدمات في فهـم التحول ومشكلاته، واتجاهات وقيم التحول.

وبعـد ذلك ألقى الشـيخ زكريـا داوود دراسـته تحت عنـوان « القيـم والتحولات الاجتماعيـة.. في القرآن الكـريم »، وقد بدأ ورقته بمقدمة قال فيها: يمثل القرآن الكريم منبع الحكم والقيم والمعارف وهو الذي أسس حضـارة وحدد لها مصدر المعرفة لما كان وما سوف يكون وما هو مؤمل أن يكون، فالقرآن كنص موحى للرسول ﷺ، كان المحرك لمسيرة المجتمع الإسـلامي في أبعاده القيمية والثقافية والسياسـية والاجتماعية، فقـد كانت معرفة النص وتفسـيره تنتج وعياً للجماعة وللفرد، للجماعـة لتتحرك نحو تفعيل قيم الشـهود، وللفرد لأداء دوره في تحقيق المسؤولية.

إن كل قيم التغيير والتجديد في تاريخنا كانت تتخـذ من القرآن منطلقاً، وقد تكون بعض دعـوات التجديد الفكري والاجتماعي

أصابت بعض الهدف، أو أخطأته، لكن الرغبة كانت قوية في جعل القرآن وعياً متجدداً مع الزمن من خلال استحضار بصائره وما يهدي إليه.

ونحن هنا نسعى كي نتوصل لوعي قرآني للتحولات الاجتماعية كما يرسمها القرآن، ومن مناهج قراءة القضايا على ضوء القرآن هو ما يطلق عليه المنهج الموضوعي في قراءة المجتمع، ولا يعني ذلك التنكر للمناهج الأخرى، لأننا نعتبر المنهج الموضوعي في قراءة النص القرآني منهجاً توظيفياً أي أنه يقرأ النص من خلال الضرورة الواقعية عبر استخدام أدوات المنهج اللغوي والتاريخي والفقهي والعقلي، فهو منهج يوظف كل الأدوات المعرفية من أجل الحصول على نتيجة أقرب لأهداف النص ولمبتغاه.

ثم تحدث بعد ذلك عن التحول في القرآن الكريم قائلاً: التحول في القرآن الكريم ليست ظاهرة استثنائية، بل هو قانون ثابت يجري في كل زمن ومكان، فالكون يجري وفق قانون التغير والتحول، فليس ثمة غير الله في الحياة من لا يحكمه هذا القانون ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾، والتحول كمفهوم هو سنة عامة تجري في خلق الله، والقرآن عندما يتحدث عن التحول يلفت الأنظار والعقول إلى كونه دليلاً على القدرة والعظمة الإلهية، لأن التحول دليل على تكاملية نظام الخلق، وعلى حكمة الخالق.

يقول تعالى وهو يصف التحول الذي يحدث في السماوات والأرض: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾، وفي آية أخرى عندما يتحدث عن مدى التحول ومنتهاه، وما هو الزمن الذي فيه يتوقف التحول؟ فإن القرآن الكريم يعتبره أمراً مستمراً إلى يوم القيامة، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّه الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾.

بعدها أخذ يستعرض نقاط ورقته وهي كما يلي: مفهوم التحول، وصفات التحول الاجتماعي، وأرجعها إلى ثلاث صفات عرضها مع ذكر الشواهد من القرآن الكريم وهي:

١ - عمومية التحول.

٢ - استمرار السنة في الزمان وعدم توقفها.

٣ - إنسانية سنن التحول والتبدل والتغير.

ثم استعرض التحول في القيم الاجتماعية مستشهداً بالآيات القرآنية، وتحدث عن قيم النهضة والسقوط، وفي الأخير استعرض الشيخ الداوود مجموعة من القيم التي تساعد على النهوض الحضاري للأمة الإسلامية، وحددها بأربع مجموعات وينتضم تحت كل مجموعة قيم فرعية أخرى.

وكانت الورقة الثالثة والأخيرة لليلة الأولى قد ألقاها الشيخ علي الصيود تحت عنوان « قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل » ، وقد بدأ ورقته بالقول: توسع القرآن الحكيم في حديثه عن بني إسرائيل، وأستعرض إنجازاتهم وإخفاقاتهم، ورصد لنا المسيرة الحضارية وما اعتراها من علل وأمراض أسهمت في أفول نجمهم.

فقد نص القرآن الحكيم على تفضيل بني إسرائيل على العالمين - في زمانهم - ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾.

فما الذي حدى ببني إسرائيل وساقهم

إلى الخسف فجعل منهم القردة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

وما الذي جرّهم إلى تعدي حدود الله تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

فكانت المحصلة النهائية الطرد واللعن: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾. فبعد تربعهم على كرسي التفضيل والتكريم وبعد أن أطعمتهم يد السماء من خيراتها وبركاتها: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

فحرّي بنا أن نتتبع ونرصد الإخفاقات والتحولات التي رافقت مسيرة هذه الأمة، ولماذا فقدت هذه الأمة أهليتها في القيادة الدينية؟

بعدها تحدث الشيخ الصيود عن التحولات الكبرى عند بني اسرائيل قائلاً تحت عنوان « بين ألواح موسى وعجل السامري » :

خاض بنو إسرائيل اختباراً صعباً بعد غياب نبي الله موسى عليه السلام، لتقي التعاليم الإلهية، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ألواح موسى عليه السلام وما فيها من الهدى والبينات، إلاّ أنهم وبسبب ما انتابهم من الوهن والضعف استجابوا لأباطيل السامري، فانتقلوا بين عشية وضحاها من عبادة الله إلى عبادة العجل.ثم استعرض الشيخ الصيود تلك التحولات في العناوين التالية: عصيان الأوامر والتيه، التحول الأخطر، الدواعي والأسباب، التحولات النفسية أرضية التحولات الفكرية، سورة الجمعة ميلاد أمة، وموت أخرى،الأمة الإسلامية ومحاولة النكوص.

بعدها بدأ الجمهور بالمداخلات والاستفسارات، ومن ثم اختتمت الليلة الأولى من الملتقى القرآني الأول.

أما الليلة الثانية فقد ألقيت فيها ثلاث مشاركات هي:

١ - أوليات في فقه السنن في القران الكريم، ألقاها الشيخ محمد المحفوظ.

٢ - الإصلاح الديني وتأثيره في التحولات الاجتماعية، ألقاها الشيخ حبيب الخباز.

٣ - انتكاسة السامري وثقافة المرحلة، ألقاها الشيخ عبدالغني عباس.

وقد بدأ الشيخ المحفوظ ورقته قائلاً: ثمة حقيقة أساسية يبرزها النص القرآني، وهي أن الإنسان هو صانع حركة الحياة ضمن السنن الكونية والاجتماعية التي تمثل القوانين التي أودعها الله سبحانه في الكون وفي حركة الإنسان في المجتمع.لذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

بعدها بدأ طرح باقي ورقته تحت العناوين التالية: التحول الذاتي.. وإرادة الإنسان، حاجتنا إلى فقه السنن، وتحت نتائج أخيرة اختتم الشيخ المحفوظ مشاركته قائلا: أن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تجري في مجالنا الإسلامي اليوم، ليست وليدة الصدفة أو بدون مقدمات أفضت إليها.. إننا نعتقد أن هذه التحولات في كل دوائرها ومستوياتها، هي نتاج جملة من العوامل والأسباب ولا يمكن فهم حقيقة هذه التحولات

والتطورات إلا بإدراك أسبابها وعواملها التي أنتجتها وخلقتها. والفكر السنني هو ذلك الفكر الذي لا يتعامل مع الظواهر المجتمعية والتحولات الإنسانية بعيدا عن أسبابها الخاصة والعامة.

بعد ألقى الشيخ حبيب الخباز مشاركته بالقول: قضية الإصلاح في المنظور الديني تعتبر أساسا لرقي الحياة الإنسانية، طالما البشرية بحاجة إلى الهدى والاستقامة والتكامل، ولولا ذلك عاش تائها ضائعا مما ادعى بأنه أكثر عقلانية وتقدمية وحضارية.

مما يعني ذلك بأن الإصلاح لا يقتصر على بعد واحد بل يشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، كما هو واضح في القرآن الكريم وسوف نتعرض إلى ذلك فيما بعد، وبالرغم من أن شعار الإصلاح يحظى بهذه الأهمية ويعكس الروح الايجابية للدين وقيمومتة للحياة، نجد إن هناك تيارات مختلفة تعارض هذا المفهوم وتحاول أن تضفي عليه صبغة المثالية والتي تعني الروحانية الخاصة في مقابل الواقعية وبعبارة إن الدين مهيمن على روح الإنسان وبنائه الداخلي وليس له علاقة بالدساتير والأنظمة الواقعية و الحياتية.

بعدها استعرض العقبات العامة امام الدعوات الاصلاحية وحددها بما يلي:

١ - العادات والتقاليد.

٢ - عصيان القيادات الرسالية.

٣ - إتباع الأهواء والشهوات وحياة الدعة والميوعة ثم تحدث في ورقته عن الإصلاح بنظرة قرآنية تحت العناوين التالية: الصحوة الإسلامية يقظة في ضمير الأمة، وتحت عنوان « الإخفاقات وسلبيات العمل الاصلاحي » أورد أربع سلبيات هي: العمل الفردي،و الدور المحدود، وثقافة التكفير والتفكير السطحي، وأسلوب المواجهة المباشرة مع النظام السياسي.

بعد ذلك القى الشيخ عبدالغني عباس الورقة الأخيرة في الملتقى والتي جاءت تحت عنوان « انتكاسة السامري وثقافة المرحلة » ، مبتدئاً بقوله: بين ثقافة النهوض ودعوات الانتكاسة بون شاسع، من حيث أن الأولى يكون همها البناء والحركة واستثمار الكفاءات أو صناعتها من جديد، بينما الثانية مصبها بالنتيجة إلى العودة إلى الوراء.

هذا بالضبط ما يمكن لنا عنونته من مراجعة مسار حركة بني إسرائيل، ولكي يتسنى لنا قراءة هذه المقطعيات التاريخية نطل عليها بإيجاز شديد مراعاة للزمان.

ثم قال: إن ما حدث من انتكاسة بقيادة السامري يمكن تعداده بما يلي:

أولاً: تأثير السابقيات الفكرية والعقائدية:

ثانياً: التلبيس والملبسون، ويشرخ الشيخ عبدالغني هذه النقطة بقوله: إن أمثال هذه الأفكار الارتجاعية المطالبة بالعودة إلى ما قبل الاصلاح، لا تطفو على سطح المجتمع على حين غفلة، بقدر ما يتبين لنا كلمات القرآن الحكيم وجود من يغذي مثل هذا الاتجاه، وفي الحقيقة هنالك تلبيس وهنالك أيضا ملبسون، ولا فصل بينهما.

ثالثاً: محاولة السعي من أجل تحصين المجتمع ثقافيا وعقائديا.

بعدها بدأ الجمهور بطرح العديد من التساؤلات والمداخلات المباشرة، ثم اختتم الملتقى بمجموعة من التوصيات ألقاها سماحة الشيخ علي الصيود □

أي منقلب ينقلبون

يزيد بن معاوية، عمر بن سعد، عبيدالله بن زياد، الحجاج بن يوسف الثقفي، نماذج من طغاة العرب الذين مارسوا أشد أنواع التنكيل والقتل والتشريد والإجرام بحق الأمة، لكن النهايات لهولاء المجرمين كانت متقاربة، فيزيد لم يهنأ بالحكم إلا ثلاث سنين وأشهر، وعمر بن سعد الذي قتل سبط الرسول ﷺ بأمر من يزيد، قتله الثائر المجاهد المختار الثقفي بالطريقة التي قتل فيها عمر بن سعد الحسين ولا قياس، وكذا كانت نهاية عبيد الله بن زياد في معركة مع الجيش الثائر الذي خرج للثأر من قتلة آل الرسول ﷺ، وكذا الحجاج الذي قتل كميل بن زياد العالم الفقيه وصاحب أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقتل قنبر خادم علي عليه السلام وقتل التابعي الجليل سعيد بن جبير، وقتل من المسلمين أكثر من ١٢٠ ألف وكان في سجنه أكثر من ٧٠ ألف من الرجال و٤٠ ألف من النساء، كانت نهايته كذلك مأساوية، ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾، وهكذا يتواصل في الأمة مسلسل حكم الطغاة وتتواصل النهايات المأساوية، وآخرٌ هؤلاء هو صدام حسين الذي فاق جبابرة التاريخ إجراماً وقتلاً وتلاعباً في دماء المسلمين، وها نحن نشهد هذه النهاية المخزية لهذا الطاغية، لكن السؤال هو لماذا يتكرر إنتاج هذه الأمة للطغاة؟ ولماذا يتكرر هذا المشهد في حياتنا المعاصرة دون أن تُحدث في حكامنا العبرة؟ ما هو الدرس الذي تستقيه الأمة من هذا المشهد الفظيع؟ ولماذا لم يسقط صدام بيد الثوار العرب والمسلمين؟

هذا المشهد فضح العقل العربي الذي رأيناه ثقافياً وإعلامياً وسياسياً يؤسس البنى الفكرية ليجعل المشهد يتكرر، علينا أن نبحث في أسس اختيار قادتنا وحكامنا لنرى حقيقة الخلل ونتلافاه كي لا تتكرر مأساة الأمة، ولا يمكن تأسيس نهضة من دون التأسيس لقيم جديدة منطلقة من الوحي المعصوم القرآن الكريم والعترة الطاهرة، وقد تتكرر المأساة ما دامت الأمة بعيدة عن قيم القرآن وعن أهل البيت الطاهرين عليهم السلام.

■■ آمال حسين

No. 30 14th Year- Winter 2004AD /1424HG.

30

ALBASA'ER

IDEOLOGIC ISLAMIC MAGAZINE

Islamic Ideoligic Magazine
Issued by: Islamic Studies
& Resarches Center
In the Universiy of
Imum ka'am

المشاركون في العدد:

- الإمام الشيرازي قدس سره
- آية الله عباس المدرسي
- معتصم سيد أحمد
- علي الصيود
- محمد محفوظ
- زكريا داوود
- حبيب الخباز
- عبدالغني عباس
- إبراهيم جواد
- محمد العليوات
- محمود الموسوي
- ناجي زواد
- عباس الجمري
- فيصل العوامي
- جلال سليماني
- بدر الشبيب
- آمال حسين